دراسة في

التوراة والإنجيل

د. كامل سعفان

ENGIEL

دار الفضيلة



دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٦٦٢٢٢٢٢
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية . عابدين . القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية

دار المعرفة

40 شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص.ب 4150 — ت 300567-309520

١ ـ أنبياء

العهد القديم .. ورب إسرائيل !!

لاشك فى أن كتب العهد القديم من (الكتاب المقدس)[1]
طابع القداسة ، لا لأنها قديمة ، وللقدم عَبيره الخاص ، وقوَّة أ
لأنها تحدثنا عن تاريخ الحضارة الإنسانية فى شكل من أشكالها، ا
تتناول علاقة السماء بالأرض فى حقبة زمنية طويلة ، ولا لأنها تح
أكثر الرجال تأثيراً فى الكيان الإنسانى ، حتى يومنا هذا ، ولا لأن ا
آلاف الملايين ـ من سكان هذه الأرض ـ يؤمنون بما جاء فيها ، ا
كل حـرف منها مأخذ التقديس ، بل هو إلى ذلك كله صورة
عارياً : عاجزاً أمام قوة خفية ، تفرض عليه قَدراً ، تبسُط له وتقدِر
وتشقيه ، تحييه وتهلكه .. ومع ذلك فهو يريـد أن يكون، أن يعلن
إرادته ، أن يجعل من هذه القوة الخفية أداة .

(الكتاب المقدس) إذن ـ إن لم يكن كتاب دين ـ هو كتاب
لأنه يكشف أبعاداً إنسانية عميقة الجذور ، بعيدة المرامى .. ومن أ
وَجَبَ أن يهتم به كل من واتته القدرة ، لأنه جزء من التراث ا
العظيم .. ومن ثَمّ لا يكون مِلْكَ طائفة دون أخرى ، لأنه ملك
كلها .. وعلى هذا نكون مطالبين بحمايته ، وتقريبه ، وحسن تقويمه

ولما كان هذا الكتاب العظيم كُتِبَ فى أزْمَانٍ متباعدة ، امتد
ألف عام تقريبـاً ، من حـوالى ١١٠٠ ق . م حتى الـقرن الثانى

---

(١) اعتمدت هذه الدراسة على طبعة مطبعة عنتر بالقاهرة سنة ١٩٦٦ ، وهى مصـدر
(وقد ترجِم عن اللغات الأصلية ، وهى اللغة العبرانية ، واللغة الكلدانية ، واللغـة اليونانية)

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير
الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٢٢٢٢٢٦٦٦
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦





بسم الله الرحمن الرحيم

اتَّخَذَتْ هذه الدراسة من (النص المقدس) سبيلاً إلى إبراز الفكرة وتدعيمها وتعميقها .

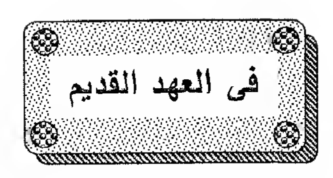
أما (ما حول النص) من دراسات ـ بالرغم من كثرتها ـ فقد كانت وسائل تنوير ، وعلامات على الطريق .

كانت بين يدى كتابات أكثر تحرراً ، وكتابات أكثر انغلاقاً ، وكتابات تتحرى الحقيقة ، دون انفعال ، وأكثرُها أقلام غير إسلامية .

ومع أنى أفدت من كل هذا ، فإنى لم أخضع له ، لأن (النص) كان صاحب الكلمة الأخيرة وهذا حسبى .

والله من وراء القصد ،،،

أكتوبر ١٩٨٩



١ ـ أنبياء العهد القديم .. ورب إسرائيل !!
٢ ـ شعب صلب الرقبة !!
٣ ـ صهيونية !!
٤ ـ إله من ذهب !!
٥ ـ تشريعات سماوية .. ولكن !!
٦ ـ أسطورة .. بل لا معقول !!
٧ ـ قيم أدبية جديدة فى العهد القديم !!
٨ ـ كتاب مقدس .. عبارته تنفى قداسته !!

١ ـ أنبياء

العهد القديم .. ورب إسرائيل !!

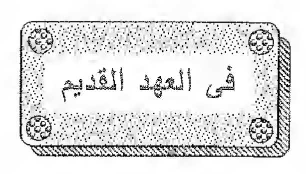
لاشك في أن كتب العهد القديم من (الكتاب المقدس)[١] تحمل طابع القداسة ، لا لأنها قديمة ، وللقدم عبيره الخاص ، وقوة أسره، ولا لأنها تحدثنا عن تاريخ الحضارة الإنسانية فى شكل من أشكالها، ولا لأنها تتناول علاقة السماء بالأرض فى حقبة زمنية طويلة ، ولا لأنها تحدث عن أكثر الرجال تأثيراً في الكيان الإنساني ، حتى يومنا هذا ، ولا لأن مئات بل آلاف الملايين ـ من سكان هذه الأرض ـ يؤمنون بما جاء فيها ، ويأخذون كل حرف منها مأخذ التقديس ، بل هو إلى ذلك كله صورة الإنسان عارياً ، عاجزاً أمام قوة خفية ، تفرض عليه قدراً ، تبسط له وتقدر ، تسعده وتشقيه ، تحييه وتهلكه .. ومع ذلك فهو يريد أن يكون، أن يعلن وجوده، إرادته ، أن يجعل من هذه القوة الخفية أداة .

(الكتاب المقدس) إذن ـ إن لم يكن كتاب دين ـ هو كتاب حياة ، لأنه يكشف أبعاداً إنسانية عميقة الجذور ، بعيدة المرامى .. ومن أجل هذا وجب أن يهتم به كل من واتته القدرة ، لأنه جزء من التراث الإنساني العظيم .. ومن ثمّ لا يكون ملْكَ طائفة دون أخرى ، لأنه ملك الإنسانية كلها .. وعلى هذا نكون مطالبين بحمايته ، وتقريبه ، وحسن تقويمه .

ولما كان هذا الكتاب العظيم كُتبَ فى أزْمَانٍ متباعدة ، امتدت نحو ألف عام تقريباً ، من حوالى ١١٠٠ ق . م حتى القرن الثانى قبل

---

(١) اعتمدت هذه الدراسة على طبعة مطبعة عشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦ ، وهى مصدرة بعبارة : (وقد ترجم عن اللغات الأصلية ، وهي اللغة العبرانية ، واللغة الكلدانية ، واللغة اليونانية) .


فى العهد القديم

الميلاد (١)، ولم يصل إلينا في لغته التي كُتب بها ، وقد بدأ تدوينه ـ فيما عدا لوحي موسى ـ بعد العودة من الأسر البابلي ، أي بعد قرون عديدة من الحروب والفتن والشتات والخضوع لعقائد وعاداتٍ وأساطير شعوب كثيرة تمزقوا فيها وبها ، وفي عام ١٥٤٦م أضاف مجمع « ترنت » كتباً أخرى إلى أسفار العهد القديم ، لم يقبلها البروتستانت (٢).. وكل ذلك يعلل تسرب عوامل التحريف والتزييف والإضافة والحذف ، بسبب الرواية الشفهية زمناً طويلاً ، ولأسباب كهنوتية وسياسية وطائفية وبيئية .. هذا إلى أن اللغة التي تُرجم بها ليست سليمة كل السلامة ـ فقد وَجَبَ في رأيي ـ أن تعاد (ترجمة) هذا الكتاب ، عن أصوله العبرية والآرامية واليونانية ، بأسلوب هذا العصر ، مع مراعاة ما داخل الشريعة من نظم فاسدة ، وقيم مشوهة ، وما بُدِّلَ وأسقط من أحداث تاريخية ، وما أضيف من أوهام وأساطير .

إنه ليس من المعقول مثلاً أن نجد معظم رسل الله وأنبيائه في صورة من الضعف والنذالة والقسوة والجشع والتهتك ، والوقوع في جرائم الشرك والزنا والقتل !! .

* * هذا نوح : (شرب من الخمر ، فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجا ، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ، ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما ، فلما استيقظ نوح من خمره ، علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) ـ (تكوين / ٩) .

رسول من أولى العزم ، تلعب به الخمر، فيتعرى ، ويثور ، لأن أصغر

(١) د . فؤاد حسنين علي ـ التوراة الهيروغليفية ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ ص ١٥ و ٢١ .

(٢) القس صموئيل شوقي ـ مصادر الكتاب المقدس ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٣ ـ ص ٥٦ .

أولاده استحيى أن ينظر عورة أبيه ، ولم يدر ما يفعل ، فخرج وأخبر أخويه الكبيرين ، حتى يحسنا التصرف ، ومع هذا يصبح ملعونا ، بل يصبح (كنعان) البريء هو الملعون إلى الأبد ، ويظل عبد العبيد لإخوته .

من أجل خدمة مآرب (صهيونية) يُصْبح أبو البشر ـ بعد الطوفان ـ منهتكاً ظالما ، ويستجيب (الله) لدعاء الرسول المتهتك الظالم ، فيقضي في كنعان وذريته من بعده ، دون جريرة ، ودون ذنب اقترفوه !! .

أهذا هو نوح الأب الرحيم الذي دعا إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلما أبى ابنه الاستجابة له ، وأدبر واستكبر ، وقال : ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ (١) .

دعا نوح ربه متضرعا مستعطفا : ﴿ رَبِّ، إن ابني من أهلي ، وإنَّ وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ (٢).

إن نوحا الذي ضاق بكفر قومه ، فقال : ﴿ رب ، لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ (٣) .

أخذته الرحمة بابنه ، وطمع في نجاته مع كفره ، فكيف به ـ دون سبب ـ يلعن حفيده ، ويدعو بحرمانه من رحمة الله ، مع يقينه ببراءته من الإثم ؟! .

أما كان أجدر به أن يلتمس لابنه عذرا ، وأن ينصح له إذا شام (٤) خطأ ، وأن يصبر عليه إذا وجد انحرافا ، وقد صبر على قومه تسعمائة وخمسين عاما ؟! .

** وإبراهيم ، خليل الله ، وأبو الأنبياء ، العقل الكبير ، الذي اهتدى

(١) هود / ٤٣ .
(٢) هود / ٤٥ .
(٣) نوح / ٢٦ ـ ٢٧ .
(٤) شام الأمر : التمسه وتطلبه .

إلى الله بالنظر فى سمائه ، والقلب المؤمن الشجاع الذى جاهد أباه وقومه ، ولم يبال أن يحرقوه ، فلم يجبن ، ولم يلن ، ولم يظهر غير ما يبطن .. هذا المثل الأعلى فى التفكير السليم ، والحفاظ على المبدأ القويم ، الذى هاجر ضاربا فى الأرض ، مخلّيا أباه وقومه ، عابراً مجاهل ومخاطر ، من أور الكلدانيين ـ شمال شرق العراق ـ إلى مصر ، يدفعه الجدب والمجاعة إلى بلاد بعد بلاد ، حاملا رسالة السماء و تصحبه زوجه سارة ، فقال (لساراى امرأته : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رأك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلوننى ، ويستبقونك ، قولى إنك أختى ، ليكون لى خير بسببك ، وتحيا نفسى من أجلك) .

هذا الرسول القوى القلب والعقل يتاجر بامرأته . يتخذها درعا ، ووسيلة خير !! .

وكان أن (أخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيرا بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال) . ولولا أن الرب تدخل (فضرب (فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة أبرام) ـ (تكوين / ١٢) ـ لكان ما لا يحمد فى حسبان !! .

استمرأ (كتّاب) التوراة هذه (القصة) ، فأعادوا روايتها (ذاتها) فى موقع آخر ، حين نزل إبراهيم وامرأته مغتربين فى أرض (جرار) ، فرووا على لسان إبراهيم أنه قال عن سارة إنها أخته ، مما دعا أبيمالك ملك جرار إلى أخذها عنده ، فلما اكتشف الحقيقة عنّف إبراهيم على خداعه إياه ، ثم أعطاه غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وألفاً من الفضة ، ورد إليه امرأته ـ (تكوين / ٢٠) .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل تكررت القصة ذاتها مع ابنه إسحاق ، حين قصد إلى أرض جرار ، ليقيم فيها ـ (تكوين / ٢٦) .

وكأننا إزاء تقرير تلك القاعدة اللاأخلاقية الشهيرة : « الغاية تبرر الوسيلة » !! .

- ** ولوط ابن أخى إبراهيم ، ذلك الرجل الطيب ، الذى حاول أن يصلح من أمر (سدوم) الفاجرة فلم يفلح ، وتآمرت عليه زوجه ، فكان أن (أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا) ، فاحترقتا ، وصارت امرأة لوط (عمود ملح) .

هذا الرجل : رسول الطهارة الروحية والجسدية (سكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلمّ نسقى أبانا خمراً ، ونضطجع معه ، فنحيى من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها) وتكرر الحال فى اليوم الثانى مع الصغيرة ، (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما) فولدت الكبرى (مواب) أبا المؤابيين ، وولدت الصغرى (بن عمى) أبا بنى عمون إلى اليوم ـ (تكوين / ١٩) .

من أجل أن يكون المؤابيّون والعمونيون أعداءُ الإسرائيليين ـ بنى سفاح ، فليكن رسول الطهارة زانياً بابنتيه ، هذا النبى الذى خاف أن يبيت فى (صوغر) ، حتى لا يتعرض أحد بسوء لابنتيه ، حمل معه إلى المغارة خمراً ، وشرب حتى سكر ، واستولد ابنتيه وهو لا يدرى ، والبنتان تحتالان على أب (نبىّ) شيخ ، خوف أن ينقطع النسل ، كأن المغارة هى كل الدنيا ، وكأن المغارة ستكون موطنهم إلى الأبد ، وكأن زادهم من الماء والطعام لن ينفد ، ولو صح هذا كله ، فكيف تبرران لأبيهما هذا الحمل الذى لا يمكن إخفاؤه ، وهم سجناء هذه المغارة ؟!

إذا وضعنا فى الاعتبار أن من مهام رسالة لوط السماوية تطهير قومه من آفة الشذوذ الجنسى ، وقع فى وهمنا أن هذه القصة المفتراة أريد بها الاحتجاج على (الطهارة) ، وتبرير الانحراف . !! .

ويرى بعض علماء الأساطير أن هذه القصة (تضمينة أسطورية مهاجرة من أصل مصرى ، وترد فى الميثولوجيا المصرية ، مرتبطة بإلهة الموت نفتيس التى سمّاها بلوتارخ « أفروديت ») ، إذ تروى الأسطورة أن هذه الإلهة (كانت تتمنى أن تنجب طفلاً من أخيها الأكبر أوزوريس ، ولهذا الغرض أسكرته ، وضاجعته ، وكان ثمرة هذا اللقاء الدنس إنجابها للإله أنوبيس) (١) .

ولأن الفكر المصرى عشّش فى رءوس اليهود زمناً طويلاً ، واستقر فى وجدانهم ؛ يمكن تسرب هذه الأساطير إلى أقلامهم ؛ مع ما تسرب من المعتقدات الفرعونية إلى ديانتهم .

** ويعقوب بن إسحق : يحكي (سفر تكوين ٢٧) أن يعقوب احتال على أبيه إسحق ـ وكان قد كفّ بصره ـ ليحصل على البركة وحق البكورية ، من دون أخيه عيسو ، وساعدت على هذا التآمر (رفقة) أم عيسو ويعقوب المُنَعَّم المدلّل ، بينما يحب إسحق عيسو الصياد الماهر الكاسب المكافح . وبهذا يخدع يعقوب ، نبيُّ الله ، أباه إسحق ، نبيَّ الله ، وتصبح بركة يعقوب بسبب الغش والتحايل ، والرب ـ سبحانه ـ يقرُّ هذا الأمر ، ويحقق البركة !!

وينسى كاتب القصة أن إسحق ـ حين بارك يعقوب فى شخص عيسو ـ إنما كان يبارك عيسو لا يعقوب ، فالبركة إذن لاحقة بعيسو ، لأن إسحق لم يكن يعرف أن الذى يباركه غير عيسو .

وفى سبيل هذه البركة المدَّعاة ، جعل الكاتب من يعقوب وصولياً كاذباً ، وجعل من أمه (رفقة) ناقصة عقل ودين ، وانتقص إسحق الذى لم يستطع أن يميِّز بين جلد الإنسان وجلد المعزى ، وقد داخله الشك من

(١) شوقى عبد الحكيم ـ أساطير وفولكلور العالم العربى ـ روز اليوسف ـ جـ ١ ص ١١٩ .

اختلاف الصوت ، وجدّف على الله سبحانه الذى أقر هذه المهزلة جميعاً .

كان بوسع إسحق سحب بركته ممن اغتصبها غدراً ، ومنحها لصاحب الحق فيها ، أو كان منحها الاثنين معاً ، فرصيد البركة لن ينفد ، وإلا ، فالإبقاء على بركة يعقوب ، دون عيسو ، اعتراف بمشروعية العدوان والاحتيال على حقوق الآخرين ، مع حرمان صاحب الحق دون جريرة !! .

يعلق جيمس فريزر على هذه (الفرية) بأنها تتعارض ـ بطريقة غير مستحبة ـ مع الوقار الذى اتسم به جده إبراهيم ، كما تتعارض مع الورع التأملى الذى اتسم به أبوه إسحق ، فإذا كان إبراهيم يعد مثالاً للشيخ السامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة واللطف ، فإن يعقوب كان مثالاً للتاجر السامى اللين الحَذِق ، الوافر الحيلة ، الحريص على الكسب ، وعلى أن يتم صفقاته بالحذق ، لا بالقوة ، دون أن يتردد كثيراً فى اختيار الوسائل التى يبزّ بها منافسيه ، ويتفوق عليهم (١) .

ويحاول فريزر جهده أن يبرر موقف يعقوب من أخيه عيسو فى حق البكورية ، على أساس أن العادة كانت أن يرث الابن الأصغر أباه ، (لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه فى مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ، ويخرجون إلى الحياة بحثاً عن مساكن جديدة لهم)(٢) . وعلى هذا أورث داود أصغر أبنائه سليمان الحكم ، وأبعد أحد أبنائه الكبار (أدونيا) الذى كان قد طالب بالعرش (٣) ، ومن قبل ورث إسحق إبراهيم من دون إسماعيل !! .

ومن ثم كان تحايل يعقوب على حرمان أخيه من حقه مشروعاً (!!) مع أن ما فعله داود كان من صميم حق داود فى اختيار الرجل

(١) الفولكلور فى العهد القديم ـ الهيئة المصرية العامة ـ سنة ١٩٧٢ جـ ١ ص ٢٥٨ .
(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٧٢ .
(٣) نفسه ـ ٢٦٢ .

المناسب للحكم ، لا للبركة وحق البكورية ، ثم إذا صحّ أن الابن الأصغر يرث أباه لأن الأكبر هجــر أباه ، فهذا لم يصح فى حالة عيسو مع أبويه وأخيه ، وإذا كان هذا الأمر مشروعاً ، ففيم الاحتيال ، وتقمص شخصــية الابن الأكبر ؟! .

* * أما داود النبى ، ذو الأيْد ، الأوّاب ، الذى آتاه الله (الحكمة وفَصلَ الخطاب) فقد أصبح – فى شريعة إسرائيل – مُجْرِماً سفّاحاً !! .

(قام عن سريره ، وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود ، وسأل عن المــرأة ، فقال واحــد : أليست هذه بثشبع بنت أليعام ، امرأة أوريا الحثى ؟! فأرسل داود رسلاً ، وأخذها ، ودخلت إليه ، واضطجع معها ، وهى مطهّرة من طمثها) .

وأرسل إلـى (يواب) قائد جنده يستدعى زوجها الذى كان بين الجـنـد ، (وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك ، واغسل رجليك) ، على أمل أن ينام الرجل مع زوجته ، فيغطى على جريمة داود ، إذا هى حبلت ، لكن الجندى المخلص أبى أن ينام مع زوجته ، لأن (التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يواب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتى ؟! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر) .

أعاد داود الكرة ، بعدما أسْكَرَ الرجل ، لكن أوريا (خرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده) . فما كان من داود إلا أن أرسل إلى قائده أمراً مكتوباً : (اجعلوا أوريا فى الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ، ويموت) !! .

(ولما مضت المناحة ، أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امـرأة ، وولدت له) ، وكانت أم سليمان الحكيم – (صموئيل الثانى / ١١) .

هذا داود الذى قال عنه الرب : (أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً ، إن تعوّج أدبته بقضيب الناس ، وبضربات بنى آدم ، ولكن رحمتى لا تنزع منه ، كما نزعتـها من شـــاول الذى أزلته من أمامك ، ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامــك ، كرســيك يكون ثابــتاً إلى الأبد) .. (صموئيـل الثانى / ٧) .

لكن ابن الرب هذا جعله كُتّاب (الكتاب المقدس) عابثاً متجبرا لامبالياً ، يستحم فى بحر من الدماء . حين انتصر على (ربة بنى عمون) استولى على كل غنائمها ، (وأخرج الشعب الذى فيها ، ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفئوس حديد ، وأمرّهم فى أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون) – (صموئيل الثانى / ١٢) .

ومع هذا ، فكل أخطاء داود (وغيره) مغفورة فى (التلمود) ، لأن الله أعطى الإنســان طبيعة سيئة ، ومن ثم لا خطيئة ، مادام (الله مصدر الشر ، كما أنه مصدر الخير) !!

** وهذا سليمان ، الذى آتاه الله العلم ، وتكلـم بثلاثة آلاف مَثَل ، وفضّله الله على كثير من عباده المؤمنين ، فقال : ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ [1] .

سليمان بن داود ، صار بأمر كُتّاب (الكتاب المقدس) مخالفاً لأمر ربه ، فتزوج من غير بنى إسرائيل ، (من الأمم الذين قال الرب عنهم لبنى إسرائيل ، لاتدخلون إليهم ، وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يميّلون قلوبكم وراء آلهتهـم) .

صار زير نساء ، تزوج مصرية وموابيات وعمـونيات وأدوميات

(١) النمل / ١٩ وانظر الآيات (١٥ – ١٩) .

وصيدونيات وحيثيات ، (وكانت له سبعمائة من النساء السيدات ، وثلاثمائة من السرارى ، وأمالت نساؤه قلبه) [1] .

صار مشركاً بربه آلهة نسائه ، (ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه ، كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب .. بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين ، على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون ، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن) ــ (الملوك الأول / ١١) .

هذا سليمان الذى بدأ حياته فى الحكم بالجريمة ، فقتل (يوآب بن صروية) قائد جيوش أبيه ، وقتل أخاه (أدونيا) ، وطرد (أبيا ثار) الكاهن فى عهد أبيه ، ليخلص له الملك .. وفى هذا يقول لأمه ، وقد سألته فى أزواج أخيه : (لماذا أنت تسألين أبيشج الشمونية لأدونيا؟ فاسألى له الملك ، لأنه أخى الأكبر منى ، لـه ولأبيا ثـار الكاهـن ، وليـوآب بن صروية) ــ (الملوك الأول / ٢) .

وحين تزوج المصرية ، كان المهر أن (صعد فرعون ملك مصر ، وأخذ جازر وأحرقها بالنار ، وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة ، وأعطاها مهرا لابنته امرأة سليمان) ــ (الملوك الأول / ٩) .

ومضى (الحكيم) فى حكم ظالم ، يستبد بقومه ، ويستعبدهم ، ويفرض الضرائب الباهظة ، فلما حكم رحبعام من بعده قالوا له : (خفف الآن من عبودية أبيك القاسية ، ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا ، فنخدمك) ــ (الملوك الأول /١٢) .

---

(١) يقول ول ديورانت : (لعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث الذى حمل رمسيس الثانى على هذا العمل بعينه هو الباعث لسليمان ، وهو رغبته فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له) ــ قصة الحضارة ــ جـ ٢ ص ٣٢٣ وما أظن رسالة سليمان وفتوحات رمسيس تسمح بمئات الزيجات !!

ومن العجيب أن كاتب هذا (سفر الملوك الأول) نسى أنه قال : (كانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان ، لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه) .. فلما زارته ملكة سبأ قالت : (لم أصدق الأخبار ، حتى جئت وأبصرت عيناى ، فهو ذا النصف لم أخبر به ، زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذى سمعته) (الملوك الأول/ ١٠) .

كيف إذن يكون هذا التناقض ، إلا إذا كان من وراء تجريم (أولى العزم من الرسل) هدف ما ، وبخاصة أن هذا التجريم يلحّ على الزنا الذى حدّه الرجم ، بل تجاوز بنو يعقوب فقتلوا (بنى حمور) جميعا ، (ونهبوا المدينة ، لأنهم نجسوا أختهم ، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه ، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم ، وكل أطفالهم ونساءهم ، وكل ما فى البيوت)، مع أن الرجل (شكيم) أراد أن يصلح خطأه ، ويتزوج (دينة) ، ويبعث فى هذا أباه حمور يقول : (ابنى قد تعلقت نفسه بابنتكم ، أعطوه إياها زوجة ، وصاهرونا ، تعطونا بناتكم، وتأخذون لكم بناتنا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم ، اسكنوا واتجروا فيها ، وتملكوا بها) ــ (تكوين / ٣٤) .

كيف تفقد حساسية العرض هذه قيمتها فى حياة الأنبياء والرسل؟!

أليس لأمر ما قصد الكاتب هذا العبث ؟!

أليس لأمـر ما تواطأ كتّاب (الكتاب المقدس) على تدنيس المقدسات ؟!

أيكون هذا محاولة للتخفيف من أعباء الجرائم اليهودية على نفسية الأجيال الجديدة ؟! .

لعله التهوين من أمر الجريمة ، تبريراً لارتكابها فى حق الشعوب الأخرى، على أساس أنهم أقل درجات من (شعب الله المختار) .

بل لعله صورة التمزق النفسى الذى أصاب اليهود بعد الشتات ،

والذى عبرت عنه كل أسفار العهد القديم ، ابتداء من (أشعياء) ، التى لاتكاد تتناول إلا تنبؤات عن غضب الله ووعيده ، وعن رجاء الخلاص مما حاق بهم ، وكأنهم يقولون للرب ، لقد غفرت لأنبيائك جرائمهم ، فلماذا لا تغفر لنا ، وما نحن إلا أتباع هؤلاء الأنبياء ، ولم تعطنا قدراتهم ؟!(١) .

لكن إذا كان هذا شأن اليهود ، فلم أبقى المسيحيون على هذه الترهات ، وجعل منهم من يدافع عنها ؟!(٢) .

* * *

إن الأمر لم يقف عند الأنبياء (المصطفين الأخيار) الذين اكتملت فيهم كل صفات التبليغ عن الله ، والقيادة إلى سواء السبيل ، ﴿ **وكلا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين** ﴾ (٣) .

إننا نجد هذا (الكتاب المقدس) يعرض لله فى صورة لا تتناسب مع : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن، العزيز ، الجبار ، المتكبر** ﴾ ، ... ﴿ **الخالق ، البارئ ، المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم** ﴾ (٤) .

يعرض لله فى صورة مُجسَّمة ، أقرب إلى الآلهة التى كانت تُعبَد فى الشعوب التى نزلوا بها ، أو عبروا .

ومما يؤسف له أن حياتهم الطويلة فى أرض مصر تطبعهم بطابع

(١) ، (٢) يعلل القس مشرقى هذه الجرائم بأنها تؤكد (أن الكمال لله وحده ، وأن الجميع زاغوا وفسدوا ، لأننا نعرف أنهم جميعاً بشر متناسلون من آدم الساقط ، وورثوا منه بالتناسل الطبيعة الفاسدة التى تميل إلى الشر) ـ مصادر الكتاب المقدس ـ ص ١١٩ .

(٣) الأنبياء / ٧٢ ـ ٧٣ .

(٤) الحشر / ٢٣ ـ ٢٤ .

الوحدانية التى شاعت فى عهد (إخناتون) ـ الأسرة الثامنة عشرة ١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ق م ، بل كانت تنتشر بينهم الأفكار البدائية ، كالخوف من العفاريت ، والاعتقاد فى الأرواح الشريرة ، التى تهدد حياة البشر ، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، واتخذوا فى بيوتهم أصناما صغيرة يعبدونها ، ويتنقلون بها من مكان إلى آخر ، على طريقة بدو الجزيرة العربية (١).. حتى جاء موسى رسولاً من الله الواحد الأحد بشريعة نقية طاهرة ، لكن روح التمرد المغروسة فى نفوسهم أبت عليهم الاستجابة والإذعان ، وبخاصة أن الحكم المصرى ـ بعد أخناتون ـ أحاط باليهود ، وفرض عليهم التزامات ، حتى اضطروا إلى الخروج .. لهذا ما لبثوا فى خروجهم أن صنعوا « عجلا جسدا له خوار » وعبدوه فى غيبة موسى ، كأنما يعلنون إرادتهم المستقلة بهذا الضلال ، أو كانوا يعلنون حنينهم إلى أرض مصر ، بل إن القرآن الكريم يسجل على هؤلاء القوم ـ فى حضور موسى ـ ميلهم إلى الخروج على الإله الواحد المنزّه عن المثلية والتجسيم ، يقول الله تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى ، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبّر ماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها ، وهو فضلكم على العالمين** ﴾(٢) .

ولا نكاد نجد تعبيراً فى كتب العهد القديم عن هذه الوحدانية المصرية إلا فى آخر هذه الكتب ، بعد رحلة الخروج والتيه وحروب يشوع وحكم القضاة والملوك والأسر الأول والثانى ، والاختلاط بشعوب وحضارات ، وتدوين التوراة والتلمود .. إذ يقول سفر ملاخى : (ولكم أيها المتقون اسمى ـ تشرق شمس البر والشفا فى أجنحتها) ـ (ملاخى ٤)

(١) د . أحمد شلبى ـ اليهودية ـ النهضة المصرية ـ سنة ١٩٧٤ ـ ص ١٧٧ عن Reinach .

(٢) الأعراف / ١٣٨ ـ ١٤٠ .

إشارة صريحة إلى إله الشمس المصرى الذى كان يُرمَز له بقرص مجنح .

أما الله (الذى لاتدركه الأبصار) ، الإله (اللطيف) ، الذى هو (نور السموات والأرض) ، فلا تعرض له كتبهم إلا فى صورة كائن محدود بحدود مرئية .

(فى وسط هذا الشعب الذى أنت يارب قد ظهرت لهم عيناً لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وبعمود نار ليلاً) ـ (عدد/ ١٤) .

ولم يقتصر الأمر على أن يظهر الرب (مغلّفاً) بالسحاب أو النار ، بل هو يستعلن جسداً ، لامرْية فيه ، ويلتقى بيعقوب فى وادى يبوق ، ويصارعه ، (حتى طلع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه ، وقال : أطلقنى ، لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال : لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس ، وقدرت ... فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل ، قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسى) ـ (تكوين / ٣٢) .

ويقول هذا (الرب) المصارع العاجز الجاهل لموسى : (إن كان منكم نبى للرب فبالرؤيا أستعلن له ، فى الحلم أكلمه ، وأما عبدى موسى ، فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى ، فماً لفم ، وعياناً أتكلم معه ، لا بالألغاز) ـ (عدد / ١٢) . (ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه ، كما يكلم الرجل صاحبه) ـ (خروج / ٣٣) .

ثم (أعطى موسى ـ بعد فراغه من الكلام معه فى جبل سينا ـ لَوْحَىْ الشهادة ، لوحى حجر ، مكتوبين بإصبع الله) (خروج / ٣١) (ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو ، وسبعون من شيوخ إسرائيل ، وزاروا إله إسرائيل ، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات

السماء فى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل ، فرأوا الله ، وأكلوا وشربوا) ـ (خروج / ٢٤) .

وينسى الله أنه لا يستعلن إلا فى (الحلم) للأنبياء ، كما ينسى وعده موسى ألا يكلم سواه (فماً لفم) ، ولعله تجاوز عن وعده تسامحاً ومجاملة لضيوفه ، أو براً بأنبيائه ، إذ (جاء الرب ، ودعا كالمرات الأُوَل : صموئيل ، صموئيل ، فقال صموئيل : تكلم ، لأن عبدك سامع) ـ (صموئيل الأول/ ٣) .

ولم يكن داود بأقل شأناً من صموئيل ، فقد جاء على لسان سليمان : (مبارك الرب إله إسرائيل ، الذى تكلم بفمه إلى داود أبى ، وأكمل بيده قائلاً : ...) ـ (الملوك الأول / ٨) .

وإذا كان سليمان قد قرّر هذا لأبيه ، وقد (ورث سليمانُ داود) . فلا يبعد أن يتراءى الرب لسليمان ، وأن تتكرر الرؤية ، (كما تراءى له فى جبعون ، وقال له الرب : قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرعت به أمامى) ـ (الملوك الأول / ٩) .

وأيوب الرجل الصابر ، (نعم العبد ، إنه أواب) ، يستولد الله ملائكته ، (كان ذات يوم أنه جاء بنوا الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم) ـ (أيوب / ١) .

ومع أن مثل هذا التعبير يحتمل التأويل ، فإن الجو العام لمثل هذه العبارات الجافية المجدّفة على الله يرجحّ ظاهر اللفظ ، فضلاً على أن هذا التعبير يجرى على لسان أيوب كثيراً ، ويزيد كاتب المزامير فيُسكن الله فى الأرض ، ليكون مع شعبه المختار : (رنّموا للرب الساكن فى صهيون) ـ (مزمور / ٩) ـ (إن الله فى الجيل البار) ـ (مزمور / ١٤) ـ (القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل) ـ (مزمور / ٢٢) .

ويتجاوز ، فيصف الله بالكذب ، (مرة حلفت بقدسى أنى لا أكذب

لداود) ـ (مزمور / ٨٩) ـ فكونه يحلف ألا يكذب لداود يعنى أنه يكذب لغيره ، أو أن داود قد أخذ عليه كذباً ، فحلف ألا يكذب بعد ذلك !! .

ومن العجيب أن يحدث هذا فى (ديانة سماوية) ، فى الوقت الذى كانت الديانة فى مصر قد وصفت الله على لسان أخناتون بكل ما هو من صفاته جلَّ شأنه :

خلقتَ الأرض ، وصورتَ الناس ، وأوجدتَ الحيوان ، كبيره وصغيره وأحْدثتَ كل ما يحلّق بجناحيه فى السماء .

ما أكثر مخلوقاتك ، وما أكثر ما خفى علينا منها

إنك الإله الذى دانَ الجميع بحبك

أنت الواحد الأحد ، لا شريك لك[1] .

كما أن (اليوبا نيشادة) الهندية وصفت (براهما) بأنـه :

الله الواحد الكلى فى كل الأشياء .

كلى الشمول ، النفس الباطنة لكل الأشياء .

الشاهد ، الحكيم ، الأوحد ، العارى من الصفات .

المحرك الوحيد للساكنات الكثيرة .

الذى يجعل الحبة الواحدة متكاثرة .

الحكماء من يرونه قائما فى ذات المرء .

أولئك لا غيرهم ذوو سعادة أبدية[2] .

(١) محمد العزب موسى ـ موسى مصرياً ـ المكتبة الثقافية ـ عدد ٢٢٧ ـ ص ٣٨ / ٣٩ .

(٢) د . محمد جابر الحسينى ـ فى العقائد والأديان ـ الهيئة المصرية العامة ـ سنة ١٩٧٠ ـ ص ١٢٠ .

بل إن الهندوسية تصف الإله بأنـه :

(هو الأعلى من كل شىء ، وهو الأمْن ، إله الآلهة ، ذو القوة العليا ، الذى أمام قدرته الغالبة ترتعد الأرض والسموات العالية ، إنما هو « أندرا » إله الكون ، الذى قهر الشياطين فى السحاب ، وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار ، واقتحم كهوف الكآبة والأكدار ، وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام ، وأضاء النار القديمة من البرق فى الغمام ، ذلك هو « أندرا » البطل الجسور ، الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله ، والجبال المرتعدة تخرّ له ، وتسجد لجلاله ، هو الذى يرسل صواعق السماء على أعدائه ، فلتُهْدَ له السكائب المقدسة)[1] .

** ولا يكتفى كتّاب (العهد القديم) بتجسيد ذات الله ، بل يصفونه بصفات إنسانية دنيئة ، فالرب يعد ويخلف ، ولا يملك نفسه عند الغضب ، فيأخذ الابن بجريرة الأب ، مع أنه القائل : (لا تقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل) ـ (تثنية / ٢٤) .

لما حمى غضبه على (أخاب) ملك السامرة ، لأن زوجته (إيزابيل) احتالت فتخلصت من (نابوت البزرعيلى) ، ليرث أخاب حقل نابوت ، قال الرب : (هأنذا أطلب عليك شرا ، وأبيد نسلك ، وأقطع لأخاب كل بائل بحائط ، ومحجوز ، ومطلق فى إسرائيل .. ولما سمع أخاب هذا الكلام شق ثيابه ، وجعل مسحاً على جسده ، وصام ، واضطجع بالمسح ، ومشى بسكوت) ، فتحول انتقام الرب (من أجل أنه اتضع أمامى ، لا أجلب الشرّ فى أيامه ، بل فى أيام ابنه ، أجلب الشر على بيته) !! .

(١) د . محمد جابر الحسينى ـ فى العقائد والأديان ـ الهيئة المصرية العامة ـ سنة ١٩٧٠ ـ ص ١٢٠ .

وأما إيزابيل المتآمرة على (نابوت) ، فقد تجاهلها الرب تماماً ـ (الملوك الأول / ٢١) .

ونفاجأ بأن الرب احتال على (أخاب) ، وهو يستعد لحرب (راموت جلعاد) ، وألقى فى أفواه جميع أنبيائه الأربعمائة روح كذب (تغويه وتقتدر) ، وتزيّن له النصر ، فيدخل المعركة ، ويقتل ، (فلحست الكلاب دمه) ، كما سبق أن توعّده !! ـ (تثنية / ٧) .

* * *

وتتمثل قسوة الرب فى مواقف كثيرة من كتب العهد القديم ، لكنها قسوة الإنسان الفظّ ، الغليظ القلب ، الذى لا قيم له ولا مبادئ .

أمر موسى ـ فى طريقه إلى أرض كنعان ـ (متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك .. لاتقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم) ـ (تثنية / ٧) ـ أى أن الرب لا يكتفى بأن يسلب الإسرائيليون أرض الآخرين وأموالهم ، بل يحتال للقضاء عليهم ، فلا عهد ولا مصاهرة ، (أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما) ـ (تثنية / ٢٠) .

ولأن الرب هو الذى يطرد الشعوب ، ويعطى المدن ، فكل (الفضة والذهب وآنية النحاس ، والحديد ، تكون قدساً للرب ، وتدخل فى خزانة الرب) ـ (يشوع / ٦) .

وطبعاً سينتفع بها الكهنة أبناء (لاوى) ، خلفاء الرب فى إسرائيل.

فإذا اشتهى (عخَان بن رازح) شيئاً من غنيمة (أريحا) يؤخذ مع ما سرق وبنوه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته ، وكل ماله ، ويحرق ، ويرمى بالحجارة ، حتى يدفن الجميع تحتها ـ (يشوع / ٨) ـ وبهذا لا

يطمع أى جندى فيما أفاء الله على الرؤساء القادة !! .

والذى يثير السخط ضد هذا (الرب الإسرائيلى) أنه لا يكتفى بما ينزل بالشعوب الأخرى من هزيمة وقتل واغتنام ، فقد أمر ـ بعد أن سقطت (عاى) ، وقتل يشوع اثنى عشر ألفا ، هم جميع أهلها ، ونهب أموالها ـ أمر بإحراقها ، (وجعلها تلا أبديا خرابا إلى هذا اليوم)، أما ملك (عاى) فقد (علّقه على الخشبة إلى وقت المساء) ـ (يشوع / ٨) .

بهذا أمكن الرب لإسرائيل من جميع ملوك الأموريين الساكنين فى الجبل ، (فأزعجهم الرب أمام إسرائيل ، وضربهم ضربة عظيمة فى جبعون ... وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل ـ وهم فى منحدر بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقة ، فماتوا) ـ (يشوع / ١٠) .

* * *

ومن العجيب أن شهوة القتل والتدمير لا تصيب هذا (الرب الإسرائيلى) فى حالة الحرب فقط ، بل إذا كان السلام انتابته هذه الشهوة ، ففتش عن مبرر للقتل ، فتذكر قوماً مرّ بهم شعب إسرائيل إلى كنعان ، وكانوا قد أنزلوا إصابة جسيمة بالعابرين الغزاة ، وهذا واجبهم ، فقال رب الجنود : (إنى افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل ، حين وقف له فى الطريق ، عند صعوده من مصر ، فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرّموا كل ماله ، ولا تعفُ عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، وطفلا ورضيعا ، بقرا وغنما ، جملاً وحماراً) ـ (صموئيل الأول / ١٥) .

واستقر أمر إسرائيل فى عهد داود ، و (نفشت غنم القوم) ، ونمموا بما فتح الرب عليهم من أرض زراعية خصبة ، لكن مالبث أن (حمى غضب الرب على إسرائيل ، فأهاج عليهم داود ، قائلاً : امض واحص إسرائيل ويهوذا) ، فلما تم الإحصاء (ضرب داود قلبه ، وقال للرب ، قد

أخطأت جدا فيما فعلت ، والآن يارب ، أزل إثم عبدك ، لأنى انحمقت جدا) .

ولما كان فعْل داود بأمر الرب ، فكأن الحمق للرب .. ومع هذا يريد أن ينتقم من إسرائيل ، وليس سبب يدعو للغضب أو الانتقام ، (فجعل الرب وبأً فى إسرائيل ، من الصباح إلى الميعاد ، فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب عن الشر ، وقال للملاك المهلك : الشعب كفى) .

واحتجّ داود على هذا الانتقام الذى لا مبرر له ، فقال : (هأنا قد أخطأت ، وأنا أذنبت ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا ؟ فلتكن يدك علىّ وعلى بيت أبى) .

ونتبين أن الرب فى حاجة إلى بناء مذبح ، (وبنى داود مذبحاً للرب ، وأصعد محرقات ، وذبائح سلامة ، واستجاب الرب من أجل الأرض ، فكفّتْ الضربة عن إسرائيل) ـ (صموئيل الثانى / ٢٤) .

* * *

هذا هو الرب القائل : (إنما كل إنسان يقتل بخطيته) ، فإذا حمى غضبه انبهمت معالم الشريعة أمامه ، ولم يعد يميز بين شعبه المختار وشعوب الأرجاس الأخرى .

ونتساءل : كيف ، ولماذا جرت هذه الأساطير فى أقلام كتّاب الأسفار المقدسة ؟ هل هو لون من التمرد الذى انطبع به شعب (صلب الرقبة) ؟ هل هو لون من التبرير لكثرة ما اقترفوا من آثام وجرائم ؟ أم أن اليهود قد اشتقوها من ذكرياتهم عن موسى الذى اشتهر بحدة الطبع وشدة الغضب ، والذى كان يبدو أمامهم كإله [1]؟ مع أنهم لم يشهدوا المذابح وسيل الدماء

(١) موسى مصريا ـ ص ٥٣ / ٥٦ .

إلا على يد يشوع ومن بعده !! أم أنها صفات الإله (يهوه) إله البراكين الذى كان يسكن جبل حوريب ، إذ كان شيطاناً مهلكاً محبا للدماء ، يجوب الليل ، ويتجنب ضوء النهار ، وما كان يظهر لأنبياء إسرائيل إلا مصاحباً للنار ، كما فعل مع موسى ، إذ (ظهر ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة ، وإذا العليقة تتوقد بالنار ، والعليقة لم تكن تحترق) ؟ أم أن هذا الإله الذى لا يتصل باللغة العبرية اتصالاً ما [1] ، قد دخل إلى وجدانهم من خلال التيه أربعين عاماً ، فى صحراء عارية ، تسفعها الريح ، ويسوطها البرق ، وتلهبها حمارّة القيظ ، وتسلخها صبارّة الزمهرير ، وتتناوح على أكتافها الأشباح والأرواح ، وتتراقص فى أوديتها الغيلان والسعالى ، ومن وراء ذلك كله مطاردة فرعون الرهيبة التى زرعت فى نفوسهم الرعب والهلع واليأس ؟ .

مع هذا كله يمكن القول إن هذه الصورة مستمدة من الأساطير الأوجارينية (الكنعانية) التى تتحدث عن الإلَهة (عنات) العنيفة التى:

من تحتهـا طارت رءوس كالعقبـان .
ومن فوقهـا طارت أيد كالجـراد .
تنزل حتى الركـب فى دماء الأبطـال .
عالياً حتى العنق فى دمـاء الكتائب [2] .

وقد يرجّح التأثير الكنعانى كون الإله (تموز) إله الخصب ، ويسمى (آذون) ، تحوّل فى (التوراة) إلى (أدوناى) ، بدلاً من (يهوه)[3] .. بل إن يهوه اكتسب صفة الإخصاب ، وأصبح مانح الغيث ، ومنبت

(١) التوراة الهيروغليفية ـ ص ٦ .
(٢) أساطير العالم القديم ـ ترجمة د . أحمد يوسف ـ الهيئة المصرية العامة ـ سنة ١٩٦٤ ـ ص ١٧٣ .
(٣) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ـ طه باقر ـ بغداد ـ سنة ١٩٥٦ ـ حـ ٢ ص ٢٦٣ .

الحب ، وواهب الحياة ، لذلك كان الإسرائيلى إذا ما أراد أن يقسم به أمسك بعضو التناسل ، كما أن متعة الجماع صارت شيئا مقدساً(١) .

* * *

وقد نرى هذا الرب الذى يغلبه العنف كثيراً ، تغلبه عاطفة الأبوة الحانية ، فيغضب ولا ينتقم ، وينتقم فلا يقسو ، ويقسو فلا يتجاوز حد التأديب ، تماماً مثل الإلهة عنات :

تغسل يدها فى دماء الجنود .
وأصابعها فى دماء الكتائب .
غير أن بركات السلام تعقب ذلك .
فتستنبط ماء وتغسل :
ندى من السماء .
ودهنا من الأرض .
ومطرا من راكب السحب(٢) .

خالف سليمان أمر الله ، فتزوج من غير بنى إسرائيل ، وأشرك بربّه آلهة نسائه ، (وعمل الشر فى عينى الرب) ، فغضب الرب وهدد : (إنى أمزق المملكة عنك تمزيقا ، وأعطيها لعبدك) ، ثم تراجع : (إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك ، من أجل داود أبيك ، بل من يد ابنك أمزقها) ، ثم تراجع : (على أنى لا أمزق منك المملكة كلها ، بل أعطى سبطا واحدا لأبيك ، لأجل داود عبدى ، ولأجل أورشليم التى اخترتها) !! (الملوك الأول / ١١) .

(١) د. فؤاد حسنين على ـ اليهودية واليهودية المسيحية ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ سنة ١٩٦٨ ـ ص ١٤ .
(٢) أساطير العالم القديم ـ ص ١٧٤ / ١٧٥ .

بل إن الرب أحياناً يحمى غضبه على إسرائيل ، حين (يفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ، ليعبدوها ويسجدوا لها) ، فإذا هو لا يتجاوز القول : (فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته ، لكن أمتحن بهم إسرائيل) ـ (القضاة ٢/) .

فقط يتخلى عنهم ، ويتركهم يواجهون مصائرهم بقدراتهم ، مع أنهم ـ أنبياء وغير أنبياء ـ أشركوا به و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(١) .

* * *

ولم يوصف رب إسرائيل فى (الكتاب المقدس) بهذه الأوصاف الانفعالية الشرسة ، أو المتهاونة فقط ، بل هو على غير علم بما يجرى فى عالمه ، ومن ثم هو فى حاجة إلى تخرّ وحسن إدراك ، حتى يهتدى إلى الصواب .

أرسل (رجل الله) من يهوذا ، متوعداً (يربعام) الملك ، لأنه أشرك به (عجلى ذهب) ، وبنى المرتفعات ، وصيّر كهنة من أطراف الشعب ، لم يكونوا من بنى لاوى .

والتقى (رجل الله) بشيخ ساكن فى (بيت أيل) ، فقال الشيخ : (سر معى إلى البيت ، وكل خبزاً) ، فرفض (رجل الله) ، لأنه (قيل لى بكلام الرب لا تأكل خبزا ، ولا تشرب هناك ماء ، ولا ترجع سائراً فى الطريق الذى ذهبت فيه) .

فكذب عليه الشيخ ، وقال له : (أنا أيضاً نبى مثلك ، وقد كلمنى ملاك بكلام الرب ، قائلا : ارجع به معك إلى بيتك ، فيأكل خبزاً ، ويشرب ماء) .

فرجع رجل الله ، (وأكل خبزاً فى بيته ، وشرب ماء) .

(١) النساء / ٤٨ .

فحكم عليه الرب بأن (لا تدخل جثتك قبر آبائك) .

وكان أن (صادفه أسد فى الطريق ، وقتله ، وكانت جثته مطروحة فى الطريق ، والحمار واقف بجانبها ، والأسد واقف بجانب الجثة) ـ (الملوك الأول / ١٣) .

ما ذنب هذا الرجل ؟ كيف يدرى أن (الشيخ) ليس نبى الله ؟ ما حاجة الشيخ إلى أن يكذب ويدّعى ؟ ما الضرر فى أن يأكل ويشرب ، وليس للأكل والشرب علاقة بالمهمة التى وُكّلت إليه ؟ إذا كان الرب قد حذّر ، أما يحتمل أن يكون التحذير مرتبطاً بالملك وجنده وحاشيته ، حتى لا يكون تأثير على رجل الله ؟ ثم مادور رجل الله إلا أن يهدد ويتوعد ، حتى يرعوى (رحبعام) ، ويرجع إلى عبادة الله ؟ وأخيراً ما الحكمة فى وقفة الأسد والحمار بجوار الجثة التى احتضنت سرها ؟ .

أسئلة كثيرة محيرة ، لأنها لا جواب لها ، وهى لا تحتاج إلى جواب.

فليس هناك إله تذهب به الظنون مذاهب كهذا الإله الذى صنعه هؤلاء الكُتّاب لهدف لا ندريه ، وإن كان مثل هذا الإله يساعد كثيراً على خلق جماعة متميزة بكل ما ارتكبت وترتكب فى حق الإنسانية كلها .

وإذا كنا فى (أشعياء) نجد ملامح الوحدانية الحقة :

(أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض ، أنت صنعت السموات والأرض) ـ أشعياء / ١٧) .

(هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الأرض ونتائجها ، معطى الشعب عليها نسمة ، والساكنين فيها روحاً) ـ (أشعياء / ٤٢) .

(أنا الأول وأنا الآخر ، ولا إله غيرى) ـ (أشعياء / ٤٤) .

(مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام) ـ (أشعياء / ٤٥) .

(يدى أسست الأرض ، ويمينى نشرت السموات ، أنا أدعوهن

فيقفن جميعاً) ـ (أشعياء / ٤٨) .

فهذا دليل على أن ما جاء به موسى لم يكن بمنجاة من أيدى العابثين ، وأن كهنة البيت كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض ، أو كما يقول القرآن الكريم : ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ (١)

وبهذا كان الضلال ، وكان الإضلال !!

يقول توينبى المؤرخ البريطانى الشهير :

كان (يهوه) إله قبيلة بدوية ، وتطورت هذه الديانة حتى بلغت مرحلة متقدمة على يد الأنبياء فى القرن الثامن ق . م فلما نقل « نبوخذ نصر » جماعة من أشراف اليهود وكهانهم وصناعهم وعمالهم الماهرين ، لايزيد عددهم على ٤٦٠٠ ، وأسكنهم فى بابل ـ بلغت الديانة اليهودية نضجها ، وصلت عقيدة التوحيد نبيها ، وخاصة فى آثار عزرا وأشعيا الثانى ، مما استمده الأسرى اليهود من المجتمع البابلى من عقائد وأفكار ، وتأثر اليهود بالديانة الزرادشتية ، واستمدوا منها بعضاً من عقائدهم فى الجن والشياطين ، وربما أخذوا منهم بعضاً من عقائدهم المهمة ، كخلود الروح ويوم القيامة ونفاذ أمر الله بواسطة الروح المقدس ، وكان من الممكن أن يتطور الدين اليهودى ، بعد بلوغه مرحلة التوحيد المطلق فى بابل ، فيصبح ديناً عالميا ، ذا رسالة إنسانية ، لولا إصرار اليهود على إبقائه ديناً قومياً ، خاصاً بالشعب اليهودى ، محدود الآفاق ، واستخدموه أداة للإبقاء على الوعى القومى حياً فى نفوس الأقليات اليهودية المشتتة فى أقطار الأرض ، مما أدى إلى عزل هذه الأقليات عن الشعوب التى تعيش فى وسطها (٢) .

* * *

(١) البقرة / ٧٩ .

(٢) مجلة آفاق عربية ـ آذار ١٩٧٦ ـ نقلاً عن توينبى : دراسة التاريخ مج ١٢ .

٢ - شعب صلب الرقبة !!

(اعرف نفسك) .. تجربة حكيم داخل ذاته ، هدت إلى أن معرفة الذات سبيل إلى معرفة العالم من حولنا ، لأن هذا العالم ليس إلا صورة ما يعتمل فى نفوسنا ، ومن ثم نحن نتعرف إلى الكون من حولنا لنعرف ما يدور فى أعماقنا ، لكن المعرفة شيء ، والاعتراف بما نعرف شيء آخر ، لأنى – حين أعترف – لا أقدم إلا الصورة التى أرتضيها ، حتى مباذلى التى أعرّيها ، أهـدف – من وراء تعريتها ، أو من وراء الطريقة التى اخترت لتعريتها – إلى الحصول على شيء من نفوس الآخرين ، أو من خارج نفوسهم .

ومع هذا ، فالاعتراف سيّد الأدلة ، ما دام فى صورة إدانة ، لأن حرص المرء على نفسه أقوى – دون شك – من حرص الآخرين ، فإذا كشف عن عيوب وأخطاء فإننا لا نملك إلا تصديقه ، مالم تقم شواهد وبينات أو مؤثرات ترجح تكذيبه . فإذا كانت الشخصية معنوية ، أومكونة من مجموع وحـدات جزئية ، فإن صدور هـذا الاعتـراف من محـاور مختـلفة ، أو كون الاعتراف يتعدد ويتنوع ولا يختلف – إنما هو برهان صادق – إلى حد كبير – على حقيقة ما .

ونحن بصدد ما تحدثت به أقلام العهد القديم نجد صورة واضحة عن هذا (الشعب المختار) الذى أجمعت (الأسفار) على وصفه بأنـه (شعب صلب الرقبة) ، مما يوحى بالغرور والعناد والعتوّ والقسوة والأنانية والغدر وعدم القدرة على التطور .

ولأن هذا الشعب ينتسب إلى يعقوب عليه السلام ، فلننظر صورة يعقوب هذا الذى وصفـه القـرآن الكـريم بأنـه هـبة مـن الله صالحـة : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ﴾ [١] .

---

(١) الأنبياء / ٧٢ .

يحكى سفر (تكوين) أن (رفقة بنت بتوئيل الأرامى) تزاحَم فى بطنها ولدان لإسحق ، أحدهما عيسو ، والثانى يعقوب العنيد المكار الذى زاحم أخاه جنيناً ، وأراد أن يخرج قبله إلى الحيـاة ، وحـين خـرج وجدت (يده قابضة على عقب عيسو) ، يحاول استرجاعى ، فيسبقه ، لتكون لـه (البكورية) ، وحين فشلت المحاولة الأولى لم ييئس ، (وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد ، إنسان البرية ، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام ، فأحب إسحق عيسو ، لأن فى فمه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ، وطبخ يعقوب طبيخاً ، فأتى عيسو من الحقل ، وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب: أطعمنى من هذا الأحمـر ، لأنى قـد عييت ... فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك ، فقال عيسو هأنا ماض إلى الموت ، فلماذا لى بكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لى اليوم ، فحلف له ، فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس ، فأكل وشرب ، وقام ومضى ، فاحتقر عيسو البكورية) – (تكوين / ٢٥) .

من هذا الخبر نرى يعقوب عالة على أخيه الصياد المكافح ، يبيع كسب أخيه له ، وليس له فى هذا الكسب إلا الطهو والإعداد ، ويتقاضى الثمن (البكورية) ، فيرث أباه من دون أخيه .

يعقوب الجشع يتصرف بعقلية المرابى تاجر السوق السوداء ، انتظر عودة أخيه من البرية منهكاً شديد الإعياء وساومه ، ولأن أخاه أكبر من أن يزن هذه المطامع المادية بغير ميزانها فقد احتقرها .. تماماً شأن اليهود اليوم فى كل بلاد الدنيا ، يعملون فى الربا والتجارة والمصارف ، ويشربون دماء العمال والفلاحين .

بل إنها سياسة الدول الكبرى اليوم مع الدول (المتخلفة) ، تستولى الكبرى على معادن الصغرى ، وتصنعّها ، وتبيع مصنوعاتها بغرض سيطرتها على مقاليد حياة هذه (المتخلفة) .

وكما يحدث اليوم من توثيق السيطرة فى معاهدات وتحالفات ، لم

يكتف يعقوب بصك شراء بكورية أخيه ، فلجأ إلى تسجيله رسمياً على يد أبيه ، أو عن طريق الاعتراف الدولي ، أو (الاستفتاء الشعبي) .

فلما أن شاخ إسحق ، وكلّت عيناه عن الرؤية ، طلب إلى عيسو أن يخرج إلى البرية ، ويصيب صيداً ، (واصنع لي أطعمة كما أحب ، وائتني بها لآكل ، حتى تباركك نفسي قبل أن أموت) .

تآمرت (رفقة) مع ابنها المُدلَّل (يعقوب) ، حتى يحصل على البركة من دون أخيه ، وأعدت (جديين جيّدين من المعزى) ، وألبست يعقـوب ثياب عيسـو الفاخـرة ، لأن عيسـو أشعـر ، ويعقوب أملس ، فقد (ألبست يده وملاسة عنقه جلود جدى المعزى) .

(وتقدّم يعقوب إلى إسحق أبيه ، فجَسّه ، وقال : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو) ومع هذا ، دعا له أن يعطيه (الله من ندى السماء ، ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمرة ، ليستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين ، ومباركوك مباركين) ـ (تكوين / ٢٧) .

الافتعال واضح فى هذا الخبر ، لأن رفقة أم عيسو ويعقوب ، ولأن حبها يعقوب لا يستدعى بغضها عيسو ، وبخاصة أن عيسو ساع فى خير الأسرة ، غير طامع فى شيء، ولأن البركة قصَد بها إسحق بكره عيسو ، لا يعقوب ، فمردها إلى عيسو دون شك ، وبخاصة أن مانح البركة هو الله المُطّلِع على عملية الاحتيال والنصب بين نبيّين من أنبيائه .. مع هذا كله ، فإن الهدف من الخبر ليس إلا بيان اختصاص يعقوب بالفضل ، حتى ولوكان على حساب الحق والعدل .

وتتكرر المأساة الخُلُقية البشعة !! .

(حدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال للابان : اصرفنى لأذهب إلى مكانى وأرضى ، وأعطنى نسائى وأولادى الذين خدمتك بهم فأذهب) .

. أراد (لابان) أن يكافئ ابن أخته (يعقوب) على السنوات التى قضاها معه فى رعى الماشية ، بأن يقطعه بعضها ، واضعاً فى اعتباره أنه زوج ابنتيه ، فقال يعقوب : (اعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء ؛ وكل شاة سوداء بين الخرفان، وبلقاء ورقطاء بين المعزى ، فيكون مثل ذلك أجرتى).

اقترح يعقوب ، ووافق (لابان) ، فساق يعقوب هذه الشياه والمعزى ، بلقاء ورقطاء ، بين يدى بنيه ، وعاد يرعى غنم (لابان) ، حتى تتكاثر ، كما اتفقا .

لكن يعقوب أخذ لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطاً بيضاء ، كاشطاً عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران ، وفى مساقى الماء ، حيث كانت الغنم تجيء لتشرب ، تجاه الغنم ، لتتوحم عند مجيئها لتشرب ، فتوحّمت الغنم عند القضبان ، وولدت الغنم مخططات ورقطاً وبلقاً ، وأفرز يعقوب الخرفان ، وجعل وجوه الغنم إلى المخطط ، وكل أسود بين غنم لابان ، وجعل له قطعاناً وحده ، ولم يجعلها مع غنم لابان ، وحدث كلما توحّمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران ، لتتوحم بين القضبان ، وحين استضعفت الغنم لم يضعها ، فصارت الضعيفة للابان ، والقوية ليعقوب ، فاتسع الرجل كثيراً جداً) ـ (تكوين / ٣٠) . وهكذا فعل يعقوب النبيّ ، أبو أنبياء بنى إسرائيل ، بل أبو الشعب الإسرائيلى كله .

فعل هذا مع خاله الذى زوّجه بنتيه ، وسرّاه بجاريتين ، وزاد على الاتفاق بينهما ، فأعطاه من الغنم والمعزى ما طلب .

أترانا مع عهد وميثاق يهودى ، تناسلته الأجيال عن يعقوب ؟! أم أن هؤلاء الأئمة المجرمين ـ فى سبيل الوصول إلى أهدافهم الدنيئة ـ لايستحيون أن يعلّقوا فى رقاب آبائهم وأنبيائهم تعاليم عدوانية جائرة ، حتى تكون لأجيالهم نبراساً ، فتتحقق لهم السيادة فى الأرض؟!

وفى سبيل هذه السيادة تداس كل القيم والتشريعات ، أو يعاد صوغها على حسب ما يريدون ؛ فإذا اعترض سبيل الخطايا (ابن معاند ومارد ، لا يسمع لقول أبيه ، ولا لقول أمه ، ويؤدبانه فلا يسمع لهما ، يمسكه أبوه وأمه ، ويأتيان به إلى شيوخ مدينته ، وإلى باب مكانه ، ويقولان لشيوخ مدينته : ابننا هذا معاند ومارد ، لا يسمع لقولنا ، وهو مسرف وسكير ، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت) ـ (تثنية / ٢١) .

ومع أن السُّكر ليس جريمة أخلاقية فى حد ذاته ، إذ إن الأنبياء يشربون ويسكرون ، لأن (السكائب) فرائض للكهنة مع القرابين ـ فإن السكر جريمة اقتصادية ، هو إسراف ، والإسراف استنزاف لقوة المال ، عصب الشعب المختار ، ومن ثم كان العقاب رجماً بأيدى الشيوخ ، لأنهم أعرف الناس بهذه القوة ، وأقدر الناس على استثمارها ، وتسليطها على رقاب الآخرين وامتلاك طاقاتهم .

* * *

وفى سبيل حماية التقاليد اليهودية يزداد العنف شراسة ووحشية ، حين تواتيهم الفرصة للانتقام من غيرهم .

أتى يعقوب إلى مدينة (شكيم) التى هى أرض كنعان ، وابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته من يد بنى حمور الحوى رئيس الأرض، فخرجت (دينة) ابنة يعقوب لتنظر نبات الأرض ، فرآها شكيم بن حمور الحوى رئيس الأرض، وأخذها ، واضطجع معها ، وأذلّها ، وتعلقت نفسه بها، فكلّم أباه أن يأخذها له زوجة .

ذهب حمور إلى يعقوب ، وقال : (ابنى قد تعلقت نفسه بابنتكم، أعطوه إياها زوجة ، وصاهرونا ، تعطونا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدّامكم ، اسكنوا واتجروا فيها ، وتملكوا بهـا، ثم قال شكيم لأبيها ولإخوتها : دعونى أجد نعمة فى أعينكم ،

فالذى تقولون لى أعطى ، كثّروا علىّ جدّا مهراً وعطية ، فأعطى كما تقولون لى ، وأعطونى الفتاة زوجة) .

(أجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر) ، واشترطوا أن يتم ما أرادوا إذا اختتنوا ، (إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر ، نعطيكم بناتنا، ونأخذ لنا بناتكم ، ونسكن معكم ، ونصير شعباً واحداً ، وإن لم تسمعوا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى) .

حَسُنَ القول فى عينى آل حمور ، (واختتن كل ذكر) .

(وفى اليوم الثالث إذ كانوا متوجّعين ، أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة ، أخذ كل واحد سيفه ، وأتيا على المدينة بأمن ، وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحدّ السيف ، وأخذا دينة من بيت شكيم ، وخرجا ، ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ، ونهبوا المدينة ، لأنهم نجّسوا أختهم ، غنمهم وبقرهم وحميرهم ، وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه ، وسبوا ونهبوا وغنموا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت) ـ (تكوين / ٣٤) .

إذا عرفنا أن موسى وهارون والكهنة جميعاً من سلالة (لاوى) لم يغب عنا أن ما يفعله (لاوى) يصبح من شريعة موسى ، وتقوم الكهنة على تنفيذه ، دون تساهل ، ولو أن الابن جادل فى هذا أو عاند رجموه حتى الموت .

الهدف هو إبادة الشعوب الأخرى ، والاستيلاء على كل ما يملكون ، فإذا لم تمكن المواجهة فالحيلة .

فتحت مصر أبوابها للعشرات منهم ، فامتلكوا وأثروا ، وصاروا مئات الألوف [1] ، ربطوا وجودهم بوجود أعداء مصر من (الهكسوس) ، فلما

(١) كانوا سبعين نسمة (تكوين ٤٦) ، فصاروا ستمائة ألف وخمسمائة وخمسين ، وأما اللاويون ـ سبط آبائهم ـ فلم يعدّوا بينهم (عدداً) ، وإن كان فى نسبة هذا التكاثر مغالاة شديدة ، فإنها دليل على ما نعموا به من خيرات مصر ، طعاماً وأمناً .

انتصر المصريون على الغزاة ، وظهر تآمر اليهود مع أعداء مصر ، قرّر (رمسيس) طردهم ، دون أن يرفع في وجوههم السيف .

وكان أن صدرت أوامر الرب (أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها ، أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) ـ (خروج/٣) .

صدرت هذه الأوامر مصحوبة بتهديد المصريين . (أضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها) ـ (خروج / ٣) .

ما الداعي إذن إلى السرقة والاحتيال مادام بوسع (الرب) أن يصنع العجائب ؟!

ألا تكون هذه مجرد تعاليم يهودية عصابية تأخذ شكلاً دينياً ؟!

ماذا يفعل رئيس العصابة غير أن يسلب وينهب ويتوعد ، متّخذاً كل وسائل الخداع والغدر ، متعللاً بتعلة ما ؟!

(حين تقترب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها للصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمها ، بل عملت معها حرباً ، فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة .. لنفسك .. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما) ـ (تثنية / ٢٠) .

كيف تأمن الشعوب لقوم هذا دينهم ؟!

ماجرية روسيا القيصرية وألمانيا النازية إذا أعملتا فيهم القتل والتعذيب والتهجير ، بعدما ذاقتا من تآمرهم وغدرهم ، وتخريب الذمم والضمائر ،

وترويج الفسق والفجور ، ومحاربة الاقتصاد الوطني بالربا والتهريب والمصادرة ؟! .

(متى أراحك إلهك من جميع أعدائك حولك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيباً لكي تمتلكها ، تمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، لا تنس) ـ (تثنية / ٢٥) .

ليس لهذا (الرب) كلمة واحدة في العدل والرحمة والمغفرة والمودة والحسنى والتضامن والتعاون والسلام إنما هو القتل والنهب والختل والرجم والحرق والصلب والتمثيل .

حين سقطت (أريحا) في يد يشوع ، كانت أوامر الرب : (حرّموا كل ما في المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف) ، ولم يكتف بهذا ، بل (وأحرقوا المدينة بالنار مع كل مابها) ـ (يشوع / ٦) وكذلك فعل مع (عاي) ، وزاد فعلق ملكها على الخشبة حتى المساء ـ (يشوع / ٨) .

وبعدما انهزم ملوك الأموريين الخمسة ، وقتل من رجالهم الكثير ، وقعوا في أسر يشوع ، فقال (لقواده) رجال الحرب الذين ساروا معه : تقدموا ، وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك ، وضربهم يشوع بعد ذلك ، وقتلهم ، وعلّقهم على خمس خشب ، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء) ـ (يشوع / ١٠) .

بهذه القسوة المريرة والهمجية الدنيئة فعل بكل المدن التي سقطت في يده ، لبنة ولخيش وجازر وعجلون ودبير وحاصور .. قتل كل حي ، واغتنم كل خير ، وحرق كل ما بقي .

ماذا بقي لهذا (الرب) من صفات الربوبية؟! أو ماذا لهذا الإنسان الذي كتب هذه الجرائم من صفات الإنسانية ؟!

* * *

كيف تكوّن جماعة هذه صفاتهم دولة ؟!

هل يأخذ تجمّع ما ، فى مكان ما ، صفة الاستقرار والاستمرار ، دون قيم كريمة ، ومبادئ رحيمة ؟! دون تواد وتراحم وتعاون ؟! وأن يشد بعضهم بعضاً ليكونوا بنياناً مرصوصاً ، يحس بعضهم بآلام غيرهم ، فيصيروا تكويناً حيّاً ، أو جديراً بالحياة ؟!

ماذا ، وهؤلاء : ﴿ بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾[1] ؟! .

اعتدى رجال من بنى بنيامين – أحد أسباط إسرائيل – على (سرية) رجل من (لاوى) ، ولم يسلم (البنياميون) المعتدين للإسرائيليين ، فقامت حرب – بعد مشورة الرب – قتل فيها عشرات الآلاف من الجانبين ، وأخيراً انهزم البنياميون ، فرجع (رجال بنى إسرائيل إلى بنى بنيامين ، وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها ، حتى البهائم ، حتى كل ما وجد ، وأيضاً جميع المدن التى وجدت أحرقوها بالنار) – (قضاة/ ٢٠) .

قد نقول إن جريمة الزنا تستثير النفوس ، ولا تقف بالغضب عند حد، لكن أى جريمة زنا ؟! .

إنه ليقال إن الزنا كان منتشراً بين اليهود ، وإن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة .

لقد زنا الملك الإسرائيلى داود بامرأة أوريا الحثى – على علم من رجاله – واستولدها ، وقتل زوجها ، ولم يحدث شىء ، سوى أن (الأمر الذى فعله داود قبح فى عينى الرب) – (صموئيل الثانى / ١١) .

إذن الأمر لا يخرج على أن تكون هناك قدرة على الفعل أو لا ، وليس أن تحدث جريمة لها عقابها .

---
(١) الحشر / ١٤ .

حين فتحت (أريحا) كانت الأوامر أن تكون الغنائم كلها فى خزانة الرب ، ولكن عخان بن كرمى بن زبدى بن زارح ، من سبط يهوذا ، رأى (فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيساً ومائتى شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً) ، فأخذها لنفسه ، ثم اعترف بجرمه ، فأحرقهم بنو إسرائيل بالنار ، ورموهم بالحجارة ، حتى أقاموا رجمة عظيمة إلى هذا اليوم (يشوع / ٧) .

* * *

لهذا كله لا يعوزنا أن نجد من كتّاب العهد القديم من يستبد به هول مايرى ، فيجرى على لسان الرب ، واصفاً أحوالهم لاعناً إياهم ، دون أن يقع فى أيدى جلاديهم :

(آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم ، وخطاياكم سترت وجهه عنكم ، حتى لايسمع ، لأن أيديكم قد تنجست بالدم ، وأصابعكم بالإثم ، شفاهكم تكلمت بالكذب ، قد حبلوا بتعب ، وولدوا إثماً ، فقسوا بيض أفعى ، ونسجوا خيوط عنكبوت ، الآكل من بيضهم يموت ، والتى تكسر تخرج أفعى ، خيوطهم لا تصير ثوباً ، ولا يكتسون بأعمالهم ، أعمالهم أعمال إثم ، وفعل الظلم فى أيديهم ، أرجلهم إلى الشر تجرى ، وتسرع إلى سفك الدم الذكى ، أفكارهم أفكار إثم ، فى طرقهم اغتصاب وسحق ، طريق السلام لم يعرفوا ، وليس فى مساكنهم عدل ، جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة ، كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً) – (أشعياء / ٥٩) .

وإذ يرتفع مثل هذا الصوت الجرىء ، فإنه يشجع الآخرين ، متخذين من لسان الرب وسيلة للتعبير عن السخط المرير الذى انغرزت جذوره فى حلوقهم أماداً طويلة :

(إذ زنت العاصية إسرائيل ، فطلقتها ، وأعطيتها كتاب طلاقها ، لم تخف الخائنة يهوذا أختها ، بل مضت وزنت هى أيضاً ، وكان من هوان

زناها أنها نجست الأرض ، وزنت مع الحجر ، ومع الشجر) ــ (أرميا ٣/) .

حتى أورشليم ، دار الهيكل ، خنقت جرائمهـا صوتَ الرب :

(زنيت ، على اسمك ، وسكبت زناك على كل عابر ، فكان له ، وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشّاة ، وزنيت عليها ، أمر لم يأت ولم يكن ، وأخذت أمتعة زينتك من ذهبى ، ومن فضتى التى أعطيتك ، وصنعت لنفسك صور ذكور ، وزنيت بها) ــ (حزقيال ١٦/) .

من أجل هذا كله ، فإن الرب اتخذ موقفاً صارماً ، فضرب ضرباته القاصمة : (ثلثك يموت بالوبأ ، وبالجوع ، يفنون فى وسطك ، وثلث يسقط بالسيف من حولك ، وثلث أذريه فى كل ريح ، وأستل سيفاً وراءهم) ــ حزقيال / ٥) .

ونقع دولتا يهوذا وإسرائيل بين يدى « نُبوخذ نصر » ، ويخرب الهيكل ، ويطول الأسر بأغلبية الشعب ، ويمضى الشتات بالبقية الباقية .

* * *

ونتيجة حمّامات الدم المتلاحقة ، عن طريق الحروب الاستعمارية والاستيطانية التى شنوها ، وحملات الانتقام التى شنت عليهم ، ووقوعهم ــ وهم البدو الرحّل ــ بين بلاد مستقرة ذات حضارة ، لم يوفر لهم الأمان ، ولا الوجود السوىّ فهم فى قلق دائم ، ورهبة مستمرة ، وكرّ وفرّ ، وهم أسرى هذا الوجود الحضارى ، لا يستطيعون أن يأخذوا بأسبابه ، ولا يستطيعون أن يلملموا أثوابهم بعيداً منه : هم شجرة سنط ، لا ظل ولا ثمر ، بين حدائق غانية . فإذا قضى عليهم ، أو كاد ، على يد نبوخذ نصر ، انطلقت الدعاوى هنا وهناك ، فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وكثر الأنبياء الأدعياء :

(لم أرسل الأنبياء ، بل هم جروا ، لم أتكلم معهم ، بل هم تنبئوا) (أرمياء / ٢٣) .

(قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبئوا باسمى الكذب ، قائلين : حلمت حلمت) ــ (أرمياء / ٢٣) .

حتى النساء أصابهن ما أصاب الرجـال :

(اجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن ، وتنبأ عليهن) ــ (حزقيال / ٢٣) .

* * *

ولعل هذا الهول والفزع والشتات المادى والمعنوى الذى أصاب القوم يفسر لنا قول الرب لموسى :

(كلم بنى إسرائيل ، وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ، ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من اسما نجوى) ــ (عدد / ١٥) .

إن هذا التمايز فى الثياب أبقى على هذه القطعان الضائعة سلالة متميزة عن بقية أجناس الأرض ، وكان عامل اعتزال (جيتو) ولّد فى نفوسهم كل المباذل والمطامع والشهوات الخسيسة والدنيئة !! .

* * *

٣ - صِهْيَوْنِيَّة !!

لأول مرة يفاجأ قارئ (العهد القديم) بلفظ (صهيون) مقحماً إقحاماً فى سفر الملوك الأول (٨) ، إذ يقول كاتبه :

(حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل ، وكل رءوس الأسباط ، رؤساء الآباء من بنى إسرائيل ، إلى الملك سليمان فى أورشليم ، لإصعاد تابوت عهد الرب ، من مدينة داود ، هى صهيون) .

ولما كان صهيون جبلاً يقع فى الجنوب من بيت المقدس ، وليس مدينة ، فإن إطلاق لفظ (صهيون) على أورشليم القدس ، له دلالة ذات مغزى ، فى عهد داود ، الذى رسم حدود مملكة (إسرائيل) ، بعدما نكّل بكل شعوب هذه المنطقة ، بل قام بعملية إبادة وإحلال جماعة من الرعاة البدو المتمردين مكان شعوب مستقرة ذات حضارة وأصالة . لا يمكن أن يكون إطلاق لفظ (صهيون) على هذه المدينة (رمية من غير رام)[1]، أو هو من قبيل المجاز المرسل ، فى لغة البلاغيين ، إنه تخطيط محدّد الأهداف ، مهّد له سفر (تكوين) ، بمحاولة خبيثة لإدانة الكنعانيين منذ بدء الخليقة ، والحكم عليهم بالعبودية لأبناء سام .

روى الكاتب (الصهيونى) قصة نوح الذى سكر وتعرّى ، فلما أفاق من سكره لعن كنعان بن حام ، قائلاً :

(ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) .

مع أنه برىء هو وأبوه من الإساءة إلى الجد نوح ، كما سبق القول،

---

(١) ينسب إلى الكاتب اليهودى النمسوى ناثان برنباوم (١٨٦٤ - ١٩٣٧) أنه اشتق كلمة صهيونية ليصف هذا الاتجاه الاستعمارى الجديد بين صفوف اليهود وغيرهم .

(وقال : مبارك الرب سام ، وليكن كنعان عبداً لهم ، ليفتح الله ليافث ، فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم) - (تكوين / ٩) .

فإذا كانت تخوم الكنعانيين (من صيدون ، حينما تجىء نحو جرار إلى غزة ، وحينما تجىء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع) - (تكوين / ١٠) - أدركنا لماذا كان الحكم على آل كنعان بالعبودية .

قد نتساءل : ما خطأ (حام) الصغير ، وقد رأى عورة أبيه فاستحيا ، وخرج بخبر أخويه الكبيرين ليحسنا التصرف ؟ وإذا كان (حام) - ومن سلالته المصريون الأعداء الألداء لليهود - قد أخطأ ، فما ذنب كنعان ابنه ؟ ولماذا اختص كنعان - من دون أبناء حام - بهذه اللعنة ؟ أليس فى هذا إشارة إلى العبث المقصود بالكتاب المقدس ، وتطويع عبارته لأهداف استعمارية ؟! .

* * *

بعد أن سكن إبراهيم (كنعان) ، وذهب لوط إلى سدُّوم ، (قال الرب لأبرام - بعد اعتزال لوط عنه - ارفع عينيك ، وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، لأن جميع الأرض التى أنت ترى ، لك أعطيها ، ولنسلك إلى الأبد .. قم امش فى الأرض طولها وعرضها ، لأنى لك أعطيها) - (تكوين / ١٣) .

خرج إبراهيم من (أور الكلدانيين) فارّاً بدينه ، ومر ببلاد كثيرة[1]، استضافته ، وأكرمت مثواه ، وصاهر منها ، وأخيراً انتهى به المطاف إلى هذه الأرض التى تزخر بشعوب كثيرة - قينيّة ، وقنزيّة ، وقدمونية ، وفرزية ، ورفائية ، وأمورية ، وجرقاشية ، ويبوسية ، وحيثية ، وكنعانية ، وفلسطينية - ليتخذ منها (مستعمرة) على حساب أهلها الذين لا ذنب لهم إلا أن نوحا - عليه السلام - سكر وتعرى !!

---

(١) يرى أكثر المؤرخين أن هذه الرحلة تمت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م ، ويرجح بعضهم حدوثها سنة ١٧٥٠ ق . م .

ونلاحظ أنه بعد أن تمكن إبراهيم من هذه الأرض ، وانتصر على (كدر لعومر والملوك الذين معه) ، وبعد أن طاردهم إلى (حوبة) التي عن شمال دمشق ـ (تكوين / ١٥) ـ ورد ذكر (الشعب) ـ (تكوين/١٤) ـ لأول مرة ، وسيلة تسجيل على يد (أبي الأنبياء) أن هذه الأرض خاصة (بالشعب) الذي صار في الفكر اليهودي علماً على بني إسرائيل .

بل جرى اعتراف رسمي على يد ألد أعداء هذا (الشعب) في مواجهة بني إسرائيل ، إذ قال فرعون ، (لماذا ياموسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله) ؟ ـ (خروج /٢) .

ثم (قطع الرب مع أبرام ميثاقاً ، قائلاً : لنسلك أُعطي هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات) ـ (تكوين / ١٥) إنه الحلم الذي دوّنه الصهاينة على جدار الكنيست (من النيل إلى الفرات) !!

وبحث (الرب) عن علاقة عضوية تميز (الشعب) عن غيره ، فأعياه البحث ، وأخيراً اهتدى إلى (الختان) الذي لا يعد وسيلة (تمييز) إلا بعد أن يمر بوسيلة (كشف) ، ابتلى بها (نوح) في حالة سكر ، فأصابت اللعنة (كنعان) !! .

وكان أن عاهد (الرب) إبراهيم : (يختتن منكم كل ذكر ... أما الذكر الأغلف الذي لا يختتن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها) ـ (تكوين / ١٧) .

وتستمر هذه العلاقة غير الظاهرية ، حتى يهتدي رب موسى إلى (أن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم ، في أجيالهم ، ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسما نجوني) ـ (عدد / ١٥) .

وبهذا يمكن التمييز بين (الشعب المختار) [1] وغيره من (أرجاس

(١) بزعم فرويد أن موسى كان ضابطاً مصرياً ، آمن بديانة أخناتون ، وكانت له انتصاراته في إثيوبيا ، فلما حدث الانقلاب ضد أخناتون لم يجد موسى لنفسه مكاناً في مصر ، فاختار الشعب الإسرائيلي ليكون معه دولة تعوّضه عما فقد في مصر ، ولهذا سمى الشعب الإسرائيلي الشعب المختار ـ ص ٧١ موسى مصرياً .

الأرض) إذا لبسوا ، وإذا تعروا .

ويراعى أن هيرودوت الملقب بأبي التاريخ أخبرنا أن عادة الختان قد مورست ، منذ زمن طويل في مصر ، وثبتت صحة هذا القول بفحص مومياءات المصريين القدماء ، بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر[1] .

ولعل هذه العادة انتشرت بين القبائل التي سكنت شرقي البحر المتوسط ، بعد ما خضعت هذه البلاد للحكم المصري زمناً طويلاً . هذا إلى أن إبراهيم عاش في مصر فترة من حياته ، وتنقل في مناطق كانت خاضعة للحكم المصري ، والإسرائيليون عاشوا في مصر ، وتناسلوا أجيالاً كثيرة ، وأخذوا عن المصريين كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، وزادتهم محنة (الخروج) حنيناً إلى مصر وإلى ما يربطهم بأيامهم فيها .

والأستاذ العقاد ينفي (أن الإسرائيليين اعتبروه ـ الختان ـ علامة لقبيلتهم ، تميز الإسرائيلي عن غيره . وإنما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم) ، مؤكداً أن الختان اختصار لعادة الضحّية البشرية ، نشأ مع تقدم الإنسان في الحضارة والمدنية ، ففي أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى ، قرباناً على محراب إلهه ، ثم تدرجوا من قتلهم إلى قطع أعضائهم ، وتدرجوا من قطع أعضائهم إلى قطع أغلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة ، وقد فعل ذلك الإسرائيليون مع أعدائهم في مواقف مختلفة ، كما فعله المكابيون مع أعدائهم[2] .

وفي هذا الخبر نظر لحاجته إلى عشرات الجرّاحين ، ولأن قطع أي عضو من الأعضاء لا يكلف المحارب حذراً أو حيطة أو مهارة (طبية) ،

(١) موسى مصرياً ـ ص ٤٢ .
(٢) أبو الأنبياء ـ كتاب اليوم ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٣ ـ ص ٢٠٩ / ٢١٠ .

كما هو الحال مع قطع الغزلة !! .

ومع هذا ، فكاتب الأسفار المقدسة حريص على أن يضيف إلى (الشعب) ما يميزه عن بقية الأمم ، برغم أنف المسلّمات التاريخية !! .

* * *

وتدوس العقلية الصهيونية كل الحقائق التاريخية من أجل توثيق نقل ملكية أرض كنعان إلى (الشعب) ، فسعت إلى أن يكون التوثيق على أيدى إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، حتى لا يأتى العرب فى يوم ويطعنوا فى نقل الملكية ، وقد تم هذا كله بمعرفة أجدادهم وبمصادقتهم !! .

حين غضبت سارة على هاجر ، لم يذهب إبراهيم إلى الصحراء العربية ـ كما حكى القرآن الكريم ـ بواد غير ذى زرع ، عند البيت الحرام ، بل ذهب بها وبابنها إسماعيل إلى صحراء فاران (سيناء) ، وكان أن (تاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ... ورفعت صوتها ، وبكت ، وفتح الله عينيها ، فأبصرت بئر ماء .. فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من مصر) ، لامن جرهم ، كما يذكر التاريخ العربى (تكوين / ٢١) .

ويستمر التحريف والتضليل ، ويصبح الذبيح إسحق لا إسماعيل ، لأن إسحق هو أبو يعقوب الذى ينسب إليه الإسرائيليون ، ويأخذ بهذا القول ـ للأسف ـ بعض علماء المسلمين !! .

يقول الرب : (خذ ابنك ، وحيدك الذى تحبه ، إسحق ، واذهب إلى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك) ـ (تكوين / ٢٢) .

وأرض المريا هذه فى فلسطين التى تغرّب فيها إبراهيم أياماً كثيرة

حينذاك ـ (تكوين/ ٢١) ـ وكأنما اليهود يريدون أن يجمعوا كل الأحداث المقدسة فى (أرض الميعاد) !! .

ويفوت الكاتب الصهيونى المجتهد أن إسحق فى ذلك الوقت لم يكن (الوحيد) ، فقد سبقه إسماعيل ابن هاجر ، الذى قد شب وأيفع قبل أن تبرأ (سارة) من عقمها ، بسبب غيرتها من هاجر ، كما يرى علماء النفس .

وفى محاولة ليكون الحق الأزلى ملكاً مدفوع الثمن لإسرائيل ، منذ إبراهيم ، فلا يكون اغتصاب ـ تموت سارة ، ويريد إبراهيم دفنها ، فيذهب إلى بنى (حث) ، قائلاً : (أنا غريب ، ونزيل عندكم ، أعطونى ملك قبر معكم ، لأدفن ميتى من أمامى ، فأجاب بنو حث إبراهيم ، قائلين له : سمعنا ياسيدى ، أنت رئيس من الله بيننا ، فى أفضل قبورنا ادفن ميتك ، ولا يمنع أحد منا قبره عنك ، حتى لا تدفن ميتك) .

لكن العقلية الصهيونية تأبى إلا امتلاك الأرض ، فتجعل إبراهيم يقول : (التمسوا لى من عفرون بن صوحر أن يعطينى مغارة المكفيلة ، التى له فى طرف حقله ، بثمن كامل) ، فيقول عفرون : (الحقل وهبتك إياه ، والمغارة التى فيه لك وهبتها) .

فإذا إبراهيم لا يقبل الهبة ، وهى تمليك شرعى ، ويُصر على دفع الثمن : (أعطيك ثمن الحقل ، خذ منى فأدفن ميتى) .

وكأن إبراهيم خشى أن يرجع الرجل فى هبته أو يطعن الأبناء والأحفاد فى صحة الهبة .

وأمام هذا الإصرار العنيد وافق عفرون ، فدفن (إبراهيم سارة فى مغارة حقل المكفيلة ، أمام ممرا ، التى هى حبرون ، فى أرض كنعان) ـ (تكوين / ٢٣) .

وللأمانة التاريخية كانت المقبرة (أمام ممرا التى هى حبرون فى أرض

كنعان) حتى يحيط (الشعب) هذه المقبرة برعايته وعنايته ، فيمتلك كل ما حولها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، على أساس نظرية الأمن الإسرائيلى اليوم !! . و (كان فى الأرض جوع) ، وأراد إسحق أن يهاجر ، فظهر له الرب ، (وقال : لا تنزل إلى مصر ، اسكن فى الأرض التى أقول لك ، تغرّب فى هذه الأرض فأكون معك ، وأباركك ، لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد ، وأفى بالقسم الذى أقسمت لإبراهيم أبيك ، وأكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض .. فأقام إسحق فى جرار) بفلسطين ـ (تكوين / ٢٦) .

وإذا كان الرب قد سمح بعد ذلك ليعقوب بالهجرة إلى مصر ، فى حالة جوع مماثلة ، فلم يكن ذلك إلا بعد أن توثقت الملكية على يد إسحق ، وحتى يكون مولد يعقوب فى أرض (الميعاد) لا فى الأرض التى انصبت على رءوسهم فيها لعنة الفراعنة .

* * *

بعد أن تحددت معالم الأرض ، وصدق على نقل ملكيتها أطراف النزاع من العرب والإسرائيليين ـ أخذ (الرب) يعمل على حماية (الشعب المختار) من أن يتسرب إليه الدنس ، دنس غيره من الشعوب .

نجد إبراهيم ـ وقد شاخ ـ يحدّث (عبده كبير بيته المستولى على ما كان له) ، قائلاً : (استحلفك بالرب إله السماء ، وإله الأرض ، ألا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق) ـ (تكوين/ ٢٤) وكأنه لا يدرى موقف أرضه وعشيرته من (الحنيفية السمحاء) !! وزيادة فى الحيطة والحرص على الطهارة والنقاء (أعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له ـ مع أنه ليس بكره ـ وأما بنو السرارى اللواتى كنّ لإبراهيم ـ منهن هاجر أم

إسماعيل جد العرب ـ فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد حى) ـ (تكوين / ٢٥) ـ حتى لا يختلط نسل إسحق بغيره من نسل إبراهيم ، أو إسماعيل خاصة ، فتفسد أخلاقهم ، أو تأسرهم عاطفة واحدة .

وكما فعل إبراهيم حفاظاً على نسل إسحق (دعا إسحق يعقوب ، وباركه وأوصاه ، وقال له : لا تأخذ زوجة من بنات كنعان ، ثم اذهب إلى فدان أرام ، إلى بيت بتوئيل أبى أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات لابان أخى أمك) ـ (تكوين / ٢٨) .

خرج يعقوب من بئر سبع ذاهباً نحو حاران ، واضطجع فى الطريق ، فأتاه الرب قائلاً : (الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ، ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض) ـ (تكوين /٢٨) .

الأرض التى تباركت بيعقوب صارت ملكاً خالصاً ، ولاحتمال أن تكون الريح قد حملت من بركته فى الجهات الأربع ، فحيث حلت البركة تنتقل الملكية ، ولاتساع رقعة الأملاك لابد من تكاثر المالكين كثرة التراب ، لا كالتراب يداس بالأقدام ، وجميع قبائل الأرض تلتمس البركة بحد السيف ، إذا كانوا من سكان الأرض الموعودة ، وبالعبودية إذا كانوا من خارجها !! .

* * *

ويضرب الجوع شعب الله المختار ، الذى كان يبلغ إذ ذاك سبعين نسمة ، فلا يجد القوت إلا فى مصر . ويستيقظ المصريون فى يوم وقد أصبحت الثروة والسلطة فى يد الغرباء ، فتشتد قبضة سقن رع وكامس وأحمس ، فيتم طرد الهكسوس ، ويعرف أصحاب الأرض الدور الاستعمارى الانتهازى الاحتكارى الذى لعبه الإسرائيليون ، فيضيق رمسيس الخناق

عليهم ، حتى يضطروا إلى الخروج ، ويعلم « منفتاح » أنهم سرقوا ذهب مصر وفضتها وحنطتها فيلاحقهم .

وأمكنهم الإفلات من قبضة فرعون [1] ، لكن بعد ما قذف فى قلوبهم الرعب والهلع ، حتى جعلهم يدورون فى فراغ أنفسهم بصحراء سيناء أربعين عاماً ، لايقدرون على مواجهة تجربة جديدة ، لا يعلمون مصيرهم بعدها : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو ﴾ [2] ، وكلّ قوم جبارين .

لهذا صدر أمر الرب : (لا يرد الشعب إلى مصر ، الرب قد قال لكم ، لا تعودوا ترجعون فى هذه الطريق) (تثنية / ١٧) .

ويحاول موسى ما وسعه أن يثبت فى قلوبهم الأمن والأمل ، فيقول على لسان الرب فى جبل حوريب :

(إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر ، وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم ، إنى علمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين ، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جديدة وواسعة ، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين) ـ (خروج / ٣) .

لكن أشباح المصريين ما تزال تتراءى لهم ، وتسد عليهم كل طريق ، فيقولون بلغة القرآن : ﴿ إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ﴾ [3] ..

(١) كان خروج بنى إسرائيل من مصر حوالى سنة ١٢١٣ ق . م وقد لحق بهم عدد من المصريين الساخطين ، من الأسرى والعبيد ، كما يقول جوستاف لوبون .. فإذا أضفنا أن فرعون ـ حين وجد تكاثر بنى إسرائيل إلى حد يهدّد الدولة ، فأمر بقتل ذكور الأطفال واستحياء الإناث ، وكان الضياع فى سيناء ، والشتات بين البابليين والآشوريين واليونان والرومان ـ أمكننا أن نقول مع (لمبروزو) إن اليهود المحدثين هم أدنى إلى الجنس الآرى منهم إلى الجنس السامى ، وأن بقاء العنصر اليهودى محض خرافة .. يقول ول ديورانت : الحق أن وجود جنس نقى فى الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التى تتلاطم فيه ـ أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل .

(٢) المنافقون / ٤ .

(٣) المائدة / ٢٢ .

﴿ لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ﴾ [1] .

ويصعد موسى الجبل ، ويلتقى بربه ، ويعود ببشارة أخرى :

(الآن ـ إن سمعتم صوتى ، وحفظتم عهدى ـ تكونون لى خاصة ، من بين جميع الشعوب ، فإن لى كل الأرض ، وأنتم تكونون لى مملكة كهنة ، وأمة مقدسة) ـ (خروج / ١٩) .

وما داموا قد أصبحوا بمثابة أبناء الله وخلفائه فى الأرض ، فلابد من أن يحقق الله لهم ما وعد من (أرض تفيض لبناً وعسلاً) .

لقد فجر الله على يدى موسى اثنتى عشرة عيناً [2] ، بعدما استبد بهم العطش ، وأغدق عليهم المنّ والسلوى ، حين استحرّ بهم الجوع ، أفلا يُصَدِّق هذه المرة أيضاً ، فينصرهم على هؤلاء الجبابرة ؟! .

لكن لعنة الفراعنة ما تزال تطاردهم حيث يكونون ، ويتسرب الشك فى وعد الله إلى نفوسهم ، وهم فى حاجة إلى أكثر من الوعد ، إلى أن يحارب الله معهم : (أرسل هيبتى أمامك ، وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين ، وأرسل أمامك الزنابير ، فتطرد الحويين والكنعانيين والحيثيين من أمامك ، لا أطردهم من أمامك فى سنة واحدة ، لئلا تصير الأرض خربة ، فتكثر عليك وحوش البرية ، قليلاً قليلاً أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك ، وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ، ومن البرية إلى النهر) ـ (خروج /٢٣) .

ولا جدوى .. حتى ينتهى جيل الهوان والذل ، وينبت جيل جديد ساخط ناقم ، قست عليه الصحراء ، وقتلت فيه نضرة الحياة ، فلم يعد

(١) المائدة / ٢٤ .

(٢) لماذا اثنتا عشرة عينا بعدد أسباطهم ؟ ألا يعنى هذا ما أصاب القوم من نزعة الانقسام والعصبية القبلية ، وشهوة الامتلاك ؟! .

يملك إلا إرادة التسلط والتملك والانتقام والغدر والحرق والتدمير .

وكان يشوع خير عون لهم على إشباع شهواتهم العدوانية العنيفة ، فقتلوا وصلبوا وأحرقوا ودمروا ونهبوا .

وحين شاخ يشوع ، (دعا جميع إسرائيل وشيوخه ورؤساءه وقضاته وعرفاءه ، وقال لهم : أنا قد شخت ، تقدمت بي الأيام ، وأنتم قد رأيتم كل ما عمل إلهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم ، لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم ، انظروا ، قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم ، من الأردن ، وجميع الشعوب التي قرضتها ، والبحر العظيم نحو غروب الشمس ، والرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ، ويطردهم من قدامكم ، فيمتلكون أرضهم كما كلمكم الرب إلهكم ، فتشددوا جداً ، لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى .. ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب ، أولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ، ودخلتم إليهم وهم إليكم ، فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم ، فيكونون لكم فخاً وشركاً ، وسوطاً على جوانبكم ، وشوكاً في أعينكم ، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب إلهكم) ـ (يشوع / ٢٣) .

في هذه الوصية ركز يشوع على عوامل أساسية في الحياة الصهيونية :

* إن المطامع الإسرائيلية تتسع باتساع قدرتهم ، فلا تنتهي الحدود الإقليمية للدولة عند ما حدده رب إبراهيم وإسحق ويعقوب ، بل شملت (البحر العظيم نحو غروب الشمس) ، وهو مالم تصل إليه دولة داود وسليمان ، أبعد ما وصلت إليه أطماع اليهود حين ذاك .. ولعل دولة إسرائيل اليوم لم ترسم حدوداً دولية ، ولم تلتزم بدستور أو قرارات دولية ، حتى يظل الباب مفتوحاً لتوسعاتها ، على حساب غفلة العرب وتناطحهم .

* إن الاتساع لا يقف عند حدود ملكية الأرض ، بل ملكية

الشعوب ، لتسخيرهم في الأرض ، إذ إن الشعب المختار لا يصلح للمهن الإنتاجية ، بل لاستغلال ثمراتها .

* إن على أبناء إسرائيل أن يعزلوا هذه الشعوب عن الحياة العامة : حتى لا يكونوا في يوم (فخاً وشركاً وسوطاً وشوكاً) ـ كما يحدث الآن مع الشعب العربي في فلسطين ـ هذا إلى الاحتفاظ بالنقاء وطهارة (الدم الإلهي) ، لأن الرب إلههم وحدهم ، فقد خصهم ـ دون سواهم ـ بما يربطهم به برباط أبدي ، ما داموا في طاعته .

ويأتي سليمان بن داود فيؤكد الرابطة بين الرب وإسرائيل ، قائلاً : (لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر ، من وسط كور الحديد ، لتكون عينك مفتوحتين نحو تضرع عيدك ، وتضرع شعبك إسرائيل ، فتصغي إليهم في كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثاً من جميع شعوب الأرض) ـ (الملوك الأول / ٨) .

ونسي سليمان أنه تزوج ـ كما جاء في الكتاب المقدس ـ بحوالي سبعمائة امرأة من شعوب أخرى ، وتسرى بثلاثمائة ، كما نسي أن بني إسرائيل لم يعتزلوا الشعوب الأخرى عزلة كاملة ، وبخاصة خلال الهزائم التي لحقت بهم ، وخلال التطواف الطويل ، والإقامة في أكناف شعوب كثيرة .. فإذا انتهى بهم الأمر إلى الشتات الكبير على أيدي البابليين والأشوريين وتمزق مجتمعهم كل ممزق ، بين بلاد ذات حضارة وقوة شكيمة ـ اختلط الزرع المقدس .

(لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضي ، حسب رجاساتهم ، من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموابيين والمصريين والأموريين ، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم) ـ (عزار / ٩) .

اعتراف صريح من الرؤساء لعزرا ، يصدر بعده أمر جديد ، في محاولة

لاستنقاذ بقية الدم المقدس :

(إن الأرض التى تدخلون لتمتلكوها هى أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضى ، برجاساتهم التى ملئوها بها ، من جهة إلى جهة ، بنجاساتهم ، والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ، ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد ، لكى تتشددوا وتأكلوا خير الأرض ، وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد) ـ (عزرا / ٩) .

عزرا ابن الله ، مجدد الشريعة ، لم يستفد من دروس الماضى ، والعمل على الإضرار بغيرهم ما وسعهم الجهد ، من أجل أن يظل (خير الأرض) ميراثاً أبدياً لهم !!

وفى سبيل تطهير وتنقية الزرع المقدس من الرجاسات التى اختلطت به ، دعا إلى بداية جديدة :

(انفصلوا عن شعوب الأرض ، وعن النساء الغريبة) .

لكن ، ماذا وقد (أكثرنا الذنب فى هذا الأمر ، ووجد بين الكهنة من اتخذ نساء غريبة .. ومنهنّ نساء قد وضعت بنين) ؟!

انتهى (السِّفر) عند هذا السؤال دون جواب ، لكنهم (أعطوا أيديهم لإخراج نسائهم ، مقربين كبش غنم لأجل إثمهم) ـ (عزرا / ١٠) .

* * *

من المؤلم حقاً ، والمثير للدهشة والإشفاق والجزع ، أن نرى هذا (الشعب) لم يستفد من المحن الكثيرة التى نزلت به ، وظل يتوارث العداوة لكل البشر ، والرغبة فى السيطرة عليهم ، والاستئثار بخيرات الأرض .. وإلى يومنا هذا نجد الشعارات العدوانية ، والمحاولات الآثمة الدنيئة ، من أجل الإضرار بالآخرين ، وتمزيقهم ، وإيقاع العداوة بينهم ، وإفسادهم فكرياً وأخلاقياً واقتصادياً ، ويلقون هذه الرذائل والجرائم جميعاً برداء القداسة ،

لأن (الله قد حلّ فى هذه الأمة ـ كما يدعى الحاخام الصهيونى «كوك» ـ وبذا أصبحت إسرائيل مشبعة بروح الله ، بروح الاسم المقدس) ، بهذه الروح ارتكبت جرائمها فى كفر قاسم وقبية والصابحة ودير ياسين ، وغيرها ، وغيرها ، حتى وصلت إلى خيام صبرا وشاتيلا ، ومدت شباكها فاستحوذت على مقدرات الضّفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة والجولان وجنوب لبنان .

ويدعى الحاخام كوك متبجحاً متوقحاً (أن كل ممتلكات إسرائيل القومية العزيزة على قلب اليهود ـ الأرض واللغة والتاريخ والعادات ـ إن هى إلا أوعية لروح الرب) ، بل (إن روح الرب وروح إسرائيل هما شىء واحد) .

وبناء على هذا يصبح التاريخ اليهودى بكل جرائمه مقدساً ، لأنه يعبر ـ فى رأى كوك وكاهان وبن جوريون ومائير ودايان وشامير وغيرهم من الإرهابيين العتاة ـ عن الإرادة الربانية ، وليس عن المحاولة والخطأ الإنسانيين ، فإله إسرائيل يتدخل فى التاريخ اليهودى من أوله لآخره ، والأمة اليهودية لم تأت للوجود من خلال تطور تاريخى ، بل من خلال استراتيجية سماوية ، وتخطيط إلهى مباشر !!

* * *

٤ ـ إله من ذهـب !!

(إله إسرائيل .. قدوس إسرائيل .. الساكن فى بيت إسرائيل .. شعب الله المختار .. تراث الرب .. أفرزتهم لك ميراثاً من جميع شعوب الأرض .. اختارك الرب لكى تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض !! .

تعبيرات كثيرة تزخر بها أسفار (العهد القديم) ، تؤكد قوة الارتباط بين (الرب) و (الشعب) ، مما يوحى بأن الشعب ـ على جميع مستوياته ـ يقف أمام الرب فى مستوى واحد .

لكن .. وكما تبين من أمثلة كثيرة سبقت ـ فيما عرضنا له ـ نجد أن الرب يحمى غضبه على فريق دون آخر ، مع أن الجريمة واحده ، كما أنه يجامل فيغدق ، ويجفو فيشتد ، دون سبب واضح للمجاملة أو الجفوة .

وقد يثير الدهشة أن الرب ـ فى كثير من أسفار التوراة وكتب الأنبياء ـ يُستغل استغلالاً قاسيا فى سيطرة طبقة على أخرى ، أو فى ابتزاز خيرات (الشعب) لصالح سبط من الأسباط (فريضة دهرية) ، ويتخذ (تابوت الرب) الذى هو نصب من الأنصاب ، بمثابة شَرك ، للإيقاع بالشعب المخدوع بين أنياب ومخالب لا تشبع ولا ترتوى .

فإذا كان هارون ـ فى عبارة القرآن الكريم ـ فصيحاً شجاعاً ، ونبياً شريكاً فى أداء الرسالة : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً ﴾ (١) . ﴿ اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى ﴾ (٢) .

---
(١) القصص / ٣٤ .
(٢) طـه / ٣١ ـ ٣٢ .

فإنه فى عبارة العهد القديم ـ يهودى ، قبل أن يكون ربانياً .

لما كان الذهب هو إله اليهود حقاً ، فإن هارون أول من صنع هذا الإله ، وإذا كان كل الكهنة من نسل هارون ، فإن إله هارون الذهبى سيظل إله إسرائيل ، (فريضة دهرية) .

(لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هارون ، وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى ، الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون :

انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم ، وائتونى بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم ، وأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم ، وصوّره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً ، فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ، ونادى هارون وقال : غداً عيد الرب ، فبكروا فى الغد ، وأصعدوا محرقات ، وقدموا ذبائح سلامة) ـ (خروج / ٣٢) .

طلب الشعب إلهاً مصنوعاً ، وكان على هارون أن ينكر هذا الطلب ، وأن يهديهم إلى الصواب ، لكنه سرعان ما استجاب كأنما كانوا يترجمون عما فى نفسه ، فلم يتلكأ ، ولم يماطل ، كما كان بوسعه أن يجعل هذا الإله من طين أو من خشب أو من نحاس ، أو من تمر ، كما فعل بنو حنيفة العرب ، حتى إذا جاعوا أكلوه ، لكنه أراده من ذهب ، وفى صورة الإله المصرى القديم ، قبل عهود الذلة والعبودية التى أصابتهم فى مصر ، وصنعه بيده ، لا بيد أخرى ، وبنى له مذبحاً ، وجعل له عيداً ، وأصعد المحرقات ، وقدم القرابين .

كانت بداية ومثالاً ، فقد ظلت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل .

سَجّل العهد القديم أن يربعام بن سليمان عمل عجلَي ذهب ليعبدهما أتباعه ، حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل ـ (الملوك الأول / ١٢) كأنما الذهاب إلى الهيكل كان للقاء الرب (الساكن فيه) .

وملك بعشا بن أخيا على جميع إسرائيل ، وسار فى طريق يربعام، وفى خطيئته التى جعل بها إسرائيل تخطئ ـ (الملوك الأول / ١٥) .

كذلك فعل عَمرى ، وجاء أخاب بن عمرى فتزوج ابنة ملك الصيدونيين ، وعبد البعل ، وسجد له ، وأقام مذبحاً ـ (الملوك الأول/ ١٦).

هذا ما حفلت به الأسفار المقدسة ، وهى لم تسجل كل الأحداث الإسرائيلية ، بل تركز على أخبار الأنبياء والملوك ، وهم الصفوة التى تلتزم بالآداب العامة للسلوك ، أو تتظاهر بالالتزام ، فكيف بالشعب الذى تغلب عليه الخرافات والأساطير ، وتغلب عليه القيم المطبوعة بطابع مادى ، أو الممثّلة فى شخوص وأوثان ؟!

ونعود إلى ربط الإله بالذهب بهارون بمصر (الفردوس المفقود) ، وما لهذا كله من دلالات ذات أثر كبير فى الحياة اليهودية .

فإذا قال الشعب : (هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر) ، أحسسنا بالحسرة واللوعة التى أصابت القوم حين اضطروا للخروج ، كما تبين العبارة النشاط الإسرائيلى داخل مصر ، وفى كل بلد يدخلونها .

ويعود موسى من لقاء الرب ، وحين أبصر هذا الانقلاب الذى أحدثه هارون (حمى غضب موسى ، وطرح اللوحين من يديه ، وكسرهما فى أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذى صنعوا ، وأحرقه بالنار ، وطحنه حتى صار ناعما ، وذرّاه على وجه الماء ، وسقى بنى إسرائيل) ـ (خروج/ ٣٢)

أراد موسى أن يحطم الوثنية ، فأجراها فى دمائهم ذرات ذهبية ، تصبح نسيج أبدانهم ، وميراث أجيالهم !! .

* * *

هذا الفهم الخاص للعلاقة بين الشعب والرب هو الذى جعل من (الرب) وسيلة لا غاية ، وأقدر الناس على اتخاذ الرب وسيلة هم الكهنة ، ويبدأ تاريخ الكهنة فى إسرائيل بهارون ، أول من صنع إلهاً من الذهب فى إسرائيل ، من أجل هذا قال الرب لموسى :

(قرّب إليك هارون أخاك ، وبنيه معه ، من بين بنى إسرائيل ، ليكهن لى) ـ (خروج / ٢٨) .

ومن ثم تكون أول (تقدمه) للرب من (ذهب وفضة ونحاس وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تخس ، وخشب سنط أوزيت للمنارة ، وأطياب لدهن المسحة ، وللبخور العطر ، وحجارة جزع ، وحجارة ترصيع للرداء والصُّدْرة) ـ (خروج / ٢٨) . حتى يصنعوا للرب (مقدساً ، لأسكن فى وسطهم)[1] .

هذا ، مع أن تعاليم الرب لموسى فى أول لقاء (لا تصنعوا معى آلهة

(١) لعل فكرة بناء بيت للرب مستقاة من معابد قدماء المصريين ، أو من الأساطير الأوجاريتية التى تتحدث عن قصور الآلهة فتقول : هناك مسكن آيل ، ومأوى بيته / ومسكن السيدة أشيرة صاحبة البحر / مسكن بدراى بنت الفضاء / ومأوى تلاى بنت المطر / ومسكن إرساى بنت يعبور / ومسكن العرائس الشهيرات .

وهناك من يقول إن إنشاء بيت بعل الأسطورى كان طليعة لبناء هيكل (يهوه) التاريخى الأول فى القدس .

تقول الأسطورة : اعلم يابعل / إنى آتيك بالبشائر / بيت لك سوف يبنى كإخوتك / بل وبلاط كأقربائك / ادع .. إلى بيتك / ... وسط قصرك / حتى فأتيك الجبال بالفضة الكبيرة / والتلال بأحسن الذهب / وتبنى بيتاً من الفضة والذهب / بيتاً من لآلئ اللازورد .

(أساطير العالم القديم ـ ص ١٧٩/ ١٨٢).

فضة ، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب ، مذبحاً من تراب تصنع لى ، وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك ، غنمك وبقرك فى كل الأماكن التى أصنع لاسمى ذكراً ، آتى إليك وأباركك ، وإن صنعت لى مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتة ، وإذا رفعت عليها أزميلك تدنسها ، ولا تصعد بدرج إلى مذبحى ، كى لا تنكشف عورتك عليه) ـ (خروج / ٢٠) .

صورة مبسطة ارتضاها الرب لعبادته ، وحذّر من المغالاة فى المظاهر ، حتى لا تصبح هذه المنشآت أوثاناً ، ومن ثم اشترط أن تكون من (تراب) ، فإذا استخدمت الحجارة لا تكون منحوتة ، بل بصورتها الأولى ، لم يستخدم معها أزميل ، وإلا تدنست ، لأنها ستكون سبيلاً إلى الإعجاب فالتقدير فالإجلال فالوثنية ، فتنكشف عورة المتقرب إلى (الرب) ، لأن هذه المظاهر الكاذبة ستخدع صاحبها عن العبادة الحقة ، ستلهيه عن أقدس واجباته ، ألاّ يشرك بالله شيئا .

ومع هذا الحرص الشديد من الرب ، يأبى كاتب سفر (خروج) إلا أن يرسم باسم الرب رسماً تفصيلياً للمقدس ، فى صورة (مشروع هندسى) معدّ للتنفيذ :

(بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ، ومثال جميع أنيته ، هكذا تصنعون) .

(فيصنعون تابوتاً من خشب السنط ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف ، وتغشّيه بذهب نقى ، من داخل ومن خارج تغشيه ، وتصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه ، وتسبك له أربع حلقات من ذهب ، وتجعلها على قوائمه الأربعة ، على جانب الواحد حلقتان ، وعلى جانبه الثانى حلقتان ، وتصنع عصويه من خشب السنط ، وتغشيهما بذهب ، وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ، ليحمل التابوت بهما ، تبقى العصوان فى حلقات التابوت ، لاتنزعان منها ،

وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك) .

نلاحظ من هذا الوصف المطول أن التابوت لا يزيد على صندوق ، يوضع فيه لوحا الشهادة (الشريعة) ، وقاية لهما ، وكان بوسع (الرب) أن يؤكد صيانة اللوحين ، وعلى شعبه المختار أن يختار الطريقة التى تتناسب مع ظروف حياتهم ، كأن تحفظ التعاليم فى الصدور وترتل ، أو تكتب نسخ منها ، حتى يكون عهد الطباعة فتطبع آلاف النسخ وملايينها على الورق أو على الكاسيت ، وتبرمج فى (الحاسوب) .. لكن الكهانة أرادت شيئاً أو صنماً يلتف حوله الشعب ، أو أرادت حقل تجارب لمعرفة إمكانيات الشعب ، وقدرته على الحركة داخل اقتصاديات الشعوب المستغلة ، لهذا لزم أن (تبقى العصوان فى حلقات التابوت ، لا تنزعان منها) ، رمزاً لحركة التابوت المستمرة ، ولحركة الشعب الدائبة .

(وتصنع غطاء من ذهب نقى ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كروبين من ذهب ، صنعة خراطة ، تصنعهما على طرفى الغطاء .. ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق ، مظللين بأجنحتهما على الغطاء ، ووجهاهما كل واحد إلى الآخر) .

من وصف التابوت والغطاء نجد أن الرب كان مهتماً بأن يكون الإكليل والحلقات والغطاء والكروبان من ذهب نقى ، لأن حديث الرب سيكون (من على الغطاء من بين الكروبين) ، فلا بد وأن يكون (العرش) ذهبياً ، حتى يتناسب ومكانته (العلية) [1] !!

(وتصنع مائدة من خشب السنط ، طولها ذراعان ، وعرضها ذراع ، وارتفاعها ذراع ونصف ، وتغشيها بذهب نقى ، وتصنع لها إكليلاً من

(١) يقول الدكتور فؤاد حسنين على : فى نصوص قديمة لم يرد ذكر لهذه الطبقة الذهبية أو الحلقات والقوائم ، بمعنى أن مصالح الكهنة اقتضت هذا الأمر ، حتى يظل الشعب مشدودا إليه، خاضعا لهم ، وفعلاً ظل الإسرائيليون زمناً طويلاً يقدسون التابوت ، ويستخدمونه مجلبة للخير .
(اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ٥٩ / ٦٠) .

ذهب حواليها ، وتصنع لها حاجباً على شبر حواليها ، وتصنع لحاجبها إكليلاً من ذهب حواليها ، وتصنع لها أربع حلقـات من ذهـب ، وتجعل الحلقات على الزوايا الأربع التى لقوائمها الأربع ، عند الحاجب تكون الحلقات بيوتاً لعصوين لحمل المائدة ، وتصنع صحافها وصحونها وكاساتها وجاماتها التى يسكب بها من ذهب نقى تصنعها ، وتجعل على المائدة خبز الوجوه أمامى دائماً) .

(وتصنع منارة من ذهب نقى ، عمل الخراطة تصنع المنارة ، قاعدتها وساقها ، تكون كاساتها وعجرها وأزهارها منها ، وستّ شعب خارجة من جانبيها ، من جانب الواحد ثلاث شعب منارة ، فى الشعبة الواحدة ثلاث كاسات لَوْزية بعجرة وزهر ، وفى المنارة أربع كاسات لوزية بعجرها وأزهارها ، وتحت كل شعبتين منها عجرة ، تكون عجرها وشعبها منها ، جميعها خراطة واحدة ، من ذهب نقى ، وتصنع سرجها سبعة ، فتصعد سراجها لتضئ إلى مقابلها ، وملاقطها ومنافضها من ذهب نقى، من وزنة ذهب نقى تصنع من جميع هذه الأوانى ، وانظر ما صنعها على مثالها (الذى أُظهر لك فى الجبل) .

يقف القارئ بعد هذا يتساءل : من أين هذا الذهب كله ، وقد جمعه هارون فى العجل الذهبى الذى أحرق فصار رماداً فشراباً ؟! وإذا كان الله قد صنع صورة لهذا كله فلماذا لم يقدمها هدية إلى شعبه المختار ، ويعفيه من هذا الابتزاز الكهنوتى الذهبى الرهيب ؟!

لكن يبدو أن سياسة الرب سياسة مستقبلية ، فهو يضع أسس المذاهب الاقتصادية التى ستنبثق فى صورة إلهام من العقلية اليهودية ، فتركيز الثروة فى يد (اللاويين) يعنى سيطرة الطبقة أو السياسة الرأسمالية ، وأن تتجمع الثروة فى يد المشرعين ، يعنى عدم الملكية الفردية ، أو السياسة الشيوعية ، وتتجلى السياسة الاشتراكية فيما سيعرضه ـ بعد بناء (المسكن) ـ من ألوان الضرائب الباهظة التى تثقل كاهل الشعب .

(أما المسكن فتصنعه من عشر شقق بوص مبروم وأسمانجونى وأرجوان وقرمز بكروبيم ، صنعة حائك حاذق تصنعها ، طول الشقة الواحدة ثمان وعشرون ذراعاً ، وعرض الشقة الواحدة أربع أذرع ، قياساً واحداً لجميع الشقق ، تكون خمس من الشقق بعضها موصول ببعض ، وخمس شقق بعضها موصول ببعض ، وتصنع عرى من أسمانجونى ، على حاشية الشقة الواحدة ، فى الطرف الموصّل الواحد .. خمسين عروة تصنع فى الشقة الواحدة ... تكون العرى بعضها مقابل لبعض وتصنع خمسين شظاظاً من ذهب ، وتصـل الشقتين بعضهما ببعض بالأشظـة ، فيصـير المسكن واحـداً) .

(وتصنع شققاً من شعر معزى خيمة على المسكن ، إحدى عشرة شقة تصنعها ، طول الشقة الواحدة ثلاثون ذراعاً ، وعرض الشقة الواحدة أربع أذرع .. وتصل خمساً من الشقق وحدها ، وستاً من الشقـق وحدهـا ، وتثنى الشقة السادسة فى وجه الخيمة ، وتصنع خمسين عروة على حاشية الشقة الواحدة الطرفيّة من الموصّل الواحد .. وتصنع خمسين شظاظاً من نحاس ، وتدخل الأشظة فى العرى ، وتصل الخيمة ، فتصير واحدة ، وأما المدلّى من الفاضل من شقق الخيمة .. فيدلّى على مؤخر المسكن ، والذراع من هنا والذراع من هناك ، من الفاضل فى طول شقق الخيمة ، تكونان مدلاتين على جانبى المسكن من هنا ومن هناك لتغطيته ، وتصنع غطاء للخيمة من جلود كباش محمرّة ، وغطاء من جلد تخس من فوق) .

(وتصنع الألواح للمسكن من خشب السنط قائمة ، طول اللوح عشر أذرع ، وعرض اللوح ذراع ونصف ، وللوح الواحد رجْلان مقرونة إحداهما بالأخرى ، هكذا تصنع لجميع ألواح المسكن ، وتصنع الألواح للمسكن عشـرين لوحاً إلى جهة الجنوب نحو التيمن ، وتصنع أربعين قاعدة من فضـة ، تحت العشرين لوحاً ، تحت اللوح الواحد قاعدتان لرجليه ، ولجانب المسكن الثانى إلى جهة الشمال عشرين لوحاً ، وأربعين قاعـدة لها من

فضة ، تحت اللوح الواحد قاعدتان ، ولمؤخر المسكن نحو الغرب تصنع ستة ألواح ، وتصنع لوحين لزاويتي المسكن في المؤخرة ويكونان مزدوجين من أسفل ، وعلى سواء يكونان مزدوجين إلى رأسه إلى الحلقة الواحدة ، هكذا يكون لكليهما ، يكونان للزاويتين ، فتكون ثمانية ألواح وقواعدها من فضة ، ست عشرة قاعدة ، تحت اللوح الواحد قاعدتان) .

(وتصنع عوارض من خشب السنط ، خمساً لألواح جانب المسكن الواحد .. وخمس عوارض لألواح جانب المسكن في المؤخر نحو الغرب ، والعارضة الوسطى في وسط الألواح تنفذ من الطرف إلى الطرف، وتغشي الألواح بذهب ، وتصنع حلقاتها من ذهب بيوتا للعوارض، وتغشي العوارض بذهب) .

(وتصنع حجاباً من أسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم ، صنعة حائك حاذق بصنعه بكروبيم ، وتجعله على أربع أعمدة من سنط مغشاة بذهب ، رززها من ذهب ، على أربعة قواعد من فضة ، وتجعل الحجاب تحت الأشظة ، وتدخل إلى هناك داخل الحجاب تابوت الشهادة ، فينفصل لكم الحجاب بين القدس وقدس الأقداس ، وتجعل الغطاء على تابوت الشهادة في قدس الأقداس ، وتضع المائدة خارج الحجاب ، والمنارة مقابل المائدة ، على جانب المسكن نحو التيمن ، وتجعل المائدة نحو الشمال) .

(وتصنع سجفاً لمدخل الخيمة من أسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم صنعة الطراز ، وتصنع للسجف خمسة أعمدة من سنط ، وتغشيها بذهب ، رززها من ذهب ، وتسبك لها خمس قواعد من نحاس) .

(وتصنع المذبح من خشب السنط ، طوله خمس أذرع ، وعرضه خمس أذرع ، وارتفاعه ثلاث أذرع ، وتصنع قرونه على زواياه الأربع ، منه تكون قرون ، وتغشيه بنحاس ، وتصنع قدوره لرفع رماده ورفوشه ، ومراكبه

ومناشله ومجامره ، وجميع آنيته تصنعها من نحاس ، وتصنع له شباكه ، صنعة الشبكة من نحاس ، وتصنع على الشبكة أربع حلقات من نحاس على أربعة أطرافه ، وتجعلها تحت حاجب المذبح من أسفل ، وتكون الشبكة إلى نصف المذبح ، وتصنع عصوين للمذبح ، عصوين من خشب السنط ، وتغشيهما بنحاس ، وتدخل عصواه في الحلقات) .

(وتصنع دار المسكن إلى جهة الجنوب ، نحو التيمن ، للدار أستار من بوص مبروم ، مائة ذراع طولاً إلى الجهة الواحدة ، وأعمدتها عشرون وقواعدها عشرون من نحاس ، رزز الأعمدة وقضبانها من فضة ، وفي عرض الدار إلى جهة الغرب ، وإلى جهة الشرق ، أستار خمسون ذراعاً ، أعمدتها عشرة ، وقواعدها عشر .. وخمس عشرة ذراعاً من الأستار للجانب الواحد ، أعمدتها ثلاثة ، وقواعدها ثلاث ، ولباب الدار سجف عشرون ذراعاً . من أسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم صنعة الطراز، أعمدتها أربعة ، وقواعدها أربع ، لكل أعمدة الدار حواليها قضبان من فضة ، رززها من فضة ، وقواعدها من نحاس ، طول الدار مائة ذراع ، وعرضها خمسون فخمسون ، وارتفاعها خمس أذرع من بوص مبروم ، وقواعدها من نحاس ، جميع أواني المسكن في خدمته ، وجميع أوتاده وجميع أوتاد الدار من نحاس) ـ (خروج / ٢٥و ٢٦و ٢٧ ـ مع اختصار محدود).

* * *

إلى هذا الحد بلغ اهتمام (الرب) بشعبه ، أو قل ببيته ، وسط هذا (الشعب) ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وحدد مقاييسها ومادتها وطريقة صنعها ، وارتباطها بغيرها .. ولم يكتف بهذا ، بل صنع بيتاً في الجبل ، لينقل موسى صورة على مثاله ، (كما ظهر لك في الجبل هكذا يصنعونه) .

وزاد (الرب) ، فدعا (بَصَلْئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه ، وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، لاختراع مخترعات ، ليعمل فى الذهب والفضة والنحاس ، ونقش حجارة للترصيع وتجارة الخشب ، ليعمل فى كل صنعة ، وهأنا جعلت معه أهولياب بن أخيسا ماك من سبط دان ، وفى قلب كل حكيم القلب جعلت حكمة ليصنعوا كل ما أمرتك) ـ (خروج / ٣١) .

تحت قيادة مهندس إنشائى وآخر تنفيذى تشكلت هيئة من (الحكماء) الفنيين لصناعة بيت يمكن نقله مع (الشعب) الذى لم يستقر به المقام بعد ، وتبعاً للأحداث المريرة والحروب الكثيرة التى خاضها لم يكن يستطيع أن يحدد البناء .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : جاء فى الخبر الصادق أن داود فكر فى إقامة معبد ليهوه فى عاصمة ملكه ، وعاصمة أسرته ، أورشليم ، حتى يكون هذا المعبد عاملاً من عوامل اتحاد الأمة ، وجمع شمل البلاد ، إلا أن معارضة بعض المحافظين من رجال الدين ـ وعلى رأسهم النبى ناثان ـ عرقلت تنفيذ الفكرة[1] .

فلما كان عهد سليمان ، حيث (لا يوجد خصم ، ولا حادثة شر) ، واتسعت إمكانيات (الشعب) بأموال غنموها ، ومزارع أبادوا أصحابها ـ تهيأ سليمان لبناء البيت ، فسخّر ثلاثين ألف رجل يساعدون عبيد (حيرام) ملك (صور) فى قطع أخشاب الأرز والسرو ، وثمانين ألفاً يقطعون حجارة كريمة مربّعة فى الجبل ، وسبعين ألفاً يحملون الأخشاب والحجارة ، (ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف ، وثلاثمائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل) ، واجتمع بناءو حيرام وبناءو سليمان والجبليون (وهيئوا الأخشاب والحجارة لبناء

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ٦٠ .

البيت ، وعلى صورة بيت الرب الذى أشرف على تنفيذه (موسى) أعاد سليمان بناء البيت .

(ومضت سبع سنوات ، والعمل فى تشييده على قدم وساق ، ليكون مقراً فخماً ليهوه ، مدى أربعة قرون ، ثم واصل مهرة الصناع والفعلة ـ العمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ، ليشيدوا صروحاً أكبر من الهيكل ، يسكن فيها سليمان ونساؤه)[1] .

وبسبب هذه التكاليف الباهظة ، ومقابل خدمات (حيرام) قدم سليمان كثيراً من الحبوب والزيت لصور ، كما تنازل عن جزء من مملكته لصور كذلك[2] .

ووصف المعبد ـ كما جاء فى العهد القديم ـ يذكّر بوصف المعبد المصرى ، خاصة ذلك النوع الذى وجد فى تل العمارنة بصعيد مصر ، أى فى الوقت الذى لليهود فيه شأن ، إذا صحّ أن موسى كان على ديانة أخناتون ، وإن كانت أطوال المعبد ـ كما يقول ويلز (Wells) ـ تمكّن من (وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى) ، وكما يقول جوستاف لوبون : إنه (بناء أقيم على الطراز الأشورى المصرى) ، ويزيد أن (قصور سليمان لم تكن غير نسخ رديئة للقصور المصرية أو الأشورية)[3] ويضيف ول ديورانت : أنه كان فى نصف طول البارثنون ، وكان العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً .. ومن هنا كانت مبالغات (الكاتب) فى أرقامه التى تنهض ببناء مدينة لا معبد .

(١) قصة الحضارة ـ مج ١ ـ حـ ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) يقول ول ديورانت : (هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق) ـ قصة الحضارة ـ مج ١ ـ حـ ٢ ص ٣٣٦ ـ وهذا يسقط دعوى حائط المبكى .

(٣) اليهودية ـ ٨١ .

وإلى هذا الوقت (لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب ، حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر) ـ (الملوك الأول / ٥ / ٨) .

* * *

خرّب نبو خذ نصر ما بنى سليمان ، وقضى على وجود إسرائيل فى أرض كنعان سنة ٥٨٦ ق . م ثم استولى قورش ملك فارس على بابل ، وفكّ أسر بنى إسرائيل ، فأخذ الربُّ (حزقيال) ، وصعد به على جبل عال جداً ، و (إذا برجل منظره كمنظر النحاس ، وبيده خيط كتان وقصبة القياس ، وهو واقف بالباب ، فقال لى الرجل : يابن آدم ، انظر بعينيك ، واسمع بأذنيك ، واجعل قلبك إلى كل ما أريكه ، لأنه لأجل إرادتك أتى بك إلى هنا ، أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى) .

ومضى به الرجل يقيس السور خارج البيت ، ويرسم أبواب ورواق الباب وغرفات الباب ، ثم أتى إلى الدار الخارجية ومخادعها وأبوابها وغرفها وكواها وقببها ونخيلها ، ثم الدار الداخلية وغرفاتها وأروقة أبوابها وموائدها ومخادعها ، والهيكل وعضائده وقوائمه ، والبيت وغرفاته ومخادعه وكواه وعتباته وأساطينه وكروبيمه ونخيله ، والمذبح بكل تفصيلاته ، واشترط أن تكون (المخادع العليا أقصر ، لأن الأساطين أكلت من هذه ، من أسافل البناء ومن أواسطه ، لأنها ثلاث طبقات ، ولم يكن لها أعمدة كأعمدة الدور ، لذلك تضيق من الأسافل ومن الأواسط من الأرض) .

ويلاحظ أن بيت حزقيال أكبر كثيراً من البيت الذى بناه سليمان ، فبيت سليمان (طوله ستون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعاً) ، على حين أن سور بيت حزقيال يبلغ خمسمائة قصبة طولا وعرضاً ، و (قصبة القياس ست أذرع طولاً بالذراع وشبر) .

كما يبدو اهتمام الرب ببيت حزقيال ، إذْ اتخذ له من البيت مقاماً :

(يابن آدم ، هذا مكان كرسىّ ومكان باطن قدمىّ ، حيث أسكن وسط بنى إسرائيل إلى الأبد) ـ (حزقيال / ٤٠ / ٤٣) .

* * *

وإذا كان الرب قد اهتم ببيته هذا الاهتمام ، فإن عنايته بالقوّامين على هذا البيت وبخدّامه تبدو واضحة من خلال الأوصاف التى تتمثل فيهم ، والملابس التى يتحلون بها ، والحقوق التى كفَّلها لهم .

وفى هذا يقول الرب لهارون :

(إذا كان رجل من نسلك ، فى أجيالهم ، فيه عيب ، فلا يتقدم ليقرّب خبز إلهه ، لا رجل أعمى ، ولا أعرج ، ولا أفطس ، ولا زوائدى ، ولا رجل فيه كسر رجْل ، أو كسر يد ، ولا أحدث ، ولا أكشم ، ولا فى عينه بياض ، ولا أجرب ، ولا أكلف ، ولا مرضوض الخصى ، لئلا يدنس مقدسى) ـ (لاويين / ٢١) .

وأوصى الرب موسى : أن (اصنع ثياباً مقدسة لهارون أخيك ، للمجد والبهاء) ، وهذه الثياب التى يصنعها (حكماء القلوب الذين ملأتهم روح حكمة ..صدرة ورداء وجبّة وقميص مخرم وعمامة ومنطقة).

(فيصنعون الرداء من ذهب وأسما نجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم ، صنعة حائك حاذق ، يكون له كتفان موصولان فى طرفيه ليتصل ، وزنار شدّه الذى عليه يكون منه كصنعته ، من ذهب وأسمانجونى وقرمز وبوص مبروم ، وتأخذ حجرى جزع ، وتنقش عليها أسماء بنى إسرائيل ، ستة من أسمائهم على الحجر الواحد .. حسب مواليدهم ..محاطين بطوقين من ذهب .. وتضع الحجرين على كتفى الرداء ، حجرى تذكار لبنى إسرائيل ، فيحول هارون أسماءهم أمام الرب على كتفيه للتذكار ، وتصنع طوقين من ذهب ، وسلسلتين من ذهب نقى ، مجدولين

تصنعهما صنعة الضَّفر ، وتجعل سلسلتى الضفائر فى الطوقين) .

(وتصنع صُدرة قضاء ، صنعة حائك حاذق كصنعة الرداء تصنعها ، من ذهب وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم تصنعها ، تكون مربعة مثنيَّة ، طولها شبر ، وعرضها شبر ، وترصع فيها ترصيع حجر ، أربعة صفوف حجارة ، صف عقيق أحمر وياقوت أصفر وزمرد ، الصف الأول ، والصف الثانى بهرمان وياقوت أزرق وعقيق أبيض ، والصف الثالث عين الهر ويشم وجمشت ، والصف الرابع زبرجد وجزع ويشب ، تكون مطوقة بذهب فى ترصيعها ، وتكون الحجارة على أسماء بنى إسرائيل ، اثنى عشر على أسمائهم ، كنقش الخاتم ، كل واحد على اسمه) .

(وتصنع على الصدرة سلاسل مجدولة ، صنعة الضَّفر من ذهب نقى ، وتصنع على الصدرة حلقتين من ذهب وتجعل الحلقتين على طرفى الصدرة ، وتجعل طرفى الضفيرتين الآخرين فى الطوقين ، وتجعلهما على كتفى الرداء إلى قدامه ، وتصنع حلقتين من ذهب ، وتضعهما على طرفى الصدرة ، على حاشيتها التى إلى جهة الرداء من داخل ، وتصنع حلقتين من ذهب ، وتجعلها على كتفى الرداء من أسفل من قدامه ، عند وصله من فوق زنّار الرداء ، ويربطون الصدرة بحلقتيها إلى حلقتى الرداء بخيط من أسمانجونى ، لتكون على زنار الرداء ، ولا تنزع الصدرة عن الرداء ، فيحمل هارون أسماء بنى إسرائيل فى صدرة القضاء على قلبه عند الدخول إلى القدس ، للتذكار أمام الرب دائماً ، وتجعل فى صدرة القضاء الأوريم والتَّميم ، لتكون على قلب هارون عند دخوله أمام الرب) .

(وتصنع جبة الرداء كلها من أسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ، ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك ، كفتحة الدرع يكون لها ، لا تشقّ ، وتصنع على أذيالها رمانات من أسمانجونى وأرجوان وقرمز ، على أذيالها حواليها ، وجلاجل من ذهب بينها حواليها ، جلجل

ذهب ، ورمانة جلجل ذهب ، ورمانة على أذيال الجبة حواليها ، فتكون على هارون للخدمة ، ليسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب ، وعند خروجه ، لئلا يموت) .

(وتصنع صفيحة من ذهب نقى ، وتنقش عليها نقش خاتم قدس للرب ، وتضعها على خيط أسمانجونى ، لتكون على العمامة ، إلى قدام العمامة تكون ، فتكون على جبهة هارون ، فيحمل هارون إثم الأقداس التى يقدسها بنو إسرائيل ، جميع عطايا أقداسهم ، وتكون على جبهته دائماً للرضى عنهم أمام الرب ، وتحزم القميص من بوص ، وتصنع العمامة من بوص ، والمنطقة تصنعها صنعة الطراز) .

ولم ينس الرب الأعظم ما ينبغى أن يلبسه بنو هارون :

(لبنى هارون تصنع أقمصة ، وتصنع لهم مناطق ، وتصنع لهم قلانس ، للمجد والبهاء) .

وسكت عن وصف هذه الملابس ، لتأخذ نفس أوصاف ملابس أبيهم ، وبخاصة أنه أتبع ذكر ملابس الأبناء بقوله : (وتلبس هارون أخاك إياها ، وبنيه معه ، وتمسحهم ، وتملأ أياديهم ، وتقدمهم ليكهنوا لى ، وتصنع لهم سراويل من كتان لستر العورة ، من الحقوين إلى الفخذين تكون ، فتكون على هارون وبنيه عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع ، أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة فى القدس ، لئلا يحملوا إثماً ويموتوا ، فريضة أبدية له ولنسله من بعده) ــ (خروج / ٢٨) .

* * *

يَحَارُ المَرْءُ ــ دون شك ــ فى تكاليف هذه الثياب أكثر من حيرته فى أوصافها .

هذا الذهب ، وهذه الحجارة الكريمة كلها ، ممن ؟! من شعب ضائع

في الصحراء ؟! من أجل المثول بين يدى الرب ؟! أى رب هـــذا الذى يستولى على كل ما يملك شعبه ، ليصنع ثياب أسرة لا شرف لها إلا الانتساب إلى موسى الرسول ، وإلى أخيه هارون ، ويجعل هذا كله فى بيتها وسائل ترف وخداع ، بحسبان أن البيت بيت الرب ، ولا بد أن يتناسب المكان مع جلاله وعزته وكبريائه ، هذا الرب الذى يحتاج إلى أن يلبس من يدخل عليه رمّانات وجلاجل تحـدث صـوتاً ، حتى لا يفـاجأ متلبسا بما لا ينبغى ، فيغـضب ، وتكون النتيجـة موت من انكشـف له مالا ينبغى أن يرى !! .

لكن جيمس فريزر يرى أن صليل الأجراس المقدسة كان ـ فى اعتقادهم ـ يطرد الأرواح الشريرة الحاسدة التي تقبع عند بـاب المكان المقدس [١]، على أن استخدام الأجراس والطبول بقصد طرد الأرواح الشريرة كان مألوفاً عند كثير من الشعوب [٢]، ومن أهم ما يميز الكهنة والأنبياء والأطباء فى أفريقيا حملهم للأجراس ، أو ارتداؤهم إياها فى أثناء احتفالاتهم المقدسة التى تهدف إلى طرد الشياطين ، أو الشفـاء من الأمراض ، أو استقبال الوحىْ الإلهى [٣]، بل إن بعض الشعوب كانت تعتقد فى أن صليل الأجراس كان يهدف إلى اجتذاب الأرواح الطيبة ، وليس إلى طرد الأرواح الشريرة فحسب [٤].

وهذا التعليل لا ينطبق على الحالة الواردة فى (العهد القديم) ، لأن ما أورده فريزر إنما هو من وحى الانفعالات الشعبية ، كالزار اليـوم ، وليس (أمر إلهياً) لا مجال معه إلى تأويل .

ثم إننا نمضى فى تساؤلنا : هل يكفى أن تسجّل أسماء الأسباط على حجارة الصدرة لينساق الجميع وراء هذا الشرف العظيم ؟! . هل يظل هذا

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) الفولكلور فى العهد القديم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٢ ـ حـ ١ ص ٢٢٨ و ٢٤٤ و ٢٥٥ و ٢٥٦ بالترتيب .

الشعب أسير هذه الترّهات أبد الدهر ، من أجل مغفرة آثامه ، ونيل مرضاة الرب ؟! .

أليس هذا الشعب لا يؤمن بالآخرة ، والشريعة المدونة فى لوحي التابوت لاتحمل إشارة إلى ثواب أو عقاب بعد الموت ؟! .

ماذا يدفع (الشعب) إذاً إلى أن يجوع ويعرى من أجل أن يأكل الكهنة والقادة فى صحائف من ذهب ؟! أهو ذلك الوهم الكاذب الذى ربط بين الشعب والرب ، والدجل الطويل الذى ألقى فى قلوب هؤلاء القوم الرعب والفزع من المجهول ، والسخط والحقد على كل الشعوب ، والأمل الخادع فى مملكة الرب التى تسيطر على العالم فى يوم ، أى يوم ؟!.

ألا يكون هذا مجرد انعكاس لماضٍ عريق انغرست جذوره فى نفوس هؤلاء القوم شوقاً وحنيناً ، بعد ما ضربتهم سنوات التيه بالحرمان واليأس والانطلاق خلف السراب ؟! .

حين نقرأ عن دوْر (الذهب) فى حياة المعابد المصرية القديمة لا يسهل علينا أن نغفل أثر حياة كهنة مصر فى كهنة أورشليم . يقول أدولف إرمان فى كتابه (ديانة مصر القديمة) ص ٢٢٠ وما بعدها :

كانت أعمدة المعابد وإطارات الأبواب تلتمع بالذهب ، بل إن الأرض كانت تُكفّت فى بعض الجهات المقدسة بالذهب أو الفضة .. وكانت اللوحات الكبيرة من الحجر تزين كذلك بالذهب ، وتزخرف علاوة على ذلك بحلى الذهب السورى ، وهى تستقر فوق قواعد مكفّتة بالفضة وحلى ذهبية ، حتى لتكاد الأرض تنطوى تحتها .. ويتألق داخل المعبد كذلك بكل الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة (التى يغمر مصر ضوءها ، كما تفعل النجوم تحت بطن السماء) .

ويضع رمسيس الثانى فى الحوش الخارجى لمعبد أمون حاملاً كبيرا لجرّة مزينا بالذهب والأحجار الكريمة ، وأما الأوانى فمصنوعة من الذهب ،

وهى تحوى النبيذ والجعّة لتقدمة الصباح .

ويقدم نفس الملك هدية إلى المعبد مائدة قربان من الفضة ، وإناء كبيراً من الفضة مغطى بغطاء من الفضة ، له حافة ذهبية .

كما يقدم إلى أمون لوحات ذهبية صغيرة تحوى أدعية ، وأخرى من الفضة خاصة بأوامر المعبد ، وعدداً كبيراً من اللوحات الفضية بها مراسيم وكشوف محتويات المعبد .

وكانت المعابد فى مدينة هابو مزينة فى عهده بتماثيل تتألق بأحجار كريمة ، وكانت تماثيل آلهة منفيس وتاسوع آلهة السماء والأرض مصنوعة من الذهب الخالص ، ومحلاة بالأحجار الكريمة ، وأعيد صنع تماثيل موت وخونسو من جديد فى بيوت الذهب ، ثم حلّيت بالأحجار الكريمة ، وألبست عقوداً من الذهب تتدلى من أمام ومن خلف بدلايات من الذهب السورى .

وكان قارب أمون من خشب الأرز ، وطوله ١٣٠ ذراعاً ، وكان مغطى بالذهب الخالص ، وكان محرابه من الذهب النقى ، مزيناً بكل أنواع الحجارة الثمينة .

وكان ما يقدم للإله وما يأكله المشتركون فى الحفل يتضمن وجبات حقيقية من الخبز الجيد واللحم والكعك والرقاق ، ويكون ذلك مكوّماً فى سلال مختلفة الأشكال تتفق ومقام المحتلفين ، وكانوا يحتاجون كل عام إلى خمس عشرة سلة احتفالية ، وأكثر من خمس وثلاثين سلة ذهبية ، وحوالى ٣٦٥ سلة طعام ، علاوة على ١٢٠ كأساً للأمراء .

كان هذا البذخ والإسراف الذهبى فى عصر (الخروج) اليهودى من مصر ، فى عصر الانتصارات المصرية فى أسيا وأفريقيا ، فلا عجب أن تنطبع نفوس (الخارجين) المطاريد بوهم استعادة الوجود المصرى فى حيثما يجدون القدرة على الابتزاز والنهب ، وفرض سلطان مستبد بغيض .

وحين نعرف أن فترة الأسر ببابل كانت فترة نشاط كتبة التوراة والتلمود ، صحّ أن نقول إن هؤلاء الكتبة تأثروا كذلك بما كان عليه كهنة بابل ، إذ كان الملوك والأثرياء – والدولة مزهوّة بانتصاراتها وغنائمها – يعبرون للآلهة عن شعور بالامتنان والحمد ، ويطلبون مزيداً من الانتصارات والغنائم ، ومن ثم شادوا الهياكل ، وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد ، ووقفوا عليها مساحات واسعة من الأرض ، وخصوها بقسط وافر من إيراد الدولة فى كل عام ، كما كان أول سهم من غنائم الحرب للآلهة ، وإذا أصاب الملك مغنماً قدمت الهدايا العظيمة قرابين ، وكان يفرض على بعض الأراضى الزراعية ضريبة سنوية من التمر والحبوب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزعت ملكيتها لصالح الهياكل ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصون الهياكل بقدر من أرباحهم .. وبهذا تكدس فى خزائن الهياكل الذهب والفضة والنحاس واللازورد والجواهر والأخشاب النفيسة ، وأصبح الكهنة أعظم القوامين على الشئون الزراعية والصناعية والمالية ، وكانوا يملكون مساحات واسعة من الأرض وأعداداً غفيرة من العبيد ، كما كان الكهنة أعظم تجار بابل ، وقد عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم لتفوقهم فى الحصول على أرباح كبيرة (١) .

* * *

لننظر فى هذه الالتزامات التى فرضها الكهنة على هؤلاء (الأشقياء) باسم الرب ، وتكررت بصورة أو بأخرى فى معظم الأسفار ، حتى تنغرس فى قلوبهم ، ونسرى فى دمائهم مسرى إله الذهب الذى سقاهم موسى ترابه .

يتحدث سفر لاويين (الكهنة) عن القرابين من الفطير والرقاق ، وما هو على الصاج ، وفى الطاجن ، والفريك المشوى بالنار ، والذبائح من البقر

(١) قصة الحضارة – مج ١ – جـ٢ ص ٢١١ / ٢١٢ .

والغنم والماعز ، ومن أخطأ فعليه ثور صحيح (للرب ذبيحة خطية) ، ومن أخطأ بسهو ، ثم أعلم بخطيته (يأتى بقربان تيساً من المعز ذكرا صحيحاً) ، فإن كان من عامة الأرض (يأتى بقربان عنزاً من المعـز أنثى صحيحـة) ـ (لاويين / ٤/١) ـ وبهذا يكفر عنه الكاهن ، ويصفح الرب . و (ذبيحة الإثم كذبيحة الخطية ، لهما شريعة واحدة ، الكاهن الذى يكفر بها تكون له ، والكاهن الذى يقرب محرقة إنسان فجلد المحرقة التى يقربها يكون له ، وكل تقدمة خبزت فى التنور ، وكل ما عمل فى طاجن أو على صاج يكون للكاهن الذى يقرب ، وكل تقدمة ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بنى هارون ، كل إنسان كأخيه) .

وهذه شريعة ذبائح السلامة التى يقربها للرب :

إن قربها لأجل الشكر يقرب على ذبيحة الشكر أقراص فطير ملتوتة بزيت ورقاق وفطير مدهونة بزيت ، ودقيقاً مربوكا أقراصاً ملتوتة بزيت ، مع أقراص خبز خمير يقرب قربانه على ذبيحة شكر سلامته ، ويقرب منه واحداً من كل قربان رفيعة للرب ، يكون للكاهن الذى يرشّ دم ذبيحة السلامة ، ولحم ذبيحة شكر سلامته ، يؤكل كل يوم قربانه ، ولايبقى منه شيئاً إلى الصباح .

وإن كانت ذبيحة قربانه نذراً أو نافلة ففى يوم تقريبه ذبيحته تؤكل، وفى الغد يؤكل ما فضل منها ، وأما الفاضل من لحم الذبيحة فى اليوم الثالث فيحرق بالنار ـ إذ لـم تكن الثلاجات اخترعت ، وحتى لا يذوق الفقراء طعمهافتتسع أفواههم ـ ويكون الصدّر لهارون وبنيه .. فريضة دهرية من بنى إسرائيل) ـ (لاويين / ٧) .

(وكل إنسان من بيت إسرائيل يذبح بقراً أو غنماً أو معزى فى المحلة ، أو يذبح خارج المحلة ، وإلى باب خيمة الاجتماع لا يأتى به ليقرب قرباناً للرب ، أمام مسكن الرب ـ يحسب على ذلك الإنسان دم ، قد سفك دما

فيقطع ذلك الإنسان من شعبه .. فريضة دهرية تكون هذه لهـم فى أجيالهـم) ـ (لاويين / ١٧) .

ولم يكتف رب موسى بهذا ، بل أوصى بنى إسرائيل بأن (قربانى طعامى مع وقائدى رائحة سرور ، تحرصون أن تقدموه فى وقته .. وقل لهم : هذا الوقود الذى تقربون للرب خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة .. وفى يوم السبت خروفان حوليان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت ، تقدمه مع سكيبه .. وفى رءوس شهوركم تقربون محرقة للرب ثورين ابنى بقر ، وكبشاً واحداً ، وسبعة خراف حولية صحيحة ، وثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت تقدمة لكل ثور ، وعشرين من دقيق ملتوت بزيت تقدمة للكبش الواحد ، وعشراً واحداً من دقيق ملتوت بزيت تقدمة لكل خروف ، وسكائبهن تكون نصف الهين للثور ، وثلث الهين للكبش ، وربع الهين للخروف ، من خمر .. وفى الشهر الأول فى اليوم الرابع عشر من الشهر فصح للرب ، وفى اليوم الخامس عشـر من هذا الشهر عيد ، سبعة أيام يؤكل فطير) ـ (عدد / ٢٨) .

وتستمر المحافل المقدسة والقرابين فى أيام محددة واجبة الالتزام على مر العام ؛ فريضة دهرية ـ (عدد / ٢٨ / ٢٩) .

* * *

يذكر الباحثون أن تقديم القرابين كان مرحلة من مراحل الرقى عند اليهود ، فقد كانوا من قبل يلجئون للسحرة والعرافين ، لكن الكهنة قاوموا هذا الاتجاه فيهم ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة واحدة ، هى قوة القربان والصلوات والتبرعات ، وكان المعتقد أن القرابين تكفر ذنوب الناس وتمحو خطاياهم إذا باركتها يد الكاهن .

ولعل التقاليد المصرية والبابلية فى تقديم القرابين كانت ذات أثر كبير على الفكر اليهودى ، فقد كان (تقريب القربان من الطقوس المعقدة التى

تتطلب خدمات كاهن خبير بشئونها ، وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال .. وكان الدين عند البابليين يعنى بالمراسيم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة) [1] ، وهو ما صار إليه طابع الحياة الدينية اليهودية إلى اليوم ، ولم تكن التقاليد البابلية بدعاً فى هذا الأمر ، بل كان الشرق كله خاضعاً لهؤلاء (المهرة) الذين استغلوا ـ ولا يزالون ـ الطاقة الروحية فى الإنسان استغلالاً مادياً ، حتى صارت المؤسسات الدينية أغنى المؤسسات ، وما أخبار دولة (الفاتيكان) ببعيدة .

ورد فى الأساطير الأوجارتية بعد ما بنى بيت بعل :

وعندئذ نادى بعل البناء الإلهى .
بعد أن وصل كوثار وخاسيس .
وضَع ثوراً بين يديه .
وذبَح سميناً وسط الحضرة .
وأقيم عرس لمجلس .
على يمين إليان بعل .
حتى أكل وشرب [2].

ونقرأ فى أعمال هوميروس أنه عندما عقد الإغريق والطرواديون هدنة فيما بينهم ذبحت الأغنام ، وسكب أجاممنون عليها الخمر ، وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، بينما كان الفريقان يدعوان على من ينقض الهدنة أن يهشم رأسه ، ويسيل مخه ، كما نسيل هذه الخمر على الأرض .

---

(١) قصة الحضارة مج١ ـ جـ ٢ ص ٢٢٢ / ٢٢٣ .
(٢) أساطير العالم القديم ـ ص ١٨٢ .

وهذا يؤكد العلاقة القديمة بين القوى المادية والقوى الروحية ، واستغلال القوى الروحية من أجل مكاسب مادية .

* * *

ولم يكتف الكهنة بهذه القرابين ، ففرضوا (كل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب ، قدس للرب ، وإن فكّ إنسان بعض عشره يزيد خمسه عليه ، وأما كل عشر للبقر والغنم فكل ما يعبر تحت العصا يكون العاشر قدساً للرب ، ولا يفحص أجيّد هو أم ردىء ، ولا يبدّله ، وإن أبدله يكون هو وبديله قدساً لا يفك) ـ (لاويين / ٢٧) .

ومن الغنائم يوجد واحد فى المائة زكاة للرب ، من البقر والغنم والحمير ، غير رفيعة الرب نفس من كل خمسمائة من الناس والبقر والحمير والغنم ، فضلاً عن كل ما يوجد من أمتعة ذهب (حجولاً وأساور وخواتم وأقراطاً وقلائد) وغيرها ـ (عدد / ٣١) .

ويؤكد الرب حقوق هارون وأتباعه فى هذا كله بتقسيمه بينهم على أساس أن لهارون (من قدس الأقداس ، من النار ، كل قرابينهم ، مع كل تقدماتهم ، وكل ذبائح خطاياهم ، وكل ذبائح آثامهم التى يردونها لى ، قدس أقداس هى لك ولبنيك ، فى قدس الأقداس تأكلها ، كل ذكر يأكلها) .

(الرفيعة من عطاياهم لك أعطيتها ولبنيك وبناتك فريضة دهرية) .

(كل دسم الزيت وكل دسم المسطار والحنطة ، أبكارهن التى يعطونها للرب لك أعطيتها) .

(أبكار كل ما فى أرضهم التى يقدمونها للرب لك تكون .. كل طاهر فى بيتك يأكلها) .

(كل محرّم فى إسرائيل يكون لك) .

(كل فاتح رحم من كل جسد ـ البكر ـ يقدمونه للرب ، من الناس ومن البهائم ، يكون لك .. غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكر البهيمة النجسة) .

(جميع رفائع الأقداس أعطيتها لك ، ولبنيك وبناتك معك ، حقاً دهرياً) .

(وأما بنو لاوى فإنى قد أعطيتهم كل عشر فى إسرائيل ميراثاً ، عوض خدمتهم التى يخدمونها ، خدمة خيمة الاجتماع) .

لكن على بنى لاوى أن يرفعوا عُشر ما يحصلون عليه لهارون الكاهن ـ (عدد / ١٨) .

* * *

ثم تكون واجبات تدشين المذبح :

(قال الرب لموسى : رئيساً رئيساً فى كل يوم يقربون قرابينهم لتدشين المذبح .. أطباق فضة اثنا عشر ، ومناضح فضة اثنا عشر ، كل طبق مائة وثلاثون شاقل فضة ، وكل منضحة سبعون ، جميع فضة الآنية ألفان وأربعمائة على شاقل القدس ، وصحون الذهب اثنا عشر مملوءة بخوراً ، كل صحن عشرة على شاقل القدس ، جميع ذهب الصحون مائة وعشرون شاقلاً ، كل الثيران للمحرقة اثنا عشر ثوراً ، والكباش اثنا عشر ، والخراف الحولية اثنا عشر ، مع تقدمتها ، وتيوس المعز اثنا عشر لذبيحة الخطية ، وكل الثيران لذبيحة السلامة أربعة وعشرون ثوراً ، والكباش ستون ، والتيوس ستون ، والخراف الحولية ستون هذا تدشين المذبح بعد مسحه) ـ (عدد / ٧) .

* * *

جاء فى بردى (هريس) بالمتحف البريطانى أن ممتلكات معابد كهنة مصر القديمة بلغت ١٠٣١٧٥ خادماً ، و ٤٩٠٣٨٦ رأساً من الماشية ، و ٤١٣ حديقة ، و ١٠٧٤٤١٨ فداناً ، و ٨٨ مركباً ، و ٥١ حوضاً للسفن ، ١٦٩ بلدة ، بعضها فى وادى النيل وبعضها خارجه .

وانتهى الأمر بالمعابد وكهنتها إلى كراسى الحكم ، لتصبح فى مصر حكومة دينية تصطبغ قراراتها بالقداسة الإلهية ، مما عجل بوقوع مصر فى أيدى الغزاة ، وهو ما حدث للشعب اليهودى .

وينبغى الرجوع إلى الآداب التى كان يتخذها كهنة مصر ، وهم يؤدون شعائرهم ، للتعرف على مدى العلاقة القوية التى تربط بين هؤلاء الكهنة وحاخامات اليهود [1] الذين لا تقف مطامعهم عند حد ، لدرجة أنهم استغلوا كل الوسائل الممكنة للاستيلاء على ما يملكه الآخرون ، دون تقدير للظروف القاسية التى كان (الشعب) يمر بها .

ولقد حدث أن (قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى ، وداثان وأبيرام ابنا أليآب ، وأوان بن فالت ، بنو رأوبين) أخذوا (يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل ، مائتين وخمسين رؤساء الجماعة) ، غير راضين عن هذه الامتيازات التى فرضت عليهم لهارون وبنيه .. (كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفى وسطها الرب ، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) ؟! .

ثورة على وضع شاذ .. وحتى لا تكون فتنة ، وسابقة خطيرة فى حياة الجماعة المقدسة ، كان لا بد من ضربة قاصمة تردع كل من توسوس له نفسه بأن يفكر فيما فرض الرب .. فقال موسى لشيوخ إسرائيل : (اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ، ولاتمسّوا شيئاً مما لهم ، لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم) .. ثم أعلن (إن مات هؤلاء كموت كل إنسان ،

(١) انظر ديانة مصر القديمة ـ ص ١٩٤ وما بعدها ، و ص ٣٧٥ .

وأصابتهم مصيبة كل إنسان ، فليس الرب قد أرسلني ، ولكن إن ابتدع الرب بدعة ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم ، وكل مالهم ، فهبطوا أحياء إلى الهاوية ، تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا على الرب) .

(فلما فرغ من التكلم بهذا الكلام انشقّت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم ، وكل ما كان لقورح من كل الأموال ، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ، فبادوا من بين الجماعة .. وخرجت نار من عند الرب ، وأكلت المائتين والخمسين رجلاً الذين قربوا البخور) ـ (عدد ١٦). مع أن تقديم البخور كان بأمر موسى ، وفي الطاعة نوع من التوبة والاستغفار ، فإن الرب قد قضى ، ولارادّ لقضائه ، (لكيلا يقترب رجل أجنبي من نسل هارون ليبخر بخوراً أمام الرب) ـ (عدد ١٦) .

ومن ثم سارت الجماعة في أسر الكهنة والقضاة والأنبياء والأدعياء (أمة متمردة) مغلولة بقيود لا قبل لها بها .

فلما كان أول تجمع إسرائيلي في أورشليم بعد السبي ، تزعم نحميا وصدقيا وسرايا وعزريا وبرميا وفشحور وأمريا وملكيا وغيرهم من الكهنة ـ جموع الشعب (في قَسَم وحلف) أن يسيروا في شريعة الله ، وأن يلتزموا ـ ولم تستقر الحياة بهم بعد ـ بهذه الفرائض الجائرة :

(أقمنا على أنفسنا فرائض أن نجعل على أنفسنا ثلث شاقل كل سنة لخدمة بيت إلهنا لخبز الوجوه ، والتقدمة الدائمة ، والمحرقة الدائمة ، والسُّبوت ، والأهلّة ، والمواسم ، والأقداس ، وذبائح الخطية للتكفير عن إسرائيل ، ولكل عمل بيت إلهنا ، وألقينا قرعاً على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب ، لإدخاله إلى بيت إلهنا ، حسب بيوت آبائنا ، في أوقات معينة ، سنة فسنة ، لأجل إحراقه على مذبح الرب إلهنا ، كما هو مكتوب في الشريعة ، ولإدخال باكورات أرضنا وباكورات ثمر كل

شجرة ، سنة فسنة ، إلى بيت الرب ، وأبكار بنينا وبهائمنا ، كما هو مكتوب في الشريعة ، وأبكار بقرنا وغنمنا ، لإحضارها إلى بيت إلهنا ، إلى الكهنة الخادمين في بيت إلهنا ، وأن نأتي بأوائل عجيننا ورفائعنا وأثمار كل شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة ، إلى مخدع بيت إلهنا ، وبعشر أرضنا إلى اللاويين ، واللاويون هم الذين يعشّرون في جميع مدن فلاحتنا) ـ (نحميا / ١٠) .

وتستمر هذه الأوضاع الشاذة ، فينهض بعض الأنبياء والمتنبئين ثائرين منددين بالخداع الكهنوتي ، واستغلال التجار والمرابين ، فيقف (عاموس) ملوّحاً بما يشبه الثورة على الكهنة والأغنياء ، فيقول :

(من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ، ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها ، لأني علمت أن ذنوبكم كثيرة ، وخطاياكم وافرة ، أيها المضايقون البارّ ، الآخذون الرشوة ، الصادّون البائسين في الباب) ـ (عاموس / ٥) .

ويتهدد بزوال مُلك إسرائيل ويهوذا ، بسبب هذا الفساد الاجتماعي والديني ، فيقول :

(هكذا قال الرب : كما ينزع الراعي من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا ينتزع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة ، في زاوية السرير ، وعلى دمقس الفراش .. إنني يوم معاقبتي إسرائيل على ذنوبه أعاقب مذابح بيت أيل ، فتقطع قرون المذبح ، وتسقط إلى الأرض ، وأضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف ، فتبيد بيوت العاج [1]، وتضمحل البيوت العظيمة) ـ (عاموس / ٣) .

* * *

(١) يقصد ببيت العاج الحجرة التي بنيت كلها من العاج في قصر السامرة الذي كان يقيم فيه الملك أخاب مع زوجته إزابيل ، حوالي ٨٧٥ ـ ٨٥٠ ق . م .

لو أن أولئك المتخصصين فى الدراسات الدينية عنوا بدراسة هذه الالتزامات الجائرة :

هل هى حقاً فى الشريعة ؟ أو بمعنى أقرب إلى الحقيقة : ما مدى ارتباطها بما جاء فى الشريعة ؟ .

وفى عهد من أُدخلت على الكتاب المقدس ؟ .

وما الدواعى التى دعت إليها ؟ .

وهل كانت هناك استجابة فِعْلية لها ، طوعاً أو قسراً ؟ .

ما علاقة هذه الالتزامات بالمجتمع اليهودى ؟ .

هل لها دور فى تطوير الفهم الدينى ؟ .

هل للتطوّر الفكرى دور فى تطويرها ؟ .

هل لها وجود اليوم فى المجتمع الصهيونى ؟ .

هل يمكن تناولها على أساس من الفهم السياسى المعاصر ؟ أو على أساس الأهداف السياسية العربية ؟ .

لقد كان لهذه الدراسة إشارات ، لكنها ليست إجابات كافية لكثير من التساؤلات .

* * *

٥ ـ تشريعات سماوية .. ولكن !!

الشريعة قيمة وسلوك ، أو سلوك تحدده قيمة ، والقيمة المثلى ترتبط بخير الإنسان ، دون قيود زمانية أو مكانية أو جنسية ، ومن ثم لا تكون من صنع الإنسان الذى هو صنيعة الزمان والمكان .. وهذا لا يعنى أن الإنسان غير قادر على أن يصنع قدره ، أو أن يطور مجتمعه ، لكنه ـ دون شك ـ غير قادر على أن يجنّب مجتمعه توترات واضطرابات لا تعوق النمو السليم فحسب ، بل كثيراً ما تحدث ردّة ، تذهب بكل ما بذله الإنسان فى تاريخه الطويل .. فكما أن المجتمع البشرى تعمل العقول على تطويره ـ على وجه ما ـ إذ لا تملك العقول القدرة على الكمال ، فإن الغرائز تدفع المجتمع فى مجالات متضاربة متصارعة تُلبس الحق بالباطل ، والخير بالشر .

وكانت حكمة الله أن يرسم للإنسان طريقه ، وأن يبصّره بجوانب القوة والضعف فيه ، وأن يرسل إليه رسلاً مبشرين ومنذرين ، هداة معلمين بالكلمة وبالسلوك .

ومنذ التقى الإنسان بالإنسان وشريعة السماء تصنع المناهج ، وتحدد الغايات .

وليس من الحق فى شيء أن الفلاسفة والحكماء كانت لهم المبادأة بالحق والخير والجمال ، وإن كانت لهم القدرة على أن يكشفوا عن بعض ما طمس المجتمع من معالم السماء فى الأرض .

استرشد الفلاسفة والحكماء بما خلّف الرسل والأنبياء ، واستلهموا ـ بطبيعة الخير فيهم ـ تفصيلات وتطبيقات مرهونة باحتياجات مجتمعهم ؛ واحتياجات المجتمع تتحكم فيها إمكانيات مادية ، وتطلعات طائفية ، وتمرس الحاكمين بالترغيب والترهيب .

لهذا اختلفت الفلسفات ، وتصارعت ، ومن اليسير تحديد مسار كل فلسفة ، والعوامل التى ساعدت على ظهورها ، أو على إيقاف نموها ، أو استمرار فاعليتها .

لكن الشرائع السماوية لا تختلف ، وإن كانت تنمو بنمو الاحتياجات البشرية : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه** ﴾ [1] .

وإذا كانت الفلسفات تخدم الخير والحق والجمال ، فإن هذه القيم ليست خارج حدود المكان والزمان ـ كما سبق القول ـ ومن ثم يمكن التمييز بينها وبين ما جاءت به السماء ، بمجرد تعريتها عن شوائب الزمان والمكان .

وهذا ما يحدث للتعاليم السماوية ، حين تنزو بالإنسان أهواؤه ومطامعه ، فيحرّف هذه التعاليم أو يزيف ، أو يسيء تفسيرها .

ولعل ما سجلته أسفار العهد القديم من شريعة موسى ـ عليه السلام ـ أوضح دليل على أن ما ارتضاه الله لخلقه من تعاليم سيظل ـ برغم الأساليب الكهنوتية والشعوبية والاستعمارية ـ أصفى وأنقى ، لأنه الحق المطلق ، والخير العام ، والجمال الذى لا يتحكم فيه ذوق العصر ، ولا عوامل البيئة .

ولايضير أن يكون هناك شبه بين ما جاءت به التوراة وبين تشريع حمورابى المكون من ٢٨٢ بنداً ، وإن كان شبها يتناول اللحمة والسدى واللب والجوهر ، لأن حمورابى ليس أول من شرع ، ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ [2] .

(١) الشورى / ١٣ .
(٢) فاطر / ٢٤ .

وإن كان تشريعه من أقدم التشريعات تدويناً ، فهذا لا يمنع أن يكون صدى تشريع أغفله التاريخ ، ثم إنه مسبوق بتشريعات مصر القديمة ، وهى الأخرى مسبوقة بتشريعات سماوية .. ومن هنا جاءت المشابهة بين التشريع الوضعى والتشريع السماوى .

والملاحظ على تشريع حمورابى القسوة ، لكنها القسوة التى تمضى مع المسائل التفصيلية ، لا فى القواعد الكلية . كما هو الشأن مع الشريعة اليهودية ، فمبدأ قانون القصاص هو : (النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص) .

فإذا كسر رجل سن رجل (شريف) ، أو فقأ عينه ، أو هشم طرفاً من أطرافه ـ حلّ به نفس الأذى الذى سبّبه لغيره ، وإذا انهار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندس بنائه أو بانيه ، لكنه يتجاوز (إذا تسبب عن سقوط البيت موت ابن الشارى ، إذ يحكم بالموت على ابن البائع أو البانى ، وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت حكم بالموت على ابنته) .

مسائل كثيرة تأخذ هذا المأخذ ، وإن كنا نجد التشريع يلجأ فى كثير من الأحيان إلى الغرامة ، حتى فيما يستوجب القصاص ، ثم يغلو فيما (إذا اتهم رجل آخر بجريمة ، يعاقب عليها بالإعدام ، ثم عجز عن إثباتها ، حكم على المدعى نفسه بالإعدام) .

وليس فى شريعة بابل ما يفيد وجود حق قبل الدولة ، لأنها كانت دولة دينية (خاضعة لأمر الكهنة) من أيام الملوك السومريين إلى تتويج نبوخذ نصر [1] .

وكذلك الحال بالنسبة للشرائع الفارسية التى كانت تعاقب بالقتل فى جرائم الزنا واللواط والسحاق ، (لأنهم أحق بالقتل من الأفاعى الزاحفة

(١) قصة الحضارة ـ جـ ٢ ص ٢٠٨ / ٢١١ .

والذئاب العادية) ، على حين (يرى الفرس أن خطف النساء قوة واقتدارا عمل لايأنبه إلا الأشرار ، ولكن اشتغال الإنسان بالثأر لهن إذا اختطفن يعد من أعمال الحمقى ، أما إهمالهن إذا اختطفن فمن أعمال الحكماء) (١)

كأنهم يشجعون على الزنا بالقوة فى مجتمع يكثر فيه التّسرّى إلى حد أن أصبحت العادة ألا يضاجع الملك امرأة مرتين ، إلا إذا كانت رائعة الجمال .

* * *

ولاريب فى أن التشريع اليهودى المدوّن فى (العهد القديم) تربّى فى حضانة التشريع البابلى والفارسى ، وإن كان ميلاده على يد موسى عليه السلام .

وإذ نحن بصدد عرض هذا التشريع فإنى حريص على ألا أقدم إلا ما أوردته التوراة ، أى الوصايا (الفرائض والأحكام والشرائع التى وضعها الرب بينه وبين بنى إسرائيل فى جبل سيناء ، بيد موسى) ـ (لاويين / ٢٦) .

وإن كان ـ حتى عهد سليمان ـ لم يوجد فى التابوت إلا لوحا الشهادة ، وقد كانا (لوحى حجر مكتوبين بإصبع الله) ـ (خروج / ٣١) ـ مما يفيد أنهما ـ دون غيرهما ـ قد احتفظا بالطابع السماوى ، إلى ماقبل تخريب أورشليم ، وهدم بيت الرب ، وتشتيت بنى إسرائيل .

لكن ـ مع هذا ـ فقد (كتب موسى التوراة وسلمها للكهنة ، بنى لاوى ، حاملى تابوت عهد الرب ، ولجميع شيوخ إسرائيل) ـ (تثنية / ٣١) .

وطبعاً كان على الكهنة ـ وفى يدهم التابوت ـ أن يضعوا التوراة مع اللوحين ، لكنهم لم يفعلوا ، لسبب أو لآخر ، وتوارثوا التوراة ، وسجلوا كتباً أخرى أضعاف ما جاء فى التوراة ، ونسبوها إلى الله ، أوحى بها إلى

(١) قصة الحضارة مج ١ ـ جـ ٢ ص ٤٤٠ .

أنبياء ، أو إلى كهان ، وألبسوا التوراة ملابس تاريخية ، فسجلوا تاريخ العالم من خلال تاريخ بنى إسرائيل .. وحتى يكون بنو إسرائيل (شعب الله المختار) ، بزعمهم فقد أباحوا لأنفسهم حرية التعديل والتبديل والإضافة والحذف .

ومع هذا ، فما بقى من توراة موسى ما يزال مطبوعاً بطابعه السماوى[1] ، وإن كان لم يمس العالم الآخر من قريب أو بعيد ، كما فعل أخناتون معاصر موسى ، لكن لأخناتون عذره ، إذ كان إغفاله العالم الآخر ضرورة أملتها عليه محاربته الديانة الشعبية والتقليدية ، حيث يحتل إله الأبدية أوزوريس مكاناً رئيسياً ، وربما كان يلعب دوراً أنشط من أى إله آخر[2] ، فهل كان هذا الإغفال أثراً من آثار الديانة المصرية الأخناتونية التى كان موسى من رجالها ، كما يزعم بعض المؤرخين ، وبخاصة أن الموسوية اهتمت بالعقوبات اهتماماً كبيراً ، كأنما تريد تصفية الحسابات فى الدنيا ، بحيث لا يبقى مبرر لعقاب الآخرة ؟ أو كان هذا الإغفال صدى للشريعة البابلية التى كانت ديناً أرضياً عملياً ، إذ كان المتعبد لا يطلب ثواب الجنة ، بل خير الدنيا ؟ .

يقول ول ديورانت : (فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت فى جملتها شبيهة بفكرة اليونان ، فكرة أموات ، فيهم قديسون وأنذال ، وفيهم عباقرة وبلهاء ، يذهبون كلهم إلى مكان مظلم فى جوف الأرض ، ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم)[3] .

وإذا كان دانيال قد أشار إلى يوم البعث ، وإلى الحساب والجزاء ، فى قوله : (وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى

(١) لا نجد فى التوراة التى وصلتنا ، والتى هى بأيدينا ، دليلاً على أن موسى ـ عليه السلام ـ هو مؤلفها ، بل إنّ بها عبارات لا يمكن أن تصدر عن موسى ـ عليه السلام ـ التوراة الهيروغليفية ـ ص ٤١ .

(٢) موسى مصرياً ـ ص ٤٢ .

(٣) قصة الحضارة ـ مج١ ـ جـ ٢ ص ٢٢١ .

الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العـار ، للازدراء الأبدى) ـ (دانيال / ١٢) ـ فهذا دليل على ما أصاب التوراة من تحريف وتزييف ، أو أنه دليل على الاتصال بالديانة الزرادشتية .. ، زمن الأسر الطويل ، وإبّان الاتصال بدولة الفرس فى عهد قورش ، فقول دانيال يشبه فى كثير منه ما جاء فى ديانة زرادشت ، من أنه (تقوم مملكة أهورا مزدا ، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى الشر هلاكاً لاقيامة لها بعده ، ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة جديدة فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام ، فيبعث الموتى ، وتعود الحياة إلى الأجسام ، ويخلو العالم المادى كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال)[1] .

وهذا التحريف والتزييف يزكيه قول يوسيفوس المؤرخ اليهـودى الفريسى : (إن الفريسيين قد سلموا الشعب وصايا وفرائض تسلموها من الآباء ، وليست مما جاء فى شريعة موسى)[2] .

ومن المثير حقاً ألا يجد القارئ فى شريعة موسى حديثاً عن الصلاة ، إلا أن الضرورة إلى خدمة الكاهن ـ كما يقول السيـد أمير على ـ قد مالت لتجعل من الدعاء وسيلة ميكانيكية لا روح فيها ولا خشوع .

وقد خلت التوراة كذلك من الحديث عن الصـوم ، وكان الأسينيون ـ نتيجة اتصالهم الوثيق بالفيثاغوريين ـ هم الطائفة اليهودية الأولى التى استطاعت أن تدرك العنصر الأخلاقى فى مبدأ الصوم[3] .

لكن الدكتور فؤاد حسنين على يرى أنه كانت هناك صلاة ، كوسيلة ملزمة لله لتأدية عمل من الأعمال ، فهى من بقايا عصور السحر والتعاويذ ،

(١) قصة الحضارة ـ مج١ ـ جـ ٢ ـ ص ٤٣٥ .
(٢) القس منسّى يوحنا ـ شمس البر ـ مطبعة الأمانة بالقاهرة ـ ص ٤٢ .
(٣) أمير على ـ روح الإسلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦١ ـ ص ١٩٠ / ١٩٦ .

والنظر إلى الخالق نظرة الساحر ، ولهذا كان المصلى يضع رأسه بين ركبتيه ، أو يرفع يديه إلى أعلى ، أو يرمى السهام فى اتجاه خاص ، أو يدقّ بالهاون على الأرض ، أو يجرح نفسه ، ويدعو أدعية يتطلب تنفيذها قوى فوق قوى البشر ، كأن يطلب مطر السماء ، وخصوبة الأرض ، ووفرة المحصـول .

ثم تطور مفهوم الصلاة من خلال المزامير ، فامتازت بالتركيز على أن الله لا يحده زمان أو مكان ، وهو إله جميع الشعوب ، لا إسرائيل فحسب ، كما تميزت باعتراف المصلى بذنوبه وخطاياه .

ثم اختفت الطقوس القديمة ، وحلت محلها طقوس تقوم على تلاوة بعض آيات العهد القديم ، مع العناية بترتيلها ، وتجويد النطق بها ، مع تحديد لإقامة الصلاة فى الصباح والظهر والمساء[1] .

* * *

تقول الوصايـــــا :

(أكرم أباك وأمك ، لكى تطول أيامك على الأرض التى يُعطيك الرب إلهك .

لا تقتل ، لاتزن ، لا تســـرق

لا تشهد على قريبك شهادة زور

لا تشته بيت قريبـــــــك

لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك .

أما اليوم السابع ففيه سبت للـرب إلهـك ، لا تصنـع عملاً مـا أنت وابـنك وعـبدك وأمتـك وبهيمتـك ونزيلك الذى داخـل أبوابك) ـ (خروج / ٢٠) .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ٧٢ وما بعدها .

نلاحظ جانب الخير فى هذه الوصايا ، لكنه ليس الخير المطلق ، لأن ربط النهى بالقرابة يوحى بإباحة المنهى عنه مع غير الأقرباء .. ثم إن التوقف عن العمل فى يوم السبت مردّه إلى أن الله خلق الخلق فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع ، ولكن أى أيام هذه ؟ .

هل كان زمان الإنسان قبل أن يكون الإنسان ؟ .

هل ثمة دليل على أن يوم السبت هو السابع ؟ .

هل كلمة (سبت) فى غير العربية والعبرية ، ولم يكن موسى يعرف إحداهما ؟ .

وأين السبت فى أيام (الأسبوع) العشرة عند الصينيين ؟ .

وأين السبت فى بلاد نهارها ستة أشهر ؟.

ثم ما علة (الاستراحة) فى اليوم السابع ؟ .

إن الله جل شأنه ـ لا يمكن أن يوصف بالتعب ، وهو القائل فى قرآنه : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مسّنا من لغوب ﴾ [1] .

أليس اللغوب من صفات المخلوق وحده ؟ .

ثم إن أيام الله تختلف عن أيامنا المحددة بطلوع الشمس وغروبها ، إنها مراحل زمنية طويلة تتفق مع مراحل التخلق الكونى الذى اقتضى ملايين السنين ، ومن ثم لا يكون ليوم السبت دلالة إلا على غباء من أخذوا به .

إن الله سبحانه يقول فى قرآنه : ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعُدون** ﴾ [2]

---

(١) ق / ٣٨ .

(٢) الحــج / ٤٧ .

ولعله تشبيه تقريبى قصد به اختلاف التقدير الزمنى فى حساب الله ، فأين أيام الأسبوع من هذا التقدير ؟ .

يقول موريس بوكاى : إن النص اليهودى للتوراة ـ وهو يسبق النص الكهنوتى بعدة قرون ـ لا يشير إلى راحة الله الذى تعب من عمله طيلة الأسبوع [1] .

ومع هذا نجد نصاً يقول : (ولما كان بنو إسرائيل فى البرية وجدوا رجلاً يحتطب حطبا فى يوم السبت ، فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهارون وكل الجماعة ، فوضعوه فى الحرس ، لأنه لم يعلم ماذا يفعل به ، فقال الرب لموسى : قتلاً يقتل الرجل ، يرجم بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ، فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ، ورجموه بحجارة ، فمات ، كما أمر الرب موسى) ـ (عدد / ١٥) .

أهكذا تكون عقوبة رجل فقير يحتطب ليجد قوت يومه ، أو ليصطلى بناره فى الشتاء ، لأنه من شدة الخوف ـ وقد هجم عليه الحرس وساقوه إلى الحرس ـ ذهل وحار ولم يحسن ذكر سبب الاحتطاب ، مع أن حاله تكفى دلالة ؟ .

(لو) أن دعوى يوم السبت صحيحة ، من أجل راحة الرب ، كان الأحرى أن تكون فيه راحة خلقه ، وكيف يرتاح الفقير الجائع دون أن يجد ما يمسك رمقه ؟ وإذا صح أن هذا الفقير رضى لنفسه ألا يستريح ، أيكون عقابه الرجم حتى الموت ؟ .

الحقيقة أن عقوبة (القتل) هى أيسر الوسائل عند المشرّع اليهودى ، كأنه يريد أن (يستريح) من التفكير فى وسائل أخرى .

* * *

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ـ دار المعارف ١٩٧٩ ـ ص ٤٥ .

ولماكانت التشريعات بعامة تحمل فى طواياها بعض عناصر الخير ، فإن تعاليم (موسى) تحمل إلى اليوم قيماً إنسانية راقية ، أثبتها بترتيب ورودهـــا :

(لا تسىء إلى أرملة ولا يتيم) ـ (خروج / ٢٢) .

(لا تقبل خبراً كاذباً ، ولا تضع يدك مع المنافق ، لتكـون شاهـد ظلم ، لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر ، ولا تجب فى دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف ، ولا تحاب مع المسكين فى دعواه ، إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه ، إذا رأيت حمار مبغضيك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلابد أن تحل معه) ـ (خروج / ٢٣) .

(لاتبت أجرة أجيرك عندك إلى الغد) ـ (لاويين / ١٩) .

(لا تشتم الأصم ، وقدام الأعمى لا تجعل معثـرة) ـ (لاوييـن / ١٩) .

(لا ترتكبوا جوراً فى القضاء ، ولاتأخذوا بوجه مسكين ، ولاتحترم وجه كبير ، بالعدل تحكم لقريبك ، لا تسع فى الوشاية بين شعبك ، لا تبغض أخاك فى قلبك ، لا تنتقم ولا تحقـد على أبناء شعبك) ـ (لاويين / ١٩) .

(من آمام الأشيب تقوم ، وتحترم وجه الشيخ) ـ (لاويين/ ١٩) .

(لا يكن متاع رجل على امـرأة ، ولايلبـس رجل ثـوب امـرأة) ـ (تثنية / ٢٢) .

(لا تحرث على ثور وحمار معاً) ـ (تثنية / ٢٢) .

(لا تكـمّ الثـــور فـى دراسـة) ـ (تثنية / ٢٥) .

* * *

وتضع (التوراة) أسساً صالحة للتعامل الإنسانى ، بحيث تساعد على تحقيق العدل ، وعلى أن تستلّ الأحقاد والضغائن :

(لايقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما ، أو خطية ما من جميع الخطايا التى يخطىء بها ، على فم شاهدين ، أو على فم ثلاثة شهود ، يقوم الأمر) ـ (تثنية / ١٩) .

(إنْ فَحص القضاة جيداً ، وإذا الشاهد شاهد كاذب ، فافعلوا به كما نوَى أن يفعل بأخيه) ـ (تثنية / ٢٣) .

(إذا أقرضت صاحبك قرضاً ما ، فلا تدخل بيته لكى ترتهـن رهناً منه ، فى الخارج تقف ، والرجل الذى تقرضه يخرج إليك الرهن إلى الخارج) ـ (تثنية / ٢٤) .

(إذا ارتهنت ثوب صاحبك ، فإلى غروب الشمس ترده إليه ، لأنه وحده غطاؤه) ـ (خروج / ٢٢) .

(لا تأخذ رشوة ، لأن الرشوة تُعمى المبصرين ، وتعـوج كلام الأبرار) ـ (خروج / ٢٣) .

(لا يكن لك فى كيسك أوزان مختلفة ، كبيرة وصغيرة ، ولا يكن لك فى بيتك مكاييل مختلفة ، كبيرة وصغيرة) ـ (تثنية / ٢٤) .

(إذا حصدت حصيدك فى حقلك ، ونسيت حزمة فى الحقل، فلا ترجع لتأخذها ، للغريب واليتيم والأرملة تكون) ـ (تثنية / ٥) .

(إذا دخلت كرم صاحبك فكُلْ عنباً ، حسب شهوة نفسك ، شَبعتـك ، ولكن فى وعاء لا تأخذ ، إذا دخلت زرع صاحبك فاقطف سنابل بيدك ، ولكن منجلاً لا ترفـع على زرع صاحبـك) ـ (تثنية / ٢٣) .

** لكن ، مع هذه المثالية ، فإن بعض التعليمات ـ وبخاصة فيما يتصل بالنجاسة والطهارة ـ تثير أكثر من تساؤل ، فمثلاً :

(المرأة التى يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ، ويكونان نجسين إلى المساء) ـ (لاويين / ١٥) .

(إذا مات إنسان فى خيمة ، فكل من دخل الخيمة ، وكل من كان فى الخيمة ، يكون نجساً سبعة أيام) .

(وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه ينجس) .

(وكل من مسّ على وجه الصحراء قتيلاً بالسيف ، أو ميتاً ، أو عظم إنسان ، أو قبراً ، يكون نجساً سبعة أيام) .

(فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبح الخطية ، ويجعل عليه ماء حيّا فى إناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفاً ، ويغمسها فى الماء ، وينضح على الخيمة ، وعلى جميع الأمتعة ، وعلى الأنفس الذين كانوا هناك ، وعلى الذى مسّ العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ، ينضح الطاهر على النجس فى اليوم الثالث واليوم السابع ، ويطهره فى اليوم السابع ، فيغسل ثيابه ، يرحض بماء ، فيكون طاهراً فى المساء ، وأما الإنسان الذى يتنجس ولا يتطهر ، فتباد تلك النفس من بين الجماعة ، وكل ما مسّه النجس ينجس ، والنفس التى تمس تكون نجسة إلى المساء) ـ (عدد / ١٩) .

(كل فراش يضطجع الذى له السّيل يكون نجساً ، وكل متاع يجلس عليه يكون نجساً ، ومن مسّ فراشه يغسل ثيابه ويستحم بماء ، ويكون نجساً إلى المساء .

(وإذا طَهُر ذو السيل من سيله يحسب له سبعة أيام لطهره ، ويغسل ثيابه ، ويرحض جسده بماء فيطهر ، وفى اليوم الثامن يأخذ لنفسه يمامتين أو فرخى حمام ، ويأتى إلى أمام الرب ، إلى باب خيمة الاجتماع ،

ويعطيهما للكاهن ، فيعملها الكاهنُ الواحدَ ذبيحة خطية ، والآخر محرقة ، ويكفر عنه الكاهن أمام الرب من سيّله) ـ (لاويين / ١٥) .

أما الأبرص فيأمر (الكاهن أن يؤخذ للتطهير عصفوران حيان طاهران وخشب أرز وقرمز وزوفاً ، ويأمر الكاهن أن يذبح العصفور الواحد فى إناء خزف على ماء حى ، أما العصفور الحى فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسه مع العصفور الحى فى دم العصفور المذبوح على الماء الحى ، وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره ، ثم يطلق العصفور الحى على وجه الصحراء ، فيغسل المتطهر ثيابه ، ويحلق كل شعره ، ويستحم بماء فيطهر ، ثم يدخل المحلة ، لكى يقيم خارج خيمته سبعة أيام ، وفى اليوم السابع يحلق كل شعر رأسه ولحيته وحواجب عينيه ، وجميع شعره يحلق ، ويغسل ثيابه ، ويرحض جسده بماء فيطهر ، ثم فى اليوم الثامن يأخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة ، حولية صحيحة ، وثلاثة أعشار دقيق تقدمة ملتوتة بزيت ... إلخ) ـ (لاويين / ١٤) .

ما الهدف من هذا العبث الذى لانجده إلا وسيلة الدجالين الذين يدعون العلاقة بالجن ، أو يزعمون السحر ، ليستولوا على أموال المخدوعين ؟

وإن كان هؤلاء الدجّالون لا يجرءون على نسبة هذا العبث إلى الله ، فكيف بالكهنة ـ يصدقهم ملايين اليهود والمسيحيين فى عصر الفضاء والعلاج بالذرة وأشعة الليزر ـ يجعلونه شريعة سماوية ، وأوامر من الرب ؟!

ومن الغريب أن موضوع البرص يشغل من شريعة الله ثلاثة أصحاحات فى سبع صفحات ، وادّعوا أن هناك برصاً فى الثياب ، يستدعى حرق مكانه من الثوب ـ (لاويين / ١٣) ـ وبرصاً فى الجدران يستدعى هدم البيت ، حجارته وأخشابه وكل تراب البيت ، ويخرجها إلى خارج المدينة ، إلى مكان نجس ـ (لاويين / ١٤) ـ أى إلى مقبرة ، أو إلى حيث الشعوب

الأخرى ، كما يفعل اليوم بالنفايات السامة !! .

ولم يقتصر الأمر على الموتى والمرضى ، بل الأحياء الأصحاء أيضاً !! .

فكل من مسّ جثة حيوان لا يؤكل ـ والحيونات التى لا تؤكل هى كل ما لا يجمع بين الاجترار وشق الظلف ، ومن ذلك الجمل والحصان والحمار والأرنب[1]، مع أن الحمار كان وسيلتهم الرئيسية فى الانتقال ، ثم عرفوا الجمل ـ (يكون نجساً إلى المساء ، ومن حمل جثتها يغسل ثيابه ، ويكون نجساً إلى المساء) ـ (لاويين / ١١) .

(وكل قاع خزف وقع فيه منها ، فكل ما فيه يتنجس ، وأما هو فتكسرونه) .

(التنور والموقد يهدمان) ـ (لاويين / ١١) .

وتسـأل : لماذا تظل النجاسة حتى المساء ؟ .

ولماذا يكسر الوعاء الخزفى ، ولا يكفى معه الغسيل ؟ . مع أن جودة صنعه قد تختفى معها المسام ، فضلاً على أنه يطلى بطلاء أملس من قبل العصر الموسوى ، ثم ألا تُطهّر النار التنور والموقد ؟ .

وما سبب نجاسة الحيوان الذى لا يؤكل ؟ .

ألا تكون الحكمة فى النهى عن أكله صعوبة هضمه ، أو التقزز من شكله ، أو الخوف منه ، أو الاستفادة بقوته فيما هو أنفع من أكله ، أو أن فى تكوين خلاياه أو بعضها ما يسبب أمراضاً ، أو ما يزيد فى خطورتها ؟ .

ومن ثم لا تكون النجاسة سبب الامتناع عن أكله !! .

---

(١) تقول الآية الكريمة . ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ . [الأنعام : ١٤٦] .

ولماذا يفرق بين الذكر والأنثى فيما (إذا حبلت المرأة وولدت ذكراً ، تكون نجسة سبعة أيام ، كما فى أيام طمث علّتها تكون نجسة ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها .. وإن ولدتَ أنثى تكون نجسة أسبوعين، كما فى طمثها ، ثم تقيم ستة وستين يوماً فى دم تطهيرها) ـ (لاويين / ١٢) .

هل تختلف أيام الطمث مع المرأة الواحدة باختلاف ما تلد ؟! .

* * *

وقد قدمت (التوراة) صوراً من العقوبات المادية يمكن أن تكون وسيلة إلى حماية الحقوق :

(إذا رعى إنسان حقلاً أو كرماً ، وسرح مواشيه فرعت فى حقل غيره ، فمن أجود حقله وأكرمه يعوض) .

(إذا خرجت نار وأصابت شوكاً فاحترقت أكداس أو زرع أو حقل ، فالذى أوقد الوقيد يعوض) .

(إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرقت من بيت الإنسان ، فإن وجد السارق يعوض باثنين ، وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم ، هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه) ؟ .

(فى كل دعوى جناية ـ من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو مفقود ، يقال إن هذا هو ـ تقدم إلى الله دعواهما ، فالذى يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه باثنين) .

(إذا أعطى إنسان صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاةً أو بهيمة ما للحفظ، فمات أو انكسر أو نهب ، وليس ناظر ، فيمين الرب تكون بينهما ، هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه ، فيقبل صاحبه ، فلا يعوض .. وإن سرق من عنده يعوض صاحبه) .

(وإذا استعار إنسان من صاحبه شيئاً فانكسر أو مات ، وصاحبه ليس معه ، يعوض ، وإن كان صاحبه معه لا يعوض) _ (خروج /٢٢).

(إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه ، أو باعه ، يعوض عن الثور بخمسة ثيران ، وعن الشاة بأربعة من الغنم) .

(إن وجد السارق وهو ينقب ، فضرب ومات ، فليس له دم ، ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم ، إنه يعوض ، إن لم يكن يبع بسرقتــه ، إن وجدت السرقة في يده حية ، ثوراً كانت أم حمارا أو شاة ، يعوض باثنين) _ (خروج / ٢٢) .

يؤخذ على هذه العقوبات أنها تتحدث عن التعويض ، دون بيان ما إذا كان المتعدى لا يملك ما يعوض به ، كما أن التعويض لا يلتزم قاعدة مطردة ، فهو تارة المثْل ، وتارة الضعف ، وقد يصل إلى خمسة أضعاف ، مع أن (التكييف القانونى) متشابه ، ومع أن هذه الأحكام جميعاً واردة فى مكان واحد (خروج /٢٢) ، هذا إلى أن الأحكام ترتبط بحالات لا بكل الحالات .

وهناك عقوبات على حالات يعوزها (التكييف القانــونى) ، كما إذا (لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه) _ الذى مات _ زوجة له ، لأنه كره عشرتها لأخيه ، أو أنفت نفسه أن يبيت فى فراش أخيه ، أو لم تكن بحيث تحقق رغبته فى المرأة .. فما جريمته حتى (تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله ، وتبصق فى وجهه ، وتصرخ وتقول : هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه) _ (تثنية /٢٥) _ أليس _ إذا جرؤت على فعـل هـذا _ تكون قد برهنت على صواب رأيه فيها ؟! .

* * *

أما بالنسبــة لجريمة القتــل ، فالأصـل (لا تقتـل البرىء والبـار) _ (تثنية / ١٩) _ وإذا حدث العدوان فـ (لا تشفق عينك ، نفس بنفس ، عين بعين ، سنّ بسنّ ، يد بيد ، رجل برجل) _ (تثنيــة / ١٩) .

قصاص عادل ، : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾[1] . وإن كنا نجد فى قصة (قايين) أن الله عفــا عنــه بعــد أن قتـل أخـاه هابيــل ، وجعــل له (علامة ، لكيلا يقتله كل من وجده) _ (تكوين / ٤) .

لعله لونٌ من التطور فى التشريع ، أو لعلها حالة خاصة بأول جريمة قتــل .

(كل من قتل نفساً فعلى فم شهود يقتل القاتل ، وشاهد واحد لا يشهد على نفس للموت ، ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتــل المذنب للمـوت ، بل إنه يقتل) _ (عدد / ٣٥) .

حكم صارم ، لا يشوبه إلا أن (ولى الدم يقتـل القـاتل ، حــين يصادفـه) _ (عدد / ٣٥) _ مما يساعد على مزيد من القتلى ، لأنه يأخذ طابع الثأر ، لا عدالة القصاص ، وإن كنا نجد فى سفر (خروج) أن الكهنة هم الذين يتولون القصاص ، (فمن عند مذبحى تأخذه للموت) _ (خروج / ٢) _ مما يفيد أن ثمة من حرّف الكلم عن مواضعه ، دون إدراك لخطورة التحريف .

وفى حالة الخطأ : (إن دفعه بغتة بلا عداوة ، أو ألقى عليه أداة ما دون تعمّد ، أو حجراً مما يقتل به ، بلا رؤية ، أسقطه عليه فمات ، وهو ليس عدواً له ، ولا طالباً أذيته ، تقضى الجماعة بين القاتل وبين ولى الدم ، وتنقذ الجماعة القاتل من ولى الدم ، وترده الجماعة إلى مدينة ملجئه التى هرب إليها ، فيقيم هناك إلى موت الكاهن العظيم الذى مسح بالدهن المقدس ، لكن .. إن وجده ولى الدم خارج حدود مدينة ملجئه ، وقتل ولى

(١) البقــــرة / ١٧٩ .

الدم القاتل ، فليس له دم) ـ (عدد / ٣٥) .

الحكم هنا اختلط فيه العدل بالجور ، فقضاء الجماعة بين القاتل وولى الدم قد يصل إلى دية مرضية ، وإبعاد القاتل علاج نفسى يدعمه الحزن العظيم على الكاهن العظيم ، أمّا أن يلتقى ولى الدم بعد ذلك بالقاتل فيقتله دون عقاب فأمر بعيد من العدالة ، لا يعين على وقف إراقة الدماء .

(وإذا تخاصم رجلان ، فضرب أحدهما الآخر بحجر ، أو بلكمة ، ولم يقتل ، بل سقط فى الفراش ، فإن قام وتمشى خارجاً على عكازه يكون الضارب بريئاً ، إلا أنه يعوض عطلته ، وينفق على شفائه) .

(وإذا تخاصم رجال ، وصدموا امرأة حبلى ، فسقط ولدها ، ولم تحصل أذية ، يغرم ، كما يضع عليه زوج المرأة ، ويدفع عن يد القضاة ، وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس) ـ (خروج / ٢١) .

ولا يشوب العدالة هنا إلا أن زوج المعتدى عليها هو الذى يقدر الغرامة ، ثم كيف وقد حصلت الأذية خطأ تعطَى نفس بنفس ، وأى نفس ، وقد اشتركت الجماعة فى الخطأ ؟ .

(وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل ، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً ، ولكن إن كان ثور نطاحاً من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ، ولم يضبطه ، فقتل رجلاً أو امرأة ، فالثور يرجم ، وصاحبه أيضاً يقتل) .

(وإذا فتح إنسان بئراً ، أو حفر إنسان بئراً ، ولم يغطه ، فوقع فيه ثور أو حمار ، فصاحب البئر يعوّض ، ويرد فضة لصاحبه ، والميت يكون له) .

(وإذا نطح ثور إنسان ثور صاحبه فمات ، يبيعان الثور الحى ، ويقتسمان ثمنه ، والميت أيضاً يقتسمانه ، لكن إذا علم أنه ثور نطّاح من قبل ، ولم يضبطه صاحبه يعوض عن الثور بثور ، والميت يكون له) ـ (خروج /٢١) .

المشرع هنا أدخل العامل النفسى فى الحسبان ، فأمر برجم الثور القاتل ، دون ذبحه والانتفاع بلحمه ، لكنه نسى ما جاء فى النجاسات عن (الميت) ، فأجاز امتلاكه واقتسامه ، ولا يكون هذا إلا فى حالة الانتفاع بجلده وقرونه وذيله ، واتخاذ لحمه طعاماً لكلابه ، أو سمادا لبستانه !! .

وتجاوز فى (من سرق إنساناً وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلاً) ـ (خروج / ٢١) .

على فرض أن سرقة الإنسان قتل معنوى ، فإن العقاب بالقتل مغالىً فيه ، وبخاصة أن المسروق قد يردّ إلى أهله بعد تنفيذ العقاب ، ثم إن الاتهام بسرقة إنسان يخضع لاعتبارات كثيرة ، كما هو الحال مع الجان والتابعة ، فأى مرض نفسى سيكون علاجه الرجم حتى الموت ، كما أن ارتحال إنسان مع آخر ـ لسبب ما غير السرقة ـ قد يعدّ سرقة ، لهذا ينبغى (تكييف) وتوصيف مفهوم السرقة ، والهدف من ورائها ، فالسرقة للتبنى غير السرقة للتسخير ، غير السرقة لطلب فدية ، أو للانتقام .

ثم إن هذا التشدد فى العقاب يُورد تساؤلاً :

إذا كان (كل إنسان بخطيته يقتل) ـ (تثنية / ٢٤) ـ فما الحكم فيما أورد (سفر صموئيل الثانى) عن داود عليه السلام ، الذى تآمر على أوريا الحثي وقتله حتى يظفر بزوجته ؟ وداود فى ذلك الحين هو الملك الحاكم الذى يحق الحق ويبطل الباطل .. وكيف يقتل أبشالوم بن داود أخاه أمنون ، ويكون للملك الحاكم حق العفو عن القاتل ، وإبطال أحكام الشرع ؟ (صموئيل الثانى / ١١ / ١٤) .

ثم كيف تقول الشريعة : (لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل

الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيته يقتل) ـ (تثنية / ٢٤) ـ مع أن الرب (إله غيور) يقول : (أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فى الجيل الثالث والرابع من مبغضىّ) ـ (خروج / ٢٠) .

أنصدّق التوراة أم نصدّق حزقيال الذى يقول : (الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون) ـ (حزقيال / ١٨) .

إن تاريخ بنى إسرائيل حافل بالقتل الجماعى ، رجالاً ونساءً وأطفالاً وبهائم وكل نسمة حية ، إذا حمى غضب الرب ، أو حمى غضب أحد أنبيائه ، أو قائد من قادته ، فأين هذا من التشريع ؟! .

* * *

يستتبع القولَ فى القتل الإشارةُ إلى ما قالته (التوراة) فى الرق ، إذ إن الرق قتل معنوى . ومما قالته إن الاستعباد جائز حتى للأحرار ، فمن الممكن أن يبيع الرجل ابنته أمَـة ـ (خروج ٢١) ـ وإذا افتقر المرء يمكن أن يبيع نفسه ـ (لاويين / ٢٥) ـ لكن أحكام العبيد بعامة تجنح إلى الـرفق والخير .

(إذا افتقر أخوك عندك ، وبيع لك ، فلا تستعبده استعباد عبد ، كأجير ، كنزيل ، يكون عندك) ـ (لاويين / ٢٥) .

(إذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته ، فأتلفها ، يطلقه حراً عوضاً عن عينه ، وإن أسقط سن عبده أو سن أمته ، يطلقه حراً عوضاً عن سنه) ـ (خروج / ٢١) .

(إن نطح الثور عبداً أو أمة يعطى سيده ثلاثين شاقل فضة ، والثور يرجم) ـ (خروج / ٢١) .

(عبداً أبق إليك من مولاه لا تسلم إلى مولاه ، عندك يقيم فى

وسطك ، فى المكان الذى يختاره ، فى أحد أبوابك ، حيث يطيب له ، لا تظلمه) ـ (تثنية / ٢٣) .

قد يجر الحكم الأخير متاعب كثيرة ، وإن كانت انطباعة الخير فيه قوية ، لكنه عدوان على (المال) الخاص .

(إذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد ، إن قبحت فى عين سيدها الذى خطبها لنفسه يدعها تفكّ ، وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب ، لغدره بها ، وإن خطبها لابنه فبحسب حق البنات يفعل لها ، إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها ، وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج بلا ثمن) ـ (خروج / ٢١) .

نقص الطعام والكسوة والمعاشرة أمر نسبى ، لا تسهل إقامة الحجة فيه على الإدانة .

وثمة أكثر من مأخذ فيما إذا أعطى السيد عبده (امرأة ، وولدت له بنين أو بنات ، فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ، وهو يخرج وحده) ، بعد سبع سنين خدمة ـ (خروج / ٢١) .

** وعيب هذه التشريعات جميعاً أنها خاصة بالعبرانى ، أما غير العبرانى فلا حقوق له ، لأنه إما أن يقتل أو يطرد ، ومن استبقى فهو عبد إلى الأبد :

(وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونـون لك ، فمـن الشعب الذى حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماء ، وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم ، منهم تقتنون ، ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم فى أرضكم ، فيكونون ملكاً لكم ، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك) ـ (لاويين / ٢٥).

** وكان اهتمام (التوراة) بالأعراض شديداً :

من يقرأ الأصحاح الثامن عشر من سفر (لاويين) يجد صورة تكاد تكون مطابقة لما أورد القرآن الكريم فى سورة النساء عن المحارم ، وإن كانت لم تجعل الرضاعة من أسباب التحريم ، كما أنها تحرّم الزواج من زوجة الأخ إذا أنجبت منه ، ومن زوجة العم ، ولم تحدد عدد الزوجات .

أما ما جاء فى سورة النور من عقاب المعتدين على المحارم فإن روح التشريع واحدة ، متمثلة فى :

(لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى ، لئلا تزنى الأرض ، وتمتلئ الأرض رذيلة) _ (لاويين / ١٩) .

(إذا اضطجع رجل مع امرأة طامث ، وكشف عورتها ، عرّى ينبوعها ، وكشفت هى ينبوع دمها ، يقطعان كلاهما من شعبهما) _ (لاويين / ٢٠) .

(إذا راود رجل عذراء لم تخطب ، فاضطجع معها : يمهرها لنفسه زوجة .. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر عذراء) _ (خروج / ٢٢) _ وزاد فى مكان آخر أنه إذا تزوجها (لا يقدر أن يطلقها كل أيامه) _ (تثنية / ٢٢) .

(إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل فى المدينة ، واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة ، وارجموهما بالحجارة ، حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذلّ امرأة صاحبه .. ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة فى الحقل ، وأمسكها الرجل واضطجع معها ، يموت الرجل الذى اضطجع معها وحده) ، لأنه (لم يكن من يخلصها) _ (تثنية/٢٢) .

(وإذا اتخذ رجل امرأةً زوجاً ، وحين دخل عليها أبغضها ، ونسب

إليها أسباب كلام ، وقال : هذه المرأة اتخذتها ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة ، يأخذ الفتاة أبوها وأمها ، ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة ، فيأخذ شيوخ تلك المدينة الرجل ويؤدبونه ، ويغرمونه بمائة من الفضة يعطونها لأبى الفتاة ، وتكون له زوجة ، لا يقدر أن يطلقها كل أيامه .. ولكن إذا كان هذا الأمر صحيحاً ، لم توجد عذرة للفتاة ، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها وأمها ، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت) _ (تثنية / ٢٢) .

(إذا اضطجع رجل مع امرأة اضطجاع زرع ، وهى أمة مخطوبة لرجل ، ولم تفد فداء ، ولا أعطيت حريتها ، فليكن تأديب ، ولا يقتلا ، لأنها لم تعتق ، ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه ، كبشا ذبيحة إثم ، فيصفح له عن خطيئته التى أخطأ) _ (لاويين / ١٩) .

وفى هذه المسألة نظر ، لأن العقاب يقتصر على فائدة الكهنة ، دون مراعاة صاحب الأمة المخطوبة ، ومصير هذه الأمة بعد فعلتها ، وما إذا كانت هذه الفعلة ستعقب حملاً .

وفى الحالتين الآتيتين نجد مغالاة فى العقاب :

(إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً ، إنهما يقتلان) .

(إذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها) _ (لاويين / ٢٠) .

** وإذا كان مردّ هذه المغالاة إلى الغيرة الشديدة على العرض ، لدرجة أن المرأة لا ينبغى أن تقف (أمام بهيمة لنزائها ، إنه فاحشة) _ (لاويين / ١٨) _ فإن هذه الغيرة تستدعى مساءلة أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى تاريخهم ، فجعلوا إبراهيم يتزوج سارة أخته ، (بالحقيقة أيضاً

هى أختى ، ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى) ـ (تكوين / ٢٠) ـ فكأنه زنى بها على وفق ما جاء فى الأصحاح الثامن عشر من سفر لاويين ، إلا إذا كانت شريعة إبراهيم تختلف عن شريعة موسى ، ثم عرّضها للزنا ، حين أنكر أنها زوجته ، حماية لنفسه ، وطمعاً فى الخير ، فكادت تقع تحت أبيمالك ملك جرار تارة ـ (تكوين / ٢٠) ـ وتحت فرعون أخرى ـ (تكوين / ١٢) .

وجعلوا لوطاً يستولد بنتيه الموابيين والعمونيين جميعاً ـ (تكوين /١٩) .

وزنىَ رأوبين بن يعقوب البكر ببلهة زوجة أبيه وأم أخويه دان ونفتالى ، وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب ـ (تكوين / ٣٥) .

واستولد يهوذا بن يعقوب ثامار زوجة ابنه البكر ولديها : فارص وزارح ـ (تكوين / ٣٨) .

ونسبوا إلى داود أنه اضطجع مع بشثبع بنت أليعام ، امرأة أوريا الحثى ، وهى مطهرة من طمثها ، فحبلت ـ (صموئيل الثانى / ١١) .

وجعلوا أمنون بن داود يعشق أخته ثامار ، ويحتال حتى يخلو بها ، ويضطجع معها ـ (صموئيل الثانى / ١٣) .

ثم يورد هوشع أمراً من الله : (اذهب خذ لنفسك امرأة زنا وأولاد زنا) (هوشع / ١) .

أما كان ينبغى ألا يجرؤ (شرير) على الأنبياء ، وأبنائهم بهذا العبث ؟! .

أما كان ينبغى أن يبرأ كهنة (الكتاب المقدس) وقراؤه من هذا العبث ، فيحذف منه ، بدلاً من أن يظل يحمل طابع القداسة ، ويتعبد بتلاوته ؟! .

وقد يقول قائل : إنها وسيلة تخفيف وزر ما انتشر من آثام فى المجتمع اليهودى ، نتيجة الاحتكاك بالمجتمع الكنعانى والفينيقى الذى نشأت فيه ممارسة البغاء المقدس مع عبادة الإلهة عشتار ، فكانت (بغايا المعبد) ، كما جاء فى (حزقيال / ٨ / ١٤) ـ (وميخا / ١ / ٧) .

لكن هذه المحاولة لاتبين ما إذا كان الهدف توسيع دائرة البغاء ، أو تيسير السبيل أمام التوبة ، والعودة إلى الجادّة والصراط القويم .

وإن كان هناك من يربط بين البغاء والأسر الطويل ، حتى اختلط الزرع المقدس بغيره ، أو قل إنه فسد ، فإن وسيلة الخلاص والتطهير لاتكون بالنيل من الأنبياء ، على أى اعتبار !! .

ولو أنه قيل إن الشدة فى حماية الأعراض لون من احترام المرأة وصيانتها ، تلك المرأة التى خلقها الله من جزء من جسم آدم ، لتكون (تابعة) له ، ولتكون سبب تعاسته ، فتخرجه من الجنة ـ فإن التشريع الوارد فى (التوراة) يحرم المرأة من ميراث زوجها ، وكل مالها بعد موته هو مؤخر الصداق ، على حين كل مالها يئول إلى زوجها ، ومنه إلى ورثته .

قد نرى التاريخ اليهودى يبجّل المرأة فى صورة سارة وراحيل ومريم وأستير وراعوث ، وكانت (دبورة) من قضاة إسرائيل ، كما يعترف التاريخ اليهودى بعدد من النبيّات ، وكانت النبية (خلدة) هى التى استشارها يوشيا فى أمر الكتاب الذى وجده الكهنة فى الهيكل .. ويحدثنا الأصحاح الأخير من سفر الأمثال عن المرأة المثالية بقوله :

(امرأة فاضلة من يجدها ، لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيرا لا شرا كل أيام حياتها ، تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين ، هى كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد ، وتقوم إذ الليل بعد وتعطى أكلاً لأهل بيتها وفريضة

لفتياتها ، تتأمل حقلاً فتأخذه ، وبثمر يديها تغرس كرْما ، تُمنطق حقويها بالقوة ، وتشدّد ذراعيها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لاينطفيء فى الليـل ، تمد يديها إلى المغزل ، وتمسك كفاها بالفلكة ، تبسط كفيها للفقير ، وتمد يديها إلى المسكين ، لا تخش على بيتها من الثلج ، لأن كل أهل بيتها لابسون حللاً ، تعمل لنفسها موشيّات ، لبسها بوص وأرجوان ، زوجها معروف فى الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قمصاناً وتبيعها ، وتعرض مناطق على الكنعانى ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتى ، تفتح فمها بالحكمة ، وفى لسانها سنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ، ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطوّبونها ، ويقوم زوجها أيضاً ليمدحها) .

قطعة أدبية رائعة ، لكنها تمثل الشوق إلى المجهول ، والرغبة فى تحقيق ماليس بواقع ، بدليل قوله فى بداية الأصحاح :

(لاتعط حيْلك للنساء ، ولا طرقك لمهلكات الملوك) ، ويقول صاحب الجامعة: (أمرّ من الموت المرأة التى هى شباك ، وقلبها أشواك ، ويداها قيود) ـ (الجامعة ٧) .

ثم إن ظهور شخصيات نسائية معدودة على مدى تاريخ طويل لا يعنى احترام المرأة ، والتاريخ العربى الجاهلى شاهد على ذلك .

ولما كان القانون لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبيات اللائى تضاعف عددهن فى أورشليم ، حتى كان الهيكل نفسه ـ فى أيام المكابيين ـ ماخوراً للفسق والفجور ، فإن الزنا من أخطر الأمراض سريعة الانتشار ، ومن هنا التقت المغالاة (القانونية) فى العقوبة مع الاتهام الشنيع للأنبياء ، حتى تتحقق المعادلة ، وتكون المصالحة النفسية مع شعب أرهقته العلل والأمراض الاجتماعية .

يقول ول ديورانت فى الوصايا العشر : (من واجبنا أن نذكر أنها كانت « طوبى كهنونية » ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية ، وكانت ككل القوانين تعظم فى عين أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها) (١) .

* * *

** وأخيراً .. فصاحب هذه الشريعة المثلى لا بد أن يكون وحده المختص بالعبادة .

(لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) .

لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة ما مما فى السمـاء من فـوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض .

لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن .

لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً) ـ (خروج / ٢٠) .

(من جدّف على اسم الرب فإنه يقتل ، يرجمه كل الجماعة رجماً) (لاويين / ٢٤) .

وماذا فى هذا العبث المنسوب إلى الرب ؟ أليس إقرار العبث المنسوب إلى الرب تجديفاً ؟! .

أليس العبث المنسوب إلى رسل الرب تجديفاً ؟! .

أليس البيت (الإلهى) المصنوع من الذهب وثنية وتجديفاً ؟! .

وماذا فى تجسيد الرب ووصفه بصفات البشر ؟! .

إذا كان الكتاب المقدس ما يزال إلى يومنا هذا يدّعى أن سليمان

(١) قصة الحضارة ـ مج ١ـ جـ ٢ ص ٣٨٣ / ٣٨٤ .

الحكيم تزوج سبعمائة امرأة غير السرارى ، وعبد آلهة نسائه ، فماذا تنتظر من البسطاء والمخدوعين ؟! .

إن اليهود لم يكتفوا بهذا ، بل تجاوزوا فارتفعوا بموسى فوق البشرية ، ومن بعده عزرا .

يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودى المعروف : (إن تقديس اليهود لموسى بلغ حداً بعيداً للغاية ، وقد حوّلوا هذا التوقير فيما بعد إلى عزرا الذى استرد الحياة القومية لليهود فى عهد أسرة كيانيان) (١) .

وهـذا ما تستنكره الآية القرآنية : ﴿ **وقالت اليهود عُزَيْر ابن الله** ﴾ (٢) .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن الجماهير اليهودية لم تترك عبادة التيرافيم ، وهى عبارة عن آلهة كانوا يحتفظون بها فى بيوتهم ، قد صنعوها على شكل بنى البشر ، وكانوا يستشيرون هذه الآلهة فى كل المناسبات ، على اعتبار أنها آلهتهم الخاصة التى تتلقى الوحى من الله ، وربما اعتبروا هذه التيرافيم أكثر من ذلك ، فيصفونها بأنها حارسة المعابد ـ (عزرا / ٧) .

ولا عجب ، فاليهود كانوا بدواً رحّلاً يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال ، ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، وكانت الأفعى حيواناً مقدساً ، لأنها رمز الذكورة والخصوبة ، وظلت المعتقدات السحرية إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة .

وبمجرد تسللهم إلى أرض كنعان أقبلوا بكل جوارحهم على العقائد الكنعانية ، واكتسب (يهوه) صفات (بعل) ، وظل البكاء على

(١) روح الإسلام ـ ص ١٦١ .
(٢) التوبة / ٣٠ .

(تموز) يتردد فى جوانب الهيكل حتى عهد حزقيال ، فلما تركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم أمسى (يهوه) إله اليهود الذى يعلو على آلهة غيرهم من الشعوب ، ولكن فى إطار سياسى فقط ، أما فى واقع الشعب فقد كانت كثير من المعتقدات القديمة تتحرك حتى فى بيت سليمان النبى وفى بيوت ورثتـه .

فلما كان السبى البابلى اكتسبت العقيدة اليهودية الكثير من الديانة الفارسية .

ثم لما كان الاتصال بالفلسفة اليونانية طوّعوا ديانتهم للفلسفة ، مما يفيد أن عقيدتهم تتطور بتطور احتياجاتهم ، مع المحافظة الأساسية على مفهوم أنهم يمثلون (مملكة الله) التى ستكون لها السيادة العالمية فى يوم ما .

ومع ازدياد نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية ، فإن عقول العبرانيين لم تتحرر من الخرافات والأوهام ، ومن عبادة الأوثان ، (بل ظلت قُلل التلال والحراج مأوى للآلهة الأجنبية ، ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلّت أقلية من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية أو تقيم الأنصاب وتحرق البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبى ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية) (١) .

وفى سفر هوشع ما يفيد أن العبريين القدماء كانوا يقدسون شجرة البلوط ، فهو ينكر عليهم أنهم (يذبحون على رءوس الجبال ، وينحرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم ، لأن ظلها حسن) ـ (أصحاح / ٤) .

والنبى حزقيال يعلن على لسان الرب : (إذا كانت قتلاهم وسط

(١) قصة الحضارة ـ مج ١ ـ جـ ٢ ص ٣٤٦ .

أصنامهم حول مذابحهم على كل أكمة عالية ، وفى رءوس كل الجبال ، وتحت كل شجرة خضراء ، وتحت كل بلوطة غبياء الموضع الذى قربوا فيه رائحة سرور لكل أصنامهم) ـ (أصحاح / ٦) .

ومع هذا الإنكار فإن أول ظهور (يهوه) لإبراهيم كان عند شجرة بلوط ، أو عند شجرة التربنتين ، كانت تنمو عند (شكيم) ، وتعد مكاناً للنبوءة ، وهناك ابتنى إبراهيم معبداً ـ (تكوين / ٢ ـ ٣) .

وهناك فى هذا المكان بجانب شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى (ممرا) ظهر له الرب فى شكل ثلاثة رجال ، بينما كان يجلس فى خيمته وقت الظهيرة ـ (تكوين / ١٨) .

وفى ظل هذه الشجرة أكل الرب من اللحم وشرب من اللبن الذى قدمه له الشيخ الجليل .

وكذلك ظهر الرب لجدعون ، وجلس تحت هذه الشجرة التى كانت تنمو فى (عفرة) ، وأكل لحم جدى ، وشرب حساءه مع فطير غير مختمر ، ثم اختفى الضيف السماوى ، فبنى جدعون معبداً عند هذا المكان ، كما فعل إبراهيم ـ (القضاه / ٦) وبنى يشوع تحت شجرة البلوط (حجراً) ليكون شاهداً على قومه ، عندما قال لهم : (إن هذا الحجر يكون شاهداً علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به ، فيكون شاهداً عليكم ، لئلا تجحدوا إلهكم) ـ (يشوع / ٢٤) .

وقد دفنت عظام الملك شاءول وعظام أولاده تحت شجرة بلوط ، وعندما توفيت ديبورا وصيفة رفقة دفنت تحت شجرة بلوط فى (بيت أيل) ، من ثم سميت (شجرة البلوط الباكية) (١) .

* * *

(١) الفولكلور فى العهد القديم ـ جـ ٢ ص ١٠٣ .

منَ نافلة القول أن نكرر أن أحكام (الشريعة) جميعها خاصة بالمجتمع اليهودى ، فإذا كانت العلاقة بين يهودى وغيره من الأمميين الأرجاس ، فالأمر يختلف ـ كما جاء فى التلمود ـ وعلى سبيل المثال :

إذا ضرب أُمَمى إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية .

الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود .

لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب ، وليس له أن يطعم غير اليهود .

يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين ، ودنسا مع الدنسين .

لليهودى أن يسرق مال غير اليهودى ، لأنه يسترد أموال اليهود من ساليبها .

على الأمميين أن يعملوا ، ولليهود أن يأخذوا نتائج هذا العمل .

مُصرّح لليهودى أن يغش غير اليهودى ، ويحلف له أيمانا كاذبة .

لا يغفر الله ذنباً ليهودى يَرُدّ للأممى ماله المفقود .

إذا رأى اليهودى أحد الأممين يقع فى حفرة فليسدها بحجر .

من العدل أن يقتل اليهودى كل أممى ، لأنه بذلك يقرب قربانا إلى الله .

إتيان زوجات الأجانب جائز .

الهدف من خلق غير اليهود خدمة اليهود ، وقد منحوا الصورة البشرية ليسهل التعامل معهم (١).

(١) اليهودية ـ ص ٢٧٢ / ٢٧٩ .

ويُلخّص القرآن الكـريم هذا الموقـف كلـه بقوله على لسان اليهود : ﴿ ليس علينا فى الأمين سبيل ﴾ (١).

* * *

هذه هى (الدولة الروحية) التى لا تراها العين إلا من خـلال الآثام ، ولا تلمسها اليد إلا متهيئة للانتقام ، جمعت شمل اليهود ـ رغم تشتتهم ـ بالحقد والضغينة والقدرة على ارتكاب كل الموبقات .

ومع هذا ، فالرسول محمد ـ ﷺ ـ يقول فى معاملتهم هم والمسيحيين : [ألا من ظلم معاهداً ، أو انتقصه من حقه ، أو كلّفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة] ـ رواه أبو داود .

* * *

(١) آل عمران / ٧٥ .

٦ ـ أسطورة .. بل لا معقول !!

بعد الطوفان ، حدّث الرب نوحاً ـ عليه السلام ـ بقوله :

(وضعت قوسى فى السحاب ، فتكون علامة ميثاق بينى وبـين الأرض ، ويكون متى أنشر سحاباً على الأرض ، وتظهر القوس فى السحاب ، أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد ، فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذى جسد) ـ (تكوين / ٩) .

التاريخ يحدث بأكثر من طوفان غير طوفان نوح ، ومع أن قوس قزح كثيراً ما يظهر عقب المطر ، فإن المطر فى أحيان كثيرة يستمر مع ظهوره وبعد ظهوره ، لكن ، مع هذا ، يمكن فهم العبارة على أساس أن ظهور هذا القوس مؤذن بانقطاع المطر ، وتكون الصورة جرت فى إطار رمزى ، أو على سبيل (حسن التعليل) ، أو يقصر المطر على الطوفان الذى قد يتسع مدلوله لهذا الذى يتكرر حدوثه فى شرق آسيا ، وفى أنحاء مختلفة من العالم التى تفيض فيها مياه البحار والأنهار مع شدة العواصف فتجتاح أقطاراً ودولاً كبرى .

وقد لا يكون اعتراض على العبارة فى إطار الواقع الفنى .. لكن أن يظهر الرب قائداً لبنى إسرائيل فى صورة من الصور المرئية ، فيتحركون بحركته : (قد ظهرت لهم عيناً لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً ، وبعمود نار ليلاً) ـ (عدد / ١٤) ـ فهذا ليس من الخيال البيانى فى شىء ، مجازاً أواستعارة أو كناية ، ولعله أدخل فى حساب الأسطورة ، إذا كانت الأسطورة صورة الحقيقة فى إطار خيال فطرى يأخذ طابع الرمز ، أو الانطباع الداخلى ، فى بساطة ، أو بدائية لم تهذبها المدنيـة (١) .

(١) هناك من يرى أن الأسطورة (قصة خيالية ، قوامها الخوارق والأعاجيب التى لم تقع فى =

ومثل هذا الحكم ينطبق على ماورد فى سفر (تكوين) [١] ، مما يتصل بقصة الخلق ، وقصة الطوفان ، وأسطورة بابل ، وغيرها من قصص الآباء الأولين ، إذ يرى كثير من المؤرخين أن معظمها يستمد أصوله من الأساطير المصرية القديمة أو البابلية أو الأشورية [٢] .

يذكر بارنز أن الباحثين المحدثين مثل دلينزس وونكلر وروجرز قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد الدينية فى الديانة اليهودية ، وبخاصة فى اقتباس قصة الخليقة وبرج بابل والطوفان ، وما إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية ، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية فى اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح [٣] .

ولو أننا رجعنا إلى كتاب (الفولكلور فى العهد القديم) لجيمس فريزر نجد أن قصة حواء من ضلع آدم تشبه الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى التى تحكى أن آدم لما استغرق فى نومه انتزع منه الإله (تاروا) عظمة من عظامه ، صنع منها امرأة ليتخذها زوجة له .

والتتار وسكان سيبيريا يطوّرون القصة تأثراً بفهمهم للمرأة ، فيتسبون إلى الشيطان أنه لمس صدر الرجل فبرزت عظمة من بين ضلوعه ، وحينما سقطت على الأرض أخذت تنمو فصارت المرأة .

= التاريخ ، ولا يقبلها العقل) ، لكن هذه القصة الخيالية ـ مهما شط الخيال بمؤلفها ـ لا بد أن يكون لها واقع نفسى ، عبر عنه بهذه الصورة التى تجاوزت حد المعقول ، أو المعتاد من حياة النـاس .

(١) يقول الفس مشرقى عما جاء فى هذا السفر : إنه (إعلانات ورؤى وأقوال شفوية ما بين آدم وموسى حين بدأ الوحى المكتوب) ـ مصادر الكتاب المقدس ـ ص ١١ ـ ويقول الدكتور صبرى جرجس : (إنها أساطير كتبت بعد عدة قرون ، ونقلاً عن ذاكرة أفراد من العبرانيين ، تناقلوها جيلاً بعد جيل) ـ التراث اليهودى الصهيونى ـ ص ٥٣ ـ عالم الكتب بالقاهرة ـ ١٩٧٠ .

(٢) التوراة الهيروغليفية ـ ص ٥ .

(٣) على أدهم ـ تاريخ التاريخ ـ كتابك عدد ٦ ـ دار المعارف ١٩٧٧ ـ ص ٢٠ .

وفكرة خداع الحية للإنسان ، وسلبها منه الخلود تتمثل فى ملحمة جلجامش .

أما عن قايين الذى جعل الله له علامة (لكيـلا يقتلـه كل من وجـده) ، فإن هذه العلامة ـ مع التجاوز عن عدم وجود من يقتله فى ذلك الحين ـ لا تعدو أن تكون علامة القبيلة التى هى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، ولا تزال القبائل إلى اليوم تتخذ صوراً من هذا الشعار للأفراد وللماشية .

ومما يثير الدهشة أن يصدر الله قراراً بعدم قتل القاتل بعد أن يحكم عليه باللعنة : (ملعون أنت فى الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيـك من يدك) ، فكيف تجتمع اللعنة مع شعار الحماية هذا ، إلا إذا كان المقصود أن يتعذب ذاتياً بسبب عدوانه على من لم يمد إليه يداً بسوء ؟.

لعله لون من القتل المعنوى عن طريق (العزل) ، كما يفعل بالقاتل إلى اليوم أهالى جزيرة (دوبو) البدائيون جنوب شرق غينيا الجديدة ، وكما يفعل أبناء (الأكيكويو) فى شرق أفريقيا ، حتى لا تنتقل عدوى جريمة القتل إلى الآخرين .

إن سكان مراكش يرون القاتل شخصاً نجساً ، على نحو ما ، فالسم ينضح من تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يديه يصاب بداء وبيل ، والحيوان الذى يذبحه غير صالح للأكل ، تماماً كما جاء فى سفر لاويين : (لا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها ، كما قذفت الشعوب التى قبلكم) ، وهذا التنجيس يتم بسبب الدماء التى تسيل عليها فتشربها ، كما فعل قايين ، مع أن تاريخ اليهود قائم على سفك الدماء ، لكنه تعبير عن الحالة النفسية التى تصيب القاتل ، وتصيب أهل القتيل ، وتصيب المجتمع الذى تحدث فيه الجريمة ، فالخاميون ظل يطارده شبح أمه إيريفيلى ،

فى التراث الإغريقى ، فلا يجد مكاناً يئويه إلا المكان الذى عرّاه البحر من بعد أن سفك دم أمه ، وأفلاطون يحدثنا عن شبح الرجل الذى قتل حديثاً يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات ، كما هو الحال بالنسبة للهامة العربية التى تظل تنادى : (اسقونى بدم قاتلى) ، وقد استغل شيكسبير هذا التصور فى مسرحية هاملت ، وتحدثت قصص عربية وأوربية كثيرة عن هذه الأشباح .

ومع ما فى قصة الطوفان الذى أغرق العالم كله من تعارض مع مبادئ الجيولوجيا البسيطة ، فإنها تشبه طوفان (أكسيسوثروس) الملك العاشر الذى حكم يابل ، وقد أخبر الإله (كرونوس) أن طوفاناً سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعاً ، وطلب منه أن يبتى فلكاً يأوى إليه هو وأقرباؤه وأصحابه ، وأن يختزن فيه زاداً من اللحم والشراب ، كما يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع ، وقد استقر به الفلك عند جبال أرمينيا ، حيث لا يزال جزء منه مطروحاً على هذه الجبال حتى اليوم .

وقد تحدثت ملحمة جلجامش عن طوفان آخر ، بطله (أوتنا بشتيم) ، وهناك حكايات إغريقية قديمة عن الطوفان ، بطلها (نوى) ، وهو الاسم الإغريقى المرادف لكلمة (نوح) ، كما أن هناك حكايات هندية ، وفى الهند الصينية ، وفى الأرخبيل الهندى ، وإستراليا ، وفى أمريكا الجنوبية والوسطى ، مما يفيد أنه تصور إنسانى عام ، لا يقوم على النقل والاقتباس من تراث الآخرين ، بل على الاستجابة البشرية لواقع ، يحدث رهبة ، تأخذ شكلاً أسطورياً .

(وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية فى فترة أسرهم فى بابل ، وبناء على ذلك ، لا يرجع تاريخ الرواية العبرية إلى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد)(١) .

* * *

(١) الفولكلور فى العهد القديم ـ جـ ١ ص ١١٥ .

كما نجد فى أسفار الأنبياء والمزامير إشارات كثيرة إلى هذا الأثر الأسطورى الأجنبى .

نجد مثلاً حرب (يهوه) مع التنين ـ (أشعياء / ٢٧ و ٥١) ـ كذلك الحيوان الخرافى القديم (تهوم) ، وهو يرتعد أمام (يهوه) ، وانتصر عليه (يهوه) وصرعه ـ (مزمور / ٧٧) ـ (وأشعياء / ١٤و ٤٤ و ٥١) ـ (وزكريا / ١٠) ـ وكذلك الحيوان الذى يبتلع الآدميين ، ألا وهو (شاءول) ، ولا يقدر عليه إلا (يهوه) فقط ، الذى أنقذ الإنسان منه ـ (مزمور / ٤٩) ـ (ومزمور / ٨٦ ـ وأشعياء ٥/ والأمثال / ١ وحبقوق / ٢) ـ كذلك نجد حديثاً عن نجم الصبح الذى أراد أن يضع عرشه فوق عرش (يهوه) ، فهوى إلى الأعماق ـ (أشعياء / ١) ـ كما نجد حديثاً عن الإنسان الأول الذى خلق قبل الجبال ، واستمع إلى الله ، ومجلسه الحكمة والمعرفة ـ (أيوب / ١٥) .

وفى سفر (عدد) يروى أن (قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى وداثام وأبيرام ابنا أليآب وأون بن فالت ، بنو رأوبيم) ثاروا على موسى وأخيه هارون بسبب الامتيازات الجائرة التى أختص بها هارون وبنوه ونسل لاوى جميعاً ، وانضم إليهم من رؤساء الجماعة مائتان وخمسون رجلاً ، (فاجتمعوا على موسى وهارون ، وقالوا لهما : كفاكما إن كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفى وسطها الرب ، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) ؟! .

(فلما سمع موسى سقط على وجهه ، ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً : غداً يعلن الرب من هو له ، ومن المقدّس ، حتى يقربه إليه) .

واتفقوا على أن يقدموا للرب تقدمات ، ليتبين إلى جانب من سيقف الرب ، وقال موسى : (اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ، ولا تمسوا شيئاً

مما لهم ، لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم) ، ثم قال (إن مات هؤلاء كموت كل إنسان ، وأصابتهم مصيبة كل إنسان ، فليس الرب قد أرسلنى ، ولكن إن ابتدع الرب بدعة ، وفتحت الأرض فاها ، وابتلعتهم وكل ما لهم ، فهبطوا أحياء إلى الهاوية ، تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب) .

(فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم ، وفتحت الأرض فاها ، وابتلعتهم وبيوتهم) .

(وخرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين والخمسين رجلاً) الذين انضموا إليهم ـ (عدد / ١٦) .

هل من المعقول فى شىء أن تنطوى هذه الأحداث تحت إطار دينى؟! .

مجرد احتجاج على وضع شاذ يحتاج إلى تعليل ، فيكون تحدّ من الرسول وتهديد وعقاب تهتز له السنن الكونية ؟! .

وإذا كان بنو إسرائيل اعتزلوا الثائرين ، أما كان هذا يكفى عقاباً لهم ؟! .

أما كان يكفى برهاناً على تأييد الله لموسى ، وغضبه على الثائرين الذى لم يرفعوا عصا ، ولم يهرفوا أو يجدفوا ـ أن تنزل نار السماء تلتهم قرابين الشعب من دون الثائرين ؟! .

أما كان فرعون أحق بهذا العقاب (الفريد) ، أو أما كان الأجدر أن يميل موسى لهذه (الزوبعة) ، وهو فى حاجة إلى لَمّ شمل الجماعة ، حتى يخرج من (التيه) ؟! .

لكن روح الاستبداد والتسلط الكهنوتى اتخذت من السماء وسيلة سيطرة وبطش وتنكيل ، حتى لا تنبت فى الأرض نابتة تأخذ نصيبها من الحياة الحرة الكريمة .

لهذا لم يكتف موسى ـ فى زعمهم ـ بما حدث ، بل أعطى رؤساء بنى إسرائيل عصياً ، وأعطى هارون ، ثم وضع (موسى العصىّ أمام الرب فى خيمة الشهادة ، وفى الغد دخل موسى إلى خيمة الشهادة ، وإذا عصا هارون لبيت لاوى قد أفرخت ، أخرجت فروخاً ، وأزهرت زهراً ، وأنضجت لوزاً .. وقال الرب لموسى : ردّ عصا هارون لأجل الحفظ علامة لبنى التمرد) ـ (عدد / ١٧) .

* * *

هذا التصوير الخيالى القائم على ادعاء الوقوع أجدر ألا يدخل فى حساب الأسطورة أو البيان الفنى ، بل فى حساب الإيهام والتغرير .

ومن هذا أن يتكرر انشقاق الماء من أجل نجاة أو نصرة بنى إسرائيل .

(عند إتيان حاملى التابوت إلى الأردن ، وانغماس أرجل الكهنة حاملى التابوت فى ضفة المياه ، والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد ، وقفت المياه المنحدرة من فوق ، وقامت ندّا واحداً بعيداً جداً عن أدام ، المدينة التى إلى جانب صرتان ، والمنحدرة إلى بحر العربة ، بحر الملح ، انقطعت تماما ، وعبر الشعب مقابل أريحاء ، فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين ، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة ، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن) ـ (يشوع / ٣) .

صورة مهتزة من معجزة موسى ، لأن موسى ـ عليه السلام ـ حين ضرب البحر فانفلق كان مطارداً ، ولم يكن مهاجما ، وكان (رسولا) يحمل هداية ، أوفى سبيل حملها ، ولم يكن مجرد قائد يقيم دولة على حساب شعوب ارتبط وجودها بوطنها .

ومعجزة (بحر سوف) ارتبطت بإمكانيات مادية طوّعت (الحدث

لمنطق الواقع الإنسانى ، فقد أجمع ما وصل إليه العلم التاريخى والجغرافى أن (بحر سوف) جنوب شرق بحيرة المنزلة ، مجرد (مستنقعات) ضحلة ، تخضع مياهها لحركة الريح ، ومن ثم (مدّ موسى يده إلى البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة ، وانشق الماء) ـ (خروج / ١٤) ـ ولما عبر بنو إسرائيل تغير مجرى الريح ، فأطبق الماء على فرعون وقومه ، وفى حالة الانطباق لا يحتاج الإغراق إلى أعماق ..

أما فى بحر (يشوع) الأردن ، فقد كان النهر ممتلئاً إلى جميع شطوطه ، لهذا خشى الرب عدم (تصديق) هذه (المعجزة) ، فكلم يشوع أن يحضر اثنى عشر رجلاً ، (رجلاً واحداً من كل سبط) ، ويأمرهم أن يحملوا (من هنا من وسط الأردن ، من موقف أرجل الكهنة ، راسخة ، اثنى عشر حجراً) ، ويضعونها (فى البيت الذى تبيتون فيه الليلة) ، حتى (إذا سأل غداً بنوكم قائلين : ومالكم وهذه الحجارة ، تقولون : إن مياه الأردن قد انغلقت أمام تابوت عهد الرب ، فتكون هذه الحجارة تذكاراً لبنى إسرائيل إلى الدهر) ـ (يشوع / ٤) .

وحتى يعظم أمر يشوع ، كما كان أمر موسى ، فإن (الكاتب) لا يفوته أن يجمع بين الحدثين الخارقين على لسان يشوع :

(إذا سأل بنوكم غداً آباءهم ، قائلين : ما هذه الحجارة ، تعلمون بنيكم قائلين : على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن ، لأن الرب إلهكم قد يبّس مياه الأردن من أمامكم ، حتى عبرتم ، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذى يبّسه من أمامنا حتى عبرنا) ـ (يشوع / ٤) .

ويكاد يضع فى يدنا مفتاح هذا السر ، حين استمر قائلاً :

(لكى تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية ، لكى تخافوا الرب إلهكم كل الأيام) ـ (يشوع/ ٤) .

فكان الهدف من (المعجزة) بث روح الخوف فى نفوس الأعداء ، مع تقوية معنويات بنى إسرائيل ، وتأديبهم أيضاً .

ونلاحظ أن (كاتب) سفر يشوع جعل (الرب) يخاطب يشوع مباشرة ، كما فعل مع موسى ، مع أن الله تحدث إلى هارون ومريم قائلاً : (إن كان منكم نبى للرب فالرؤيا ستعلن له ، فى الحلم أكلمه ، وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى ، فما إلى فم ، وعياناً أتكلم معه ، لا بالألغاز) ـ (عدد / ١٢) .

فمن ذا نصدق؟! وإلى أى مدى تتسع قدرتنا على التصديق ؟! .

(حدث لما كان يشوع عند أريحا ، أنه رفع عينيه ونظر ، وإذا برجل واقف قبالته ، وسيفه مسلول بيده ، فسار يشوع إليه ، وقال له :

هل لنا أنت أو لأعدائنا ؟ فقال : كلا ، بل أنا رئيس جند الرب ، الآن أتيت) ـ (يشوع / ٥) .

اشترك الرب بجنود مدججين بالسلاح مع يشوع المنتصر ، ضد مدينة معتدى عليها ، فلما سقطت المدينة قال يشوع لجنوده : (احترزوا من الحرام ، لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام ، وتجعلوا محلة إسرائيل محرمة ، وتكدروها) .

وكان مفهوم (الحرام) الذى تكرر فى هذا (الأمر اليومى) أربع مرات ـ وبعون من الرب ـ (حرموا كل ما فى المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف ، وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب ، وتدخل فى خزانة الرب) ، ثم بعد ذلك : (أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها) ـ (يشوع / ٥) .

* * *

ويمضى هذا الخيال الجامح بكاتب سفر (الملوك الأول) ، فيحكى أن (إيليا التشبى) رجل الله (كانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحـاً ، وبخبز ولحم مساء ، وكان يشرب من النهر) ، فلما يبس النهر ذهب إلى امرأة يطلب ماء وكسرة خبـز ، ولم يكـن عندهـا غيـر (كف من الدقيق فى الكوار ، وقليل من الزيت فى الكوز) ، فقال الرب إله إسرائيل : (إن كوار الدقيق لا يفرغ ، وكوز الزيت لا ينقص ، إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطراً على وجه الأرض) .. ولأن الغربان كان بوسعها أن تكفيه هذا العناء ، فكأن المرأة هى المقصودة بهذا الخبر ، أو هذه البركة .

ثم إن ابن المرأة مرض حتى الموت ، فشكت إلى إيليا حاله : (فصرخ إلى الرب ، وقال : أيها الرب إلهى ، أيضاً إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ يارب ، إلهى ، لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه ، فسمع الرب لصوت إيليا ، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش) ـ (الملوك الأول / ١٧) .

معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ تجرى على يد إيليا ، فى صورة استنكار وقح لقضاء الرب ، وأمر جافٌ لا خشية معه ولا رجاء ، واستجابة من الرب غير وانية !! .

لهذا جرؤ إيليا ، فتحدى أربعمائة وخمسين نبياً للبعل ، أن يقدمّوا القربان إلى إلههم ، ويقدم هو القربان إلى إلهـه ، دون إشعـال نـار الرب ، (فسقطت نار الرب ، وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ، ولحست المياه التى فى القناة) ـ (الملوك الأول / ١٨) ـ وبهت الذين كفروا !! .

فلما أرسل إليه ملك السامرة (رجلاً على رأس خمسين) يطلبون إليه أن ينزل من الجبل ليخاطب الملك ، استكثر هذا ، وقال : (إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء ، وتأكلك أنت والخمسين لك ، فنزلت نار

الله من السماء ، وأكلته هو والخمسين الذين له) ـ (الملوك الثانى / ١) ـ ثم عاد الملك فأرسل رئيس خمسين ثانياً ، وثالثا ، وتكررت المأساة !! .

تقول : ما ذنب هؤلاء الرسل ؟! فيكون الجواب : وما ذنب المائتين والخمسين الذين أكلتهم النار على يد موسى ؟ والفارق بين النبى والرسول متمثل فى الفارق العددى بين المائة والخمسين والمائتين والخمسين .

ثم .. أراد إيليا عبور الأردن ، ولم تكن هناك مطاردة من عدو ، ولا سبب يحول دون أن يعبر راكباً سفينة أو قطعة خشب أو يمشـى على الماء ، لكن .. لماذا لا يفعل ما يفعله موسى ، ومن بعده يشوع ؟! أليس نبى الله ؟!.

لهذا أخذ رداءه ، (ولفّه ، وضرب البحر فانطلق إلى هنا وهناك ، فعبرا كلاهما ـ مع تابعه أليشع ـ فى اليبس) .

وفيما هو وأليشـع (يسـيران ويتكلمان ، إذا مركبة من نار ، وخيل من نار ، ففصلت بينهما ، وصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء ، وكان أليشع يرى وهو يصرخ : يا أبى ، يا أبى ، مركبـة إسـرائيل وفرسـانها ، ولم يره بعـد ، فأمسـك بثيابه ، ومزقها قطعتين ، ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ، ورجع ووقف على شاطئ الأردن ، فانفلق إلى هنا وهناك ، فعبر أليشع) .. ثم صعد إلى بيت أيل ، (وفيمـا هو صاعد فى الطريق ، إذا صبيان صغار خرجوا من المدينة ، وسخروا منه ، وقالوا له : اصعـد يا أقرع ، اصعـد يا أقرع ، فالتفت إلى ورائه ، ونظر إليهم ، ولعنهم باسم الرب ، فخرجت دبتان من الوعر ، وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا) ـ (الملوك الثانى/ ٢) .

إعدام بالجملة من أجل كلمة جرت بها ألسنة الصبية ، وكان يكفى أن تطارد الدبتان الصبية ، أو أن يصاب الصبية بالقراع ، إذا لم يكن سبيل إلى المغفرة والرحمة !! .

(وفى ذات يوم عبر أليشع إلى شونم ، فأكرمته امرأة عاقر ، فطلب إليها

أن تتمنى ، فطلبت أن تنجب ، فقال : فى هذا الميعاد نحو زمان الحياة تحتضنين ابناً) ، وكبر الولد ، وأصابته ضربة شمس ، قضت عليه ، (ودخل أليشع البيت ، وإذا الصبى ميت ، ومضطجع فى سريره .. فاضطجع فوق الصبى ، ووضع فمه على فمه ، وعينيه على عينيه ، ويديه على يديه ، وتمدد عليه فسخن جسد الولد) ، وتكرر هذا ، فعطس الصبى سبع مرات ، ثم فتح عينيه ـ (الملوك الثانى/ ٢).

ثم أطعم أليشع مائة رجل من عشرين رغيفاً ، وفضل منهم ـ (الملوك الثانى / ٥) .

وشفى (نعمان) رئيس جيش ملك أرام من برصه ـ (الملوك الثانى / ٦) .

ودعا على عبيد ملك آرام الذين أرسلهم ليأتوه بأليشع ، فضربهم الرب (بالعمى ، كما قال أليشع) ـ (الملوك الثانى / ٦) .

وحين مات ، طرحت جثة رجل فى قبره ، و (حين مسّ عظام أليشع عاش وقام على رجليه) ـ (الملوك الثانى / ١٣) ـ وبقى أليشع ميتاً !! .

هكذا جمع (الكاتب) كل ما استطاع من معجزات ، وأقدر أليشع على أن يُحيى العظام وهو ميت ، دون أن يسأل نفسه بشأن عظام أليشع ، لماذا بقيت فى قبر تطرح فيه جثث الآخرين ، ولم يصعد ـ كإيليا ـ فى العاصفة راكباً مركبة إسرائيل ، ليلقى الرب ؟!! .

إذا كانت عظمة النبى بكثرة معجزاته ، كأنها نياشين من الرب ، فقد كان أليشع أحقّ بالصعود إلى السماء من أستاذه إيليا ، لكن يبدو أن (الكاتب) ممن يرون أن المعجزات دليل عجز إنسانى بقدر ما هى دليل قدرة الله .

* * *

يلاحظ أن المعجزات تتلاصق ، وتزداد إيغالاً فى الخيال ، كلما قلّ نصيب (الشعب) من النصر ، أو كلما ازداد حظه من الكفر والفسوق والعصيان ، أو فى الوقت الذى يتمثل غضب الرب وسخطه فى هزائم وسبى وشتات .

أراد سنحاريب ملك أشور أن يدخل أورشليم ، فكان (أنّ ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً ، فانصرف سنحاريب ملك أشور ، وذهب راجعاً ، وأقام فى نينوى) ـ (الملوك الثانى / ١٩) .

ولم يصب ملاك الرب سنحاريب بسوء ، مع أن موته وموت قادته كان يكفى ، لكن (الكاتب) أراد أن يذيق سنحاريب عذاب الرعب والفزع والحسرة ، وأن يظل فى حياته عبرة لغيره ، وبخاصة أن (الكاتب) ضمن ألا يفكر سنحاريب فى العودة مرة ثانية ، لأنه لن يجد رجالاً بعد ذلك ، ثم إن بلاده ستقع فى أزمة اجتماعية حادة ، وقد أصبحت أشور مجتمعاً من النساء !! .

* * *

ونصل إلى سفر (حزقيال) فنجد خيال أديب خلاق ، له ثقافته الواسعة فى عالم الأساطير ، لكنه يخلق شيئاً تحار فى قيمته : (نظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال ، سحابة عظيمة ، ونار متواصلة ، وحولها لمعان ، ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار ، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات ، وهذا منظرها ، لها شبه إنسان ، ولكل واحد أربعة أوجه ، ولكل واحد أربعة أجنحة ، وأرجلها أرجل قائمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل ، وبارقة كمنظر النحاس المصقول ، وأيدى إنسان تحت أجنحتها ، على جوانبها الأربعة ، ووجوهها وأجنحتها لجوانبها الأربعة ،

وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه ، لم تدر عند سيرها ، كل واحد يسير إلى جهة وجْهه ، أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ، ووجه ثور من الشمال لأربعتها ، ووجه نسر لأربعتها ، فهذه أوجهها ، أما أجنحتها فمبسوطة من فوق ، لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه ، واثنان يغطيان أجسامها ، وكل واحد كان يسير إلى جهه وجْهه ، إلى حيث تكون الروح ، لتسير تسير ، لم تدر عند سيرها ، أما شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة ، كمنظر مصابيح هى سالكة بين الحيوانات ، وللنار لمعان، ومن النار كان يخرج برق ، الحيوانات راكضة وراجعة كمنظر البرق .. فنظرت الحيوانات ، وإذا بكرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات ، بأوجهها الأربعة ، منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد ، وللأربع شكل واحد ، ومنظرها وصنعتها كأنها كانت بكرة وسط بكرة ، لما سارت سارت على جوانبها الأربعة ، لم تدُر عند سيرها ، أما أطُرها فعالية ومخيفة ، وأطرها ملآنة عيوناً حواليها للأربع ، فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها ، وإذا ارتفعت الحيوانات من الأرض ارتفعت البكرات ، إلى حيث تكون الروح ، لتسير يسيرون ، إلى حيث الروح لتسير ، والبكرات ترتفع معها ، لأن روح الحيوانات كانت فى البكرات ، فإذا سارت تلك سارت هذه ، وإذا وقفت تلك وقفت ، وإذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت البكرات معها ، لأن روح الحيوانات كانت فى البكرات ، وعلى رءوس الحيوانات شبه مُقبّب ، كمنظر البللور الهائل منتشراً على رءوسها من فوق ، وتحت المقبب أجنحتها مستقيمة الواحد نحو أخيه ، لكل واحد اثنان يغطيان من هنا ، ولكل واحد اثنان يغطيان من هناك أجسامها ، فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة ، كصوت القدير ، صوت ضجة ، كصوت جيش ، ولما وقفت أرخَتْ أجنحتها ، فكان صوت من فوق المقبب الذى على رءوسها ، وفوق المقبب الذى على رءوسها شبه عرش ، كمنظر حجر

العقيق الأزرق ، وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق ، ورأيت مثل منظر النحاس اللامع ، كمنظر نار داخلة ، من حوله ، من منظر حقويه إلى فوق ، ومن منظر حقويه إلى تحت رأيت مثل منظر نار ، ولها لمعان من حولها كمنظر القوس التى فى السحاب يوم المطر هكذا منظر اللمعان من حوله ، هذا منظر شبه مجد الرب) ـ (حزقيال / ١) .

وكان مجد الرب حقاً ، جاء فى هذا الإطار الحيوانى الغريب الذى يذكر بالحيوانات الخرافية فى الأوديسة اليونانية ، وخاورنامة الفارسية ، بل برءوس لوياثان فى الأساطير الأوجاريتية ـ من أجل أن تنبعث فى نفس حزقيال روح النبوة !! .

ويتكرر هذا الوصف بصورة أخرى ، كلما التقى حزقيال بالرب ، ليجد من يقول فى نهاية القرن العشرين إنه صورة (طبق الأصل) من الأطباق الطائرة التى تحمل مخلوقات كونية ، ومن ثم يمكن القول أنها فى زمن حزقيال كانت تحمل بشائر السماء إلى حزقيال النبى !! ولعل أحد هذه (الأطباق) هو الذى حمل (إيليا) !! .

** وقد تتجلى النزعة الأدبية ـ دون الإغراب الجامح ـ فى تصوير عودة الحياة والقوة إلى إسرائيل ، بعد أن امتصتها سنوات النفى الطويل .

فالرب أخذ حزقيال ، ومرّ به على بقعة ملأى عظاماً (يابسة جداً ، فقال له : يابن آدم ، أتحيا هذه العظام ؟ فقلت : يا سيدُ ، أنت تعلم ، فقال لى : تنبأ على هذه العظام ، وقل لها : أيتها العظام اليابسة ، اسمعى كلمة الرب ، هكذا قال السيد لهذه العظام ، هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون ، وأضع عليكم عَصَباً ، وأكسيكم لحماً ، وأبسط عليكم جلداً ، وأجعل فيكم روحا ، فتحيون ، وتعلمون أنى أنا الرب .. فتنبأت كما أُمرت ، وبينما أنا أتنبأ كان صوت ، وإذا رعش ، فتقاربت العظام ، كل عظمة إلى عظمة ،

ونظـرت ، وإذا بالعصب واللحم كساها ، وبسط الجلد عليها من فوق ، وليس فيها روح ، فقال : تنبأ للروح ، تنبأ يابن آدم ، وقل للروح : هكذا قال السيد الرب ، هلم ياروح من الرياح الأربعة ، وهبّ على هؤلاء القتلى ، ليحيوا ، فتنبأت كما أمرنى ، فدخل فيهم الروح ، فحيوا ، وقاموا على أقدامهم ، جيش عظيم جداً جداً .. ثم قال : يابن آدم ، هذه العظام هى كل بيت إسرائيل) ـ (حزقيال / ٣٧) .

قد يشم القارئ فى هذه القصة صورة الإحياء الواردة فى سورة البقرة (٢٥٨ / ٢٥٩) من القرآن الكريم ، ومع هذا فقد عمل خيال (الكاتب) عملاً فنياً ، وإن أُخذ عليه أن تتجمع العظام ، ويكون العصب واللحم والجلد ، بلا روح ، كأنه يقيس على خلق آدم من الطين ، ثم يكون الروح من الرياح الأربع ، واجتماع الرياح الأربعة فى الرمز قد يوحى بالإعصار الذى لا دور له فى القصة ، إلا إذا كان القصد الإشارة إلى طبيعة التمرد الإسرائيلى ، ولا يتسع السياق له ، وبخاصة أنه بعد ذلك مباشرة يتحدث عن توحيد أسباط بنى إسرائيل ، مما يرجح أنه فكّر فى التمزق الذى منى به الشعب ، فالرياح الأربع تجمع الشتات ، وفى هذا التجمع يقول الرب : (وأنت يابن آدم ، خذ لنفسك عصا واحدة ، واكتب عليها ليهوذا ولبنى إسرائيل ورفقائه ، وخذ عصا أخرى ، واكتب عليها ليوسف عصا أفرايم ، وكل بيت إسرائيل ورفقائه ، واقرنهما الواحدة بالأخرى ، كعصا واحدة ، فتصير واحدة فى يدك) ـ (حزقيال /٣٧) .

ويلاحظ أن جيش العظام العظيم جداً كان عارياً ، كأنما يوحى بأن العرى سيظل حظّ بنى إسرائيل فريضة دهرية !! .

** وبعد عودة الحياة إلى إسرائيل ووحدتها ـ مما تدعو إليه بعد السبى عوامل نفسية ، لتقوية عزم حزقيال على الكفاح ، وبث روح الأمل والتفاعل

فى الشعب ـ كان اهتمام الرب ببناء الهيكل ، فيتناول أدق التفاصيل :

(أتى بى إلى أرض إسرائيل ، ووضعنى على جبل عال جداً ، عليه مدينة من جهة الجنوب ، ولما أتى بى إلى هناك ، إذا برجل منظره كمنظر النحاس ، وبيده خيط كتان ، وقصبة القياس ، وهو واقف بالباب ، فقال لى الرجل : يابن آدم انظر بعينيك ، واسمع بأذنيك ، واجعل قلبك إلى كل ما أريكه ، لأنه لأجل إراءتك أتى بك إلى هنا ، أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى .. وإذا بسور) ـ (حزقيال / ٤٠ ـ ٤٨) .

ويستمر فى وصف كل ما لايخطر ببال ، مما لا يمكن استيعابه مرة واحدة ، وكان الأولى أن يقدم الرب بهذا رسماً إيضاحياً على لوح كلوحى شريعة موسى ، أو أن يكتب هذه التفاصيل ، أو أن تكون هذه (الإراءة) للبنّاء الذى سينهض بالبناء .. لكن حزقيال ليس أقل شأناً من موسى ، فليكن تعامل الرب على أساس من المساواة !! .

ويلاحظ أيضاً أن هذا الرجل النحاس الذى هو أشبه برجال (المركبة) السابقة يمكن أن يكون قد حطّ على الجبل العالى جداً عن طريق الطبق الطائر ، وبهذا تصدق المقولة التى تزعم أن الأهرامات بناها رجال هبطوا من السماء !! .

* * *

أما سفر (دانيال) فإنه يقوم على كثير من الرؤى التى لا تكاد تخرج عن أن تكون تقليداً لما ورد فى قصص الأنبياء السابقين .

حلم فرعون الذى فسّره يوسف ، فانتقل به من السجن إلى أن يصير قيمًا على خزائن مصر ـ تكرر فى حلم نبوخذ نصر الذى فسّره دانيال ، فانتقل من حكم بالإعدام إلى (رئيس الشحن على جميع حكماء بابل) ،

في موقع اقتصادى قريب من موقع يوسف .

وإبراهيم ـ كما ورد فى القرآن ، وأغفلت التوراة ـ كاد له الكفار ، ﴿ قالوا : حرّقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين ﴾ [1] ، فنجاه الله من كيدهم : ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ [2] ـ أبو الأنبياء هذا أصبح (شدرخ وميشخ وعبدنغو) الذين رفضوا السجود لتمثال نبوخذ نصر ، فأمر (بأن يحموا الأتون سبعة أضعاف ، أكثر مما كان معتاداً أن يحمى ، وأمر جبابرة القوة فى جيشه بأن يوثقوا شدرخ وميشخ وعبد نغو ، ويلقوهم فى أتون النار المتقدة ، ومن حيث إن كلمة الله شديدة ، والأتون قد حمى جداً ؛ قتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ وميشخ وعبدنغو) ، أما هؤلاء الثلاثة فكانوا (يتمشون وسط النار ، وما بهم ضرر) ، ومعهم رابع (شبيه بابن الإله) ـ (دانيال / ٣) .

قد يقال هذا الخيال مستمد من أسطورة هندية تقول إن راما تزوج من سيتا بنت الملك جناكا ، ولكن رافنا الشرير اختطفها ، فلما استعادها راما بعد قتل رافنا ، اتهمها بأن رافنا قد طوقها بذراعيه ، فدنسها بذلك إلى الأبد ، وفى سبيل إثبات عفتها ألقت بنفسها فى النار ، لكن الإله براهما حسر عنها اللهب ، وخرجت بغير سوء ، يقودها أجنى إله النار ، الذى أعادها إلى راما[3] ، فأصبحت النار وسيلة تبرير أو تبرئة أو تطهير .

مع احتمال وصول الفكر اليهودى إلى الأسطورة الهندية ، فإن قصة إبراهيم أقرب وألصق وأبسط .

وتكرر الحدث مع دانيال الذى فكر داريوس (أن يوليه على المملكة

(١) الأنبياء / ٦٨ .
(٢) الأنبياء / ٦٩ .
(٣) التوراة الهيروغليفية ـ ص ١٧٦ / ١٧٧ .

كلها) ، لثقته به ، ولكفاءته ، فنقم عليه الوزراء والمرازبة ، وكادوا له عند الملك ، فألقى به (فى جبّ الأسود ، وأتى بحجر ووضع على فم الجب ، وختمه الملك بخاتمه وخاتم عظمائه ، لئلا يتغير القصد فى دانيال) .

وأصيب الملك ليلته بالأرق ، فذهب فى الصباح الباكر ليرى من أمر دانيال ، فقال له دانيال : (إلهى أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود ، فلم تضرنى ، لأنى وجدت بريئاً قدامه) .

ففرح الملك ، وآمن برب دانيال (الإله الحى القيوم إلى الأبد ، وملكوته لن يزول ، وسلطانه إلى المنتهى) .

ثم طرح فى جب الأسود الذين كادوا لدانيال (وأولادهم ونساءهم ، ولم يصلوا إلى أسفل الجب حتى بطشت بهم الأسود ، وسحقت عظامهم) (دانيال / ٦) .

* * *

هذه الصور الخيالية الواردة فى هذا الفصل ، لو أنها وردت فى قلم أديب ، لاتهمناه بالسرقة والخلط والإحالة والتزييف والادعاء ، والاضطراب النفسى أيضاً ، لأنها تخلو من الابتكار والصدق والتناسق ، ولأن الهدف الذى ترمى إليه لا يكاد يتحقق إلا فى رءوس مختلطة ، أضرت بها الخرافات ، واستنزفتها الأباطيل .

ومما يؤيد اختلاق الكثير من الأحداث الواردة أن التاريخ لا يؤيد ما جاء فى سفر دانيال ، من أن (بلشاصر) كان ملكاً وابناً خليفة لنبوخذ نصر ، كما أن الذى غزا بابل ، وحكم المملكة ، لم يكن داريوس الميدى ، بل قورش ملك الفرس ، وغير تاريخى هذا الجنون الذى أصاب نبوخذ نصر ، ولازمه سبعة أعوام ، كما أن فى هذا السفر تتميز كل قصة عن الأخرى ،

فتلك التى تتحدث عن الرجال الثلاثة لا تذكر شيئاً عن دانيال ، بينما يقحم هؤلاء الرجال فى الرؤية التى تتحدث عن الدول العالمية الأربع ، وفى وليمة بلشاصر يذكر دانيال كما لو أنه نكرة من النكرات[1].

ومن هنا لا نجد الدكتور صبرى جرجس مجافياً الصواب بقوله عن التوراة :

(إنها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التى صيغت فى جو أسطورى حافل بالإثارة ، مجاف للعقل والمنطق ، غاصّ بالمتناقضات ، مشبّع بالسخف ، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدماء)[2].

ولم يكن الدكتور صبرى وحده فيما جهر به .

* * *

(١) التوراة الهيروغليفية ـ ص ١٧٦ / ١٧٧ .

(٢) التراث اليهودى الصهيونى ـ ص ٥١ .

٧ ـ قيم أدبية جديدة فى العهد القديم

العبارة الركيكة المهلهلة التى صيغ بها (الكتاب المقدس) قد تُغطّى على كثير من الومضات المضيئة التى قد تصل إلى درجة التألق فى أقلام بعض من دوّنوا هذه الأسفار .

كما أن الاجتهادات المتنوعة لهذه الأقلام ، والتنافس على الإضافة والنقل والابتداع قد طمس أو شوّه كثيراً من المحاولات الإبداعية ، وبخاصة فيما جاء بالأسفار المنسوبة إلى أيوب وداود وسليمان .

وإذا كان الفصل السابق قد اهتم بالمؤثرات الأسطورية التى كانت تشيع فى المنطقة التى شهدت أحداث التجمع والشتات الإسرائيلى ، أو اهتم بإبراز الاتهامات والادعاءات التى رسمتها أمراض نفسية شاعت بين الإسرائيليين ، من آثار مطاردة فرعون ، بعد قرون من الأمن والنعيم ، وجفاف سيناء الرهيب الذى ألصق فى حلوقهم مرارة الصبار ، والضياع على أيدى نبوخذ نصر بين شعوب أقوى وأرقى ، فولّد فى وجدانهم مشاعر المنبوذين ، وعمق فى كيانهم ضرورة الانعزال .. إذا كان الفصل السابق قد عالج هذا الجانب فإن تأخر تدوين بعض الأسفار ، وإعادة كتابتها فى ظل الثقافة الإسلامية ، قد مزج المداد اليهودى بقدر من نور هذه الثقافة .. ومن ثم نجد أفكاراً وقصصاً وعبارات قرآنية ، أو من التراث الإسلامي بعامة .

* * *

حين بلغت السن بصموئيل ، قال (لكل إسرائيل) :

(هأنذا فاشهدوا علىّ قدّام الرب وقدام مسيحه ، ثور من أخذت

وحمار من أخذت ، ومن ظلمت ، ومن سحقت ، ومن يد مَنْ أخذت فديـة ، لأغض عينى عنه ، فأرده لكم) ـ (صموئيل الأول !!) .

هذا القول يُذَكِّر بقول الرسول محمد ـ ﷺ ـ فى خطبة له قبيل وفاتـه : (أيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئاً فهذا عرضى فليقتص ، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشرى فليقتص ، وأيما رجل كنت أصبت من ماله شيئاً فهذا مالى فليأخذ) [1] .

والمزمور ١١٥ يقول : (أصنامهم فضة وذهب ، عمل أيدى الناس ، لها أفواه ولا تتكلم ، لها أعين ولا تبصر ، لها آذن ولا تسمع ، لها مناخر ولا تشم ، لها أيد ولا تلمس ، لها أرجل ولا تمشى) .

أشبه بقول الله سبحانه فى قرآنه عن الأصنام : **﴿ ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيْدٍ يبطشون بها ، أم لهم أعْيُنٌ يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ﴾** [2] .

وأشعياء يصف يوم القيامة بقوله: (إن السموات كالدخان تضمحـل ، والأرض كالثوب تبلى ، وسكانها كالبعـوض يموتون) ـ (أشعياء / ٥١) .

وهذا يذكر بما جاء فى القرآن الكريم ، فى نفس المعنى: **﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾** [3] .

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [4] .

وفى المزمور ١٣٦ تقليد ساذج لخاصـة من خواص الفاصلة القرآنية :

(١) طبقات ابن سعد ـ ص ٧٢ .
(٢) الأعـراف / ١٩٥ .
(٣) الدخـان / ١٠ .
(٤) القارعـة / ٤ ـ ٥ .

(احمدوا الرب ، لأنه صالح ، لأن إلى الأبد رحمته ، احمدوا إله الآلـهة ، لأن إلى الأبد رحمته ، احمدوا رب الأرباب ، لأن إلى الأبد رحمتـه ، الصانع العجائب العظام وحده ، لأن إلى الأبد رحمته ، الصانع السموات بفهم ، لأن إلى الأبد رحمته ، الباسط الأرض على المياه ، لأن إلى الأبد رحمته ، الصانع أنواراً عظيمة ، لأن إلى الأبد رحمته ، الشمس لحكم النهار ، لأن إلى الأبد رحمته ، القمر والكواكب لحكم الليل ، لأن إلى الأبد رحمته ... إلخ) .

ويرد فى الأصحاح الثالث عشر من سفر القضاة صورة كاملة لما أورد القرآن الكريم عن بشرى الله بإسحق ، بعد ما بلغ إبراهيم وزوجه من الكبر عتيا ، إذ أتى رسول من السماء يبلغ امرأة منوح العاقر :

(هأنت عاقر لم تلدى ، ولكنك تحبلين ، وتلدين ابناً ، والآن فاحـذرى ، ولا تشربى خمراً ولا مسكراً ، ولا تأكلى شيئاً نجساً ، لأن الصبى يكون نذيراً لله من البطن .. فصلى منوح إلى الرب ، وقال لملاك الرب : دعنا نعوقك ، ونعمل لك جدى معزى .. فقال ملاك الرب لمنوح : ولو عوقتنى لا آكل من خبزك ، وإن عملت محرقة فللرب أصعدها .. فكان عند صعود اللهيب عن المذبح نحو السماء أن ملاك الرب صعد فى لهيب المذبح ، ومنوح وامرأته ينظران ، فسقطا على وجهيهما إلى الأرض ، فولدت المـرأة ابناً ، ودعت اسمه شمشون) [1] .

ونبحث عن الدور العظيم الذى قام به شمشون الذى اهتمت به السماء هذا الاهتمام ، فلا نجد إلا بطلاً خرافيا يمسك بلحى حمار فيقتل ألفاً ويمسك بالعمودين المتوسطين بالمعبد فيسقط (البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهـم فى حيـاته) ـ (القضـاة / ١٣و ١٤و ١٥و ١٦) .

(١) انظر قصة إبراهيم فى سورة الذاريات .

كأن كاتب القصة أُعجب بما جاء فى القرآن الكريم ، فنسبه إلى شمشون ، ثم استقى بقية قصته من المصادر البابلية التى تحكى قصة جلجامش الذى قتل الأسد على الطريقة التى نسبت إلى شمشون !! .

* * *

ويتحدث (سفر حزقيال) عن عودة الحياة إلى إسرائيل بعد الشتات ، حاكياً ما حدّث به القرآن عن إبراهيم عليه السلام حين طلب إلى الله أن يريه كيف يحيى الموتى .

كما يحكى (سفر دانيال) قصة فرعون مع يوسف ، فى صورة جديدة مع نبوخذ نصر ، ويحكى قصة إبراهيم مع (النمرود) فى صورة شدرخ وميشخ وعبدنغو مع نبوخذ نصر .

وحاول أن يجدد محنة إبراهيم مع النمرود ، فكانت محنة دانيال مع داريوس فى جب الأسود ، بدلاً من النار . وقد سبق بيان هذا فى الفصل السابق .

* * *

ويحدّث (سفر الملوك الأول) بقصة تتردد فى كتب الأدب العربى ، منسوبة إلى أحد ملوك الفرس تارة ، وإلى أحد بنى العباس تارة .. ولعل نسبتها إلى بنى العباس أشبه بنسبها إلى سفر الملوك .

تقول القصة : (كان لنابوت اليزرعيلى كرْم فى يزرعيل ، بجانب قصر أخاب ملك السامرة ، فكلم أخاب نابوت ، قائلا : أعطنى كرمك فيكون لك بستان بقول ، لأنه قريب بجانب بيتى ، فأعطيك عوضه كرما أحسن منه ، أو إذا حسن فى عينيك أعطيتك ثمنه فضة ، فقال نابوت لأخاب : حاشا لى من قبل الرب أن أعطيك ميراث أبى ، فدخل أخاب بيته مكتئباً مغموماً) .. وسألته فى هذا امرأته إيزابيل مستنكرة : (أأنت الآن تحكم على

إسرائيل ؟ قم كل خبزاً ، وليطب قلبك) .. واحتالت على نابوت حتى مات رجماً من شيوخ وأشراف المدينة ، ثم قالت لأخاب : (قم ، رِثْ كرم نابوت اليزرعيلى) .

وزادت القصة الإسرائيلية على الحكاية العربية الفارسية أن الرب استنكر من أخاب أن يقتل ويرث ، وتوعده : (فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت ، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً) ــ (الملوك الأول / ٢١) .

* * *

ولم يكتف كتّاب الأسفار بالأخذ عن القرآن الكريم ، أو بما توردة الثقافة الإسلامية ، بل أخذوا عن الثقافات المنتشرة فى البيئة العربية ، وفى البيئات القريبة منها .. ومن ذلك تصوير كاتب (حزقيال) لقاء الرب ، الذى يذكرنا بالوحش القوى ذى الرءوس السبعة فى الأساطير الأوجاريتية ، وبصورة رافانا رأس أوغاد رامايانا فى الأساطير الهندية ، وبما جرى فى قلم ابن حسام الفارسى فى خاور نامة وهومير فى الأوديسة ، يعرضان صور الحيوانات الخرافية[1] .

ولقد أجاد كاتب حزقيال وصف نعم الرب على إسرائيل ، وسخطه حين كفرت بأنعم الله ، وتطاولت أورشليم برجاساتها ، فأدانها ، وقضى عليها بالتخريب والسقوط فى أيدى الأعداء ، وفعل ما فعله أشعياء ، فأدان الأمم كلها ، دون تمييز بينها ، وشهّر بخطأ موآب وصور ومصر وأشور ، وأنذرها بالهلاك والسقوط ، وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التشهير فقال :

(مخرجك ومولدك من أرض كنعان ، أبوك أمورى ، وأمك حثية ، أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سرتك ، ولم تغسلى بالماء للتنظيف ، ولم

(١) انظر الفصل السابق .

تملحى تمليحاً ، ولم تقمطى تقميطاً ، لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لترقّ لك ، بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت ، فمررت بك ، ورأيتك مدوسة بدمك ، فقلت لك : بدمك عيشى ، قلت لك : بدمك عيشى جعلتك ربوة كنبات الحقل ، فربوت وكبرت ، وبلغت زينة الأزيان ، نهد ثدياك ، ونبت شعرك ، وقد كنت عريانة وعارية ، فمررت بك ورأيتك ، وإذا زمنك زمن الحب ، فبسطت ذيلى عليك ، وسترت عورتك ، وحلفت لك ، ودخلت معك فى عهد ، يقول السيد الرب : فصرت لى ، فحممتك بالماء ، وغسلت عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت ، وألبستك مطرزة ، ونعلتك بالتُّخس ، وأزّرتك بالكتان ، وكسوتك بزاً ، وحليتك بالحلى ، فوضعت إسورة فى يدك ، وطوقاً فى عنقك ، ووضعت خزامة فى أنفك ، وأقراطاً فى أذنيك ، وتاج جمال على رأسك ، فتحليت بالذهب والفضة ، ولباسك الكتان والبز والطرز ، وأكلت السميد والعسل والزيت ، وجمُلت جداً جداً ، فصلحت لمملكة ، وخرج لك اسم فى الأمم لجمالك ، لأنه كان كاملاً ببهائى الذى جعلته عليك ، يقول السيد الرب : فاتكلت على جمالك ، وزنيت على اسمك ، وسكبت زناك على كل عابر) ـ (حزقيال / ١٦) .

لهذا (أهيّج عليك عشاقك ، الذين لأجلهم استحممت ، وكحلت عينيك ، وتحليت بالحلى ، وجلست على سرير فاخر ، أمام مائدة مفضضة ، ووضعت عليها بخورى وزينتى ، وأجعل غيرتى عليك ، فيعاملونك بالسخط ، ويقطعون أنفك وأذنيك ، وبقيتك تسقط بالسيف ، يأخذون بنيك وبناتك ، وتؤكل بقيتك بالنار ، وينزعون عنك ثيابك ، ويأخذون أدوات زينتك ، ويتركونك عريانة وعارية ، تكونين للضحك والسخرية ، تمتلئين سكرا وحزناً ، كأس التحيّر والخراب ، كأس أختك السامرة ، فتشربينها وتمتصينها ، وتقضين شقفها ، وتجتثين ثدييك) ـ (حزقيال / ٢٣) ـ مختارات أعيد ترتيبها .

كما أجاد بصورة مثيرة وصف بيت الرب فى أورشليم (حزقيال / ٤٠ / ٤٢) ـ وتصور قيام مدينة فاضلة ، للكهنة فيها الكلمة العليا ، يقيم فيها (يهوه) مع شعبه أبد الدهر .

* * *

وليس فن الوصف هو الذى يستعلن بصورة لائقة ، فى إطار التمثيل الفنى ، بل هناك فن الهجاء ، أو قل فن الشتيمة والسباب واللعنات التى تفوق أحدث ما وصلت إليه المهاترات السوقية فى الحارات والأزقة .

يقول (الرب) فى شعب إسرائيل وقد مرّد ، واستهواه بغيه وعدوانه وفجوره :

(ملعوناً تكون فى المدينة ، وملعوناً تكون فى الحقل ، ملعونة تكون سلتك ومعجنك ، ملعونة تكون ثمرة بطنك ، وثمرة أرضك .

يلصق بك الرب الوبأ حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها ، لكى تمتلكها ، يضربك الرب بالسُّل والحمّى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول ، فتتبعك حتى تفنيك ، وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاساً ، والأرض التى تحتك حديداً ، ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ، وينزل عليك من السماء حتى تهلك ، يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك ، فى طريق واحدة تخرج عليهم ، وفى سبع طرق تهرب أمامهم ، وتكون قلقاً فى جميع ممالك الأرض ، وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض ، وليس من يزعجها ، يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب ، فتتلمس فى الظُّهر كما يتلمس الأعمى فى الظلام ، ولا تنجح فى طرقك ، بل لا تكون إلا مظلوماً مغصوباً كل الأيام ، وليس من مخلّص ، تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها ، تبنى بيتاً ولا تسكن فيه ، تغرس كرماً ولا تستغله .. إلخ) ـ (تثنية / ٢٨) .

* * *

أما فنّ الرثاء ، فقد نبغ فيه كتّابه الذين نسبوه إلى أرمياء ، وقد وقف على أطلال أورشليم ينعى من بناها ، ويتحدث حديثاً مراً عما أصابها .

والدليل على أن مراثى أرمياء من عمل أفراد عديدين ، هذا الاختلاف الموجود بين ترتيب حروف الهجاء فى بعضها ، وأن كل قصيدة وحدة مستقلة (1) .

لكن ، مع هذا ، فقصائد هذا السفر الذى يبلغ خمسة أصحاحات ـ تترجم عن عمق الفجيعة فى وجدان هذا الشعب الممزق ، والأسى الذى يغيم فى العيون حتى تفقد طريق الأمل ، والحسرة المشوبة بالتوبة والرجاء فى الخلاص من تلك الأغلال التى أكلت صلابة أقفيتهم ، والمستنقعات الآسنة اللزجة التى طمرت روح التمرد فيهم .

(من العلاء أرسلَ ناراً إلى عظامى ، فسرت فيها ، بَسطَ شبكة لرجلى ، ردّنى إلى الوراء ، جعلنى خَرِبة اليوم كله ، مغمورة ، شدّ نير ذنوبى بيده ، ضُفِرت ، صعدت على عنقى .

كلت من الدموع عيناى ، غلَت أحشائى ، انسكبت على الأرض كبدى .

سيّج على ، ثقّل سلسلتى ، قلّت سُبلى ، هُوَ لى دُبّ كامن ، أسد فى مخابىء ، ميّل طرقى ومزقنى ، جعلنى خراباً ، مدّ قوسه ونصبنى كغرض للسهم .

انهالت حجارة القدس فى رأس كل شارع ، بنو صهيون الكرماء الموزونون بالذهب النقى كيف حسبوا أباريق خزف ، عمل يدى فخار ؟ بنات آوى أيضا أخرجت أطْباءها ، أرضعت أجْراءها ، أما بنات شعبى فجافية، كالنعام فى البرية ، لصق لسان الراضع بحنكه من العطش ، الأطفال

(1) التوراة الهيروغليفية ـ ص ١٧٠ .

يسألون خبزاً ، وليس من يكسره لهم ، لصق جلدهم بعظمهم ، صار يابسا كالخشب ، كانت قتلى السيف خيراً من قتلى الجوع ، لأن هؤلاء يذوبون مطعونين لعدم إثمار الحقل ، أيادى النساء الحنائن طبخت أولادهن ، صاروا طعاماً لهن ، فى سحق بنت شعبى أتمّ الرب غيظه ، سكب حموّ غضبه ، وأشعل ناراً فى صهيون ، فأكلت أسسها .

قد صار ميراثنا للغرباء ، بيوتنا للأجانب ، صرنا أيتاماً بلا أب ، أمهاتنا كالأرامل ، شربنا ماءنا بالفضة ، حطبنا بالثمن يأتى .

مضى فرح قلبنا ، صار رقصنا نَوْحا ، سقط إكليل رأسنا ، ويل لنا ، لأننا قد أخطأنا) ـ عبارات متنوعة من مراثى أرمياء .

* * *

وفن الغزل يأخذ صورته الشعرية ، كما هى عادته ، لكنه شعر يأخذ على دعاة الشعر الحديث بداية التجربة .

كنا نسمع أن أول من خاض تجربة الشعر الحديث جبران أو الريحانى ، وأحياناً بشر فارس أو محمد عوض ، وأحياناً على باكثير أو بدر شاكر السياب .. وقيل .. وقيل ..

لكن الأمثلة التى بين أيدينا تبعد كثيراً ، لا أقول أكثر من ألفى عام ، بل مئات السنين .

فى (نشيد الإنشاد) لون من الشعر الرمزى ، يغلب عليه جانب الحوار النفسى ، فى صورة الإفضاء بما يثقل النفس ، والكشف عما يعتلج فيها ، أخذاً بتكرار بعض الجمل ـ زعم بعض دعاة الشعر الحديث أنهم ابتكروا فن التكرار ـ توليداً للانفعالات والمعانى ، وتكثيفاً لها وتعميقاً :

(فى الليل ، على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى

طلبته فما وجدتـــــه !!

إنى أقوم ، وأطوف فى المدينة ، فى الأسواق ، وفى الشوارع .

أطلب من تحبـــه نفسى .

طلبته فما وجدتـــــه!!

ووجدنى الحارس الطائف فى المدينة ، فقلت:

أرأيتم من تحبــــه نفسى ؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً ، حتى وجدت من تحبـه نفسى

فأمسكتـــــه .

(ولم أرْخه ، حتى أدخلته بيت أمى ، وحجرة من حَبلت بــى) ـ (أصحاح / ٣) .

وقد تتداعى الخواطر النفسية ، وتنسكب الانفعالات من إناء كثير الفتحات ، تنسكب كالدموع ، وتتألق كالندى تنعكس عليها أشعة الشمس المتوهجة فى أعماق الذات ، متباينة المسارات والألوان :

(اجعلنى كخاتم على قلبك

كخاتم على ساعدك

لأن المحبة قوية كالموت

الغيرة قاسية كالهاوية

لهيبها لهيب نار لظى الرب

مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة

والسيول لا تغمرهـــــا

إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً

لنا أخت صغيرة ، ليس لها ثديان ، فماذا نصنع لأختنا فى يوم تخطب ؟!.

إن تكن سوراً فنبنى عليها برج فضة

وإن تكن باباً فنحصرها بألواح أرز

أنا سور وثدياى كبرجين

أيتها الجالسة فى الجنات ، والأصحاب يسمعون صوتك فاسمعينى

اهرب ياحبيبى ، وكن كالظبى ، أو كغُفْر الأيائل على جبال الأطياب) ـ (أصحاح / ٨) ـ والعيوب اللغوية نصيّة .

وقد يستحضر الحبيب ، سابحين فى عالم الخيال ، يتناجيان ، معبرين عما تجيش به نفساهما ، متطلعين إلى حيث تصبح الأحلام حقيقة ، ويعود الطائر الغريب إلى عشه :

(هأنت جميلة ياحبيبتى ، هأنت جميلة !!

عيناك حمامتان !!

هأنت جميل ياحبيبى ، وحلو !!

وسريرنا أخضر !!) ـ (أصحاح / ١) .

والمزاوجة بين الضمائر تعبيراً عن الاستغراق فى استحضار الصور ، واختلاطها ، وتتابع الظلال والخواطر ، قد يشير إليها قوله :

(ليقبلنى بقبلات فمــــه

لأن حبك أطيب من الخمر !!) ـ (أصحاح / ١) .

والتعبير بالصورة من أغنى المذاهب الحديثة ، لأنه يلون الانفعال ، أو يقدم الانفعال بألوانه ، ولأنه يجسّد المعانى ، ويشغل الحواس الفنية المختلفة ، ويؤلف ما بين المتكلم والمتلقى :

(أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح

فإنى مريضة حباً !!
صوت حبيبى هو ذا آت ، طافراً على الجبال
قافزاً على التلال
شفتاك ياعروسى تقطران شهداً
تحت لسانك عسل ولبن) ـ (أصحاح / ٥) .
(حبيبى قصصه مسترسلة ، حالكة كالغراب
عيناه كالحمام على مجارى المياه ، مغسولتان باللبن ، جالستان فى وقبيهما
خداه كخميلة الطيب ، وأتلام رياحين ذكية
شفتاه سوسن تقطران مرّاً مائعاً
يداه حلقتان من ذهب ، مرصعتان بالزبرجد
بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق
ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز
طلعته كلبنان ، فتى كالأرز
حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات
هذا حبيبى ، وهذا خليلى ، يابنات أورشليم) ـ (أصحاح ٥) .
(ما أجمل رجليك بالنعلين يابنت الكريم
دوائر فخذيك مثل الحلى ، صنعة يدىْ صنّاع
سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج
بطنك صُبرة حنطة مسيّجة بالسوسن
ثدياك كخشفتين توأمى ظبية

عنقك كبرج من عاج
قامتك هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد
قلت : إنى أصعد إلى النخلة ، وأمسك بعذوقها ، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ، ورائحة أنفاسك كالتفاح ، وحنكك كأجود الخمر) ـ (أصحاح / ٧) .

وكثيراً ما يستوحى الشاعر أعماقه ، ويعيش فى عالمه الخاص ، يحلم ، ويغنى ، ويتخذ من نسيج القمر الفضى مركبة ناعمة ينزلق بها على جليد حياته التى خمدت نارها ، أو يطير بها فوق سحاب ، يجمع الفراشات الذهبية العاشقة ، قبل أن تحرقها النار:

(أنا نائمة ، وقلبى مستيقظ
صوت حبيبى قارعاً :
افتحى لى يا أختى ، يا حبيبتى ، يا حمامتى ، يا كاملتى
لأن رأسى امتلأ من الطل ، وقُصصى من ندى الليل
قد خلعت ثوبى ، فكيف ألبسه ؟!
قد غسلت رجلىّ ، فكيف أوسّخهما ؟!
حبيبى مدّ يده من الكـــوة
فأنّت عليه أحشائى
قمت لأفتح لحبيبى ، ويداى تقطران مُرا
وأصابعى مُرّ قاطر على مقبض القفل
فتحت لحبيبى ، لكن حبيبى تحول ، وعبر!!
نفسى خرجت عندما أدبر
طلبته فما وجدتـــه

دعوتـــه فما أجابنى

وجدنى الحرس الطائف فى المدينة

ضربونى ، جرحونى

حَفَظة الأسوار رفعوا إزارى عنى

أحلفكن يابنات أورشليم

إن وجدتن حبيبى، أن تخبرنه أنى مريضة حبا) ـ (أصحاح / ٥).

* * *

وجد الباحثون المحدثون فى قصائد الغزل السومرية الخاصة بالزواج الإلهى مفتاحاً لحل اللغز المحيط بغزل (نشيد الإنشاد) ، على أساس أنـه (مجرد شعر غزلى مشبع بالحب والشهوة) مما لا ينسجم مع الصفة العامة لأسفار التوراة ، على الرغم من التفسير الساذج الذى لجأ إليه أحبار اليهود من أن المحب فى تلك الأغانى هو الله ، وأن العشيقة المتغزل بها شعب إسرائيل .. وكثرت التفسيرات والتوجيهات الأخرى من جانب المختصين بالدراسات التوراتية ، حتى اهتدى الباحث المختص بالدراسات المسمارية والتوراتية (ميك Theo philemeek) إلى أنّ تلك الأشعار الغزلية المنسوبة إلى سليمان من تراث تلك القصائد الغزلية السومريـة الخاصـة بالزواج الإلهى ؛ أى أنها من قبيل مجموعة (أغانى الأعراس) التى اقتبسها الكنعانيون ، من بين ما اقتبسوه ، من أدب حضارة وادى الرافدين ، وعنهم أخذ العبرانيون [١] .

ويرى ول ديورانت أنها (قد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين ، تأثروا بالروح الهيلينية التى دخلت البلاد اليهودية مع الإسكندر

(١) طه باقر ـ مقدمة فى أدب العراق القديم ـ ص ١٩٤ / ١٩٥ .

الأكبر ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت فى الإسكندرية ، وقطفتها نفس محررة من ضفاف النيل ، لأن العاشقَين يخاطب أحدهما الآخر بقوله : أخى وأختى ، كما كان يفعل المصريون القدماء) [١].

ومع هذا فشعر التوراة يحمل خصائص الشعر المصرى القديم ، من تقسيم القصيدة إلى مقاطع ، والتعبير عن الفكرة الواحدة تعبيراً مزدوجاً ، ووجود عدد محدد ومنتظم من الضربات الإيقاعية ، وكثرة الجناس اللفظى ، وتكرار الحرف الواحد فى أوائل الكلمات من الجملة ، أو فى الكلمة الأولى من السطر ، وكثرة المجاز والاستعارة والكناية [٢] ، مما يرجح تأثير الشعر المصرى .

وهذا لا يجحد ما تتمتع به النماذج التى بين أيدينا من إحكام الصيـاغة ، ومن سمات الأصالة والابتكار .

* * *

وأدب الحكمة الذى يلخص التجربة ، ويقدمها فى أوجز صورة ، يحرك الفكر ، وتثريه ، وتهز الوجدان ، وتصبح مُسلَّمة تدفع الحجة ، وتكشف البهتان ، وتضع الحلول السريعة .. هذا الأدب يكثر فى أسفار أيوب والأمثال والجامعة ، وينتثر فى غيرها :

(حيث لا بقر فالمعلف فارغ

كثرة الغلة بقوة الثور

العبد الفطن يتسلط على الابن المخزى ، ويقاسم الإخوة الميراث) ـ أمثال / ١٤ ـ ١٧)

(كل الأنهار تجرى فى البحر ، والبحر ليس بملآن

(١) قصة الحضارة ـ مج١ ـ جـ ٢ ص ٣٨٨ .
(٢) هامش ص ٧٥ من التراث اليهودى الصهيونى .

العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع

ما كان فهو يكون ، فليس تحت الشمس جديد

الذى يزيد علماً يزيد حزناً

الخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً

الكلب الحى خير من الأسد الميت

لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء

إذا امتلأت السحب مطراً تريقه على الأرض

من يرصد الريح لا يزرع ، ومن يراقب السحب لا يحصد) ـ (الجامعة / ١ و ٤ و ٩ و ١١) .

(إنهم يزرعون الريح ، ويحصدون الزوبعة) ـ (هوشع / ٨) .

يلاحظ بعض الباحثين أن أثر الآداب المصرية القديمة فى هذا المجال كبير ، إذ يجدون لأكثرها أمثالاً مصرية مضاهية (١) .

لكن لا يعيب هذه الأمثال أن تكون من بقايا الحكمة المصرية أو الفارسية أو الهندية ، لأن التجارب الإنسانية مشتركة ، وإن جرت على لسان آمن أينوب أو زارادشت أو بوذا .

لهذا لا أجد حاجة إلى المقارنة بين ما جاء هنا أو هناك ، على أساس التقليد أو التبعية لكاتب ما ، لأن آمن أينوب سبقه جمع غفير من الأنبياء والرسل والحكماء والفلاسفة ، وتاريخ الشرق القديم لا يقف عند بتاح حتب أو إدريس أو كونفشيوس .

ومع هذا ، فلاسبيل إلى إنكار ما ذهب إليه (برستيد) من أن أسفار التثنية وصموئيل وأرميا والمزامير والأمثال ، بل والشريعة اليهودية ذاتها ،

(١) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ـ جـ ٢ ص ١٢٨ .

استفادت كثيراً مما فى كتاب الحكمة المصرى ، ومن آمن أينوب بخاصة .

* * *

أما الأدب القصصى فهو فن متقدم أجاد فيه كتّاب (الكتاب المقدس) ، إنه قصص هادف ، يأخذ طابع السرد تارة ، وطابع الحوار أخرى ، وقد يصل إلى مستوى العمل المسرحى .

يحكى سفر (راعوث) أنه حدثت مجاعة فى أيام حكم القضاة ، فتغرب أليمالك وامرأته نعمى وابناه محلون وكليون .

مات أليمالك ، وتزوج ابناه من عرفة وراعوث الموابيتين ، ومالبثا أن ماتا .

فكرت نعمى فى العودة ، بعدما سمعت (أن الرب افتقد شعبه ليعطيهم خبزاً) ، وقالت لكنتيها : (اذهبا ، ارجعا ، كل واحدة إلى بيت أمها ، وليصنع الرب معكما إحساناً ، كما فعلتما بالموتى وبى) .

أصرتا على مرافقتها ، فقالت : (هل فى أحشائى بنون بعد ، حتى يكونوا لكما رجالاً ؟) .

انصرفت عرفة ، (وأما راعوث فلصقت بها) .

كان (بوعز) رجلا جبار بأس ـ وهو من عشيرة أليمالك ـ رأى راعوث فى حقله تلتقط سنابل وراء الحاصدين ، فأكرمها .

احتالت نعمى لتتزوج راعوث منه ، فقالت : (اغتسلى ، وتدهّنى ، والبسى ثيابك ، ومتى اضطجع اكشفى ناحية رجليه ، واضطجعى ، وهو يخبرك بما تعملين) .

وكان أن أعلن (بوعز للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهود اليوم أنى قد اشتريت كل ما لأليمالك ، كل ما لكليون ومحلون من يد نعمى ، وكذا راعوث الموابية ، امرأة محلون ، قد اشتريتها لى امرأة ، لأقيم اسم الميت على ميراثه ، ولا ينقرض اسم الميت من بين إخوته ، ومن مكانه) .

ووُلدت راعوث عوبيدَ أبا يسَّى أبى داود عليه السلام .

وبهذا يكون القاصّ الماهر قد خدم هدفا دينياً ، إذ بيّن أن دم داود لم يتنجس بدم المؤابية ، ذات الخلق الطاهر ، والوفاء النادر .. وكأن راعوث – وقد لصقت بنعمى وآثرت العودة معها – قد تنكرت لقومها ، وتطهرت من أرجاسها ، وائتزرت بإزار بنى إسرائيل .

ولم يبرر القاص الماهر موقف راعوث من بوعز ، قبل (أن يشتريها له امرأة) ، وكأن شكاً لم يخالجه فى أن لقاءها الأول ببوعز قد أجنّ جنيناً ، ومن ثم يصبح داود سليل علاقة غير مشروعة !! .

** لكن ، يبدو أن المشروعية وعدمها رهن الثمرة المرجوة .

هذا سفر (أستير) – الذى لم يتورع أحد ربانى اليهود فى القرن الرابع الميلادى أن يقول : إنه لا يقل أهمية عن توراة موسى ، وإنه أرفع من مزامير داود وأسفار الأنبياء [1] – يصور الخُلق الإسرائيلى الذى يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، وكأنه يقول لقومه : إن تعاليم الشعب المختار لا تحول دون ركوب مركب الشيطان فى سبيل حماية هذا الشعب والانتقام من أعدائه :

(وشْنى) امرأة (أحشويرش) الذى ملك من الهند إلى كُوش ، تأبى أن تكون صورة ملكية تعلق على جدار ، فيكيد لها الملك بالزواج من غيرها .

يتخذ (مردخاى) اليهودى من ابنة عمه (أستير) الجميلة وسيلة للتسلط على الملك ، ثم وسيلة للانتقام ممن أساءوا إلى بنى إسرائيل .

تنجح أستير ، فيصلب الوزيرُ هامان وبنوه العشرة ، و (أعطى الملكُ اليهودَ فى مدينة فمدينة أن يجتمعوا ويقفوا لأجل أنفسهم ، ويُهلكوا ويقتلوا ويبيدوا قوة كل شعب وكورة تضادهم ، حتى الأطفال والنساء ، وأن يسلبوا

(١) التوراة الهيروغليفية – ص ١٧١ .

غنيمتهم) . وحدث أن كثيرين (من شعوب الأرض تهوّدوا ، لأن رعب اليهود وقع عليهم) ، إذ قتلوا من مبغضيهم أكثر من خمسة وسبعين ألفاً .

هذه القصة – كما قيل – ليست عبرية الأصل ، إنما هى فى التراث البابلى ملحمة حربية بين الآلهة البابليين والعيلميين ، إذ إن أستير فى الوقع هى عشتر ، وهامان هو إله العيلميين ، ومردخاى عبارة عن مردوك .

لهذا عارض كثيرون إقحامها على العهد القديم .

ثم إن أحداث القصة تثير تساؤلات ، فالشاه يبدو موافقاً على ما اتخذه هامان من إجراءات ، وفى موضع آخر يبدو كارهاً آسفاً .. وكيف يجهل هامان العلاقة بين مردخاى وأستير وعيونه فى كل مكان ، وهو الوزير ذو الكلمة والسطوة ؟ ثم إن التاريخ الإيرانى لا يعرف ملكة باسم فشنى(وشنى) أو أستير [1] !! .

ومع هذا ، فالأديب الإسرائيلى أجاد تهويد الأسطورة ، وجعل منها سفراً مقدساً .

** أما سفر (أيوب) فقصة أو مسرحية منسوجة حول أيوب النبى نسجاً حمل ول ديورانت على أن يقول : (لا شىء فى التوراة ، أو فى غير التوراة ، يضارعه فى قيمته الأدبية) [2] .

والتلمود ينسب هذا السفر إلى موسى ، على حين يجمع كثير من الباحثين المحدثين على أنه قد يكون أدومياً أو مصرياً ، والرأى القائل بمصريته يعتمد على أن الأثر الثقافى المصرى يطل علينا من ثنايا السفر ، فى مواضع كثيرة ، فما هو فى الواقع إلا صورة صادقة لقصة المتشائم المصرى القديم

(١) التوراة الهيروغليفية – ص ١٧٢ / ١٧٤ .

(٢) قصة الحضارة – مج١ – جـ ٢ ص ٣٩٦ .

الذى يرجع تاريخه إلى نحو ألف وخمسمائة عام ، قبل ظهور أيوب الكتاب المقدس [1] .. وكما أورد بريستد فى (فجر الضمير ص ١٨٢) أن هذه القصة المصرية (موضوع يصف الحالة العقلية والتجارب الباطنة لنفس معذبة ، تتألم مما حاق بها من الظلم وسوء الطالع) ، ويعلق عليها بقوله : (وهى فى نظرنا تعد أقدم مقال يمثل لنا صورة مما ورد فى سفر نبى الله أيوب) ، بل (أول صرخة من متألم برىء وصل إلينا صداها من عصور ذلك العالم القديم) .. وقد أورد منها مقاطع تمثل الظلم الذى نزل به ، والفساد الذى أحاط بكل ما حوله ، ورغبته المخلصة فى تطهير العالم ، وأمله الصادق فى أن تكون (الآخرة) عدلاً وسلاماً وأمناً .

وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن الحضارة المصرية القديمة سبقت الحضارة البابلية بأكثر من ألف عام ، وأن زارادشت قد أفاد كثيراً من الديانة المصرية ، كما أخذ الفرس كثيرا من العمارة والفنون المصرية ، ثم جاءت العبرية لتأخذ عن بابل وأشور وفارس ، بحكم الأسر البابلى ، أو لتأخذ عن الكنعانيين الذين كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو الحضارى ، وكانوا على اتصال بحضارة مصر وبحضارة وادى الرافدين ، قبل أن يغزو العبرانيون بلادهم ، فلما جاء العبرانيون اتخذوا لغة الكنعانيين لغة لهم ، وثقافة الكنعانيين ثقافة لهم ، هذا إذا لم تكن ذاكرة اليهود قد احتفظت بالأصل المصرى مباشرة إبان الوجود فى مصر قبل (الخروج) .

وليس ما يحول دون الظن أن يذكر أدب وادى الرافدين ـ الذى كان معبرا للثقافة المصرية من جانب ، ورافداً معها من جانب آخر ـ بما بقى فى الوجدان اليهودى ، فيكون دافعاً إلى الانتقاء ، واستعادة وجود عزيز ، هم حريصون على الانتساب إليه ، والارتباط به ، وادعاء (ملكيته) .

(١) التوراة الهيروغليفية ـ ص ١٤٥ .

وثمة قطعة أدبية بابلية بعنوان (لأمجدنّ رب الحكمة) ، يمكن أن تكون دليلاً على صدق هذا (الظن) .

جاء على لسان (البطل) البابلى ، ذلك العبد الصالح الذى أطاع الآلهة ، وسار بموجب سننها وتعاليمها ، وأطاع السلطة المدنية وقوانينها ، فلم يذنب قط :

(لم أعرف سوى الصلاة والعبادة ، وكانت أفكارى مشغولة بالتضرع إلى الآلهة ، والتضحية لها ، وكانت أيام عبادة الآلهة أيام سرور قلبى ، والأيام التى أسير فيها فى مواكب الآلهة أيام نصرى وكسبى فى الحياة ، وكان تمجيد الملك سروراً لقلبى ، والموسيقا التى تعزف له مصدر حبورى وغبطتى ، أوصيت أهلى وتبعى أن يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها ، وعلّمت الجند ليطيعوا القصر ، عارفا بذلك أن هذه الأشياء مما تسر الآلهة .. إلخ) .

وعلى الرغم من صلاحه وتقواه وطاعة أولى الأمر يجد نفسه وقد حلت به وبساحته المصائب والشرور ، فيقول :

(لقد أتى مرض « آنو » على جسمى وغطاه كالرداء ، وأصبح النوم كالشبكة التى تصطادنى ، أذناى مفتوحتان ، ولكنهما لا تسمعان ، لقد استولى على جسمى الضعف ، وأصبح السوط الواقع علىّ يُرعبنى ويخيفنى ، يطاردنى معذبى فى النهار ، ولا يترك لى الراحة فى الليل ، لقد خذلنى الإله ، لم يأت إلىّ لمساعدتى ، ولم تعطف علىّ آلهتى ، فتخلصنى من مصائبى) .

ويستمر مؤلف هذه القطعة الأدبية الذى ينكر إمكان تطبيق مقاييس القيم البشرية على الآلهة ، فالإنسان ضئيل حقير قاصر النظر ، لا يستطيع استكناه الحكمة فى أعمال الآلهة وتصرفاتها ، فيحكم عليها بموجب مقاييسه وقيمه القاصرة .

جاء على لسان ذلك المعذب الصالح ، كأنه يعتذر عما بدر منه :

(إن ما يبدو صحيحاً فيستحق الثناء بعين المرء قد يكون محتقراً بأعين الآلهة ، وما قد يتراءى للمرء من أنه قبيح ردىء قد يكون حسناً بعين إله المرء ، فمن ذا الذى يستطيع أن يدرك فكر الآلهة وقصدها فى أعماق السماء ؟ إن أفكار الآلهة كالمياه العميقة ، فمن يستطيع سبر غورها ؟ وكيف يستطيع البشر ـ وهم محفوفون بالظلام ـ أن يدركوا قصد الآلهة وطرقها ؟) .

نفس الأفكار الواردة على لسان أصدقاء (أيوب) :

وتنتهى قصة البابلى ، كما جاء فى قصة أيوب النبى ، بأن ما أصابه إنْ هو إلا بلوى وامتحان من جانب الآلهة ، التى ترفع عنه العذاب بعد حين ، وتحرره من آلامه[1] .

** وتعرض قصيدة أخرى ـ وجدت ضمن مجموعة الآداب البابلية التى خلفها أشور بانيبال ـ هذه المشكلة الإنسانية عرضا أدق ، حين يتحدث (تابى ـ أتول ـ أنليل) ، واصفا مالاقاه من صعاب :

(طمس على مقلتى ، كأنما أغلقها بقفل
ووقر أذنى كأذنى الشخص الأصم
وكنت ملكاً فصرت عبداً
وأساء رفاقى معاملتى ، كأن بى جِنّة
ابعثْ إلىّ العون ، ونجنى من الوهدة التى احتفرت لى
بالنهار حسرات عميقة ، وبالليل بكاء
وطول الشهر صراخ ، وطول العام شقاء

* * *

(1) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ـ جـ ١ ص ٢٤٢ / ٢٤٤ .

كأنى لم أعط الإله نصيبه على الدوام
ولم أبتهل إليه وقت الطعام
كأنى إنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه
لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله
وعودت شعبى أن يعظم اسم الإله
وكنت أظن أن هذا كله مما يسّر أى إله !!

* * *

لقد لفّنى الهمّ كأنه شبكة
تتطلع عيناى ولا تبصران
أذناى مفتوحتان ولا تسمعان
سقط الدنس على عورتى
هاجم الغُدد التى فى أحشائى
أظلم الموت جسمى كله
لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى مؤتلفة
أقضى الليل ين أقذارى كما يقضيه الثور !!)

ثم يجهر بإيمانه كما فعل أيوب :

(لكنى أرى اليوم الذى تجفّ فيه دموعى
اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية
ويومئذ تكون الأرواح رحيمة بى) .

ثم تنقلب الأحوال كلها سعادة وهناءة ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ،

ويشفى (تابى) من جميع أمراضه ، إذ تهب عاصفة تطرد شياطين المرض كلها من جسمه ، ويسبح بحمد (مردوك) ، ويقرّب له القرابين النفيسة ، ويهيب بالناس جميعا ألا يقنطوا من رحمة الله [1] .

** هذا العرض السريع لأيوب البابلى يؤكد أثر فكر وادى الرافدين فى تدوين العهد القديم ، إبّان الأسر الطويل . فإذا جاءت (مسرحية أيوب) بهذه القوة ، فلأنها جمعت بين روافد مختلفة ، وكان للعامل النفسى – فى ظل الأسر – المحرك الدرامى فى الصراع داخل نفس أيوب ، وبين أيوب وصحبه .

* * *

ينعقد مجلس الرب مع أبنائه الملائكة ، ويحدث تحدّ بين الرب والشيطان .

الرب يرى أن أيوب (ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل مستقيم ، يتقى الله ، ويحيد عن الشر .

والشيطان يرى أن مردّ هذا كله إلى نعم الله عليه : (ابسط يدك الآن ، ومسّ كل ما له فإنه فى وجهك – يجدّف عليك) .

وكان أن استولى السبئيون والكلدانيون على الجمال والبقر والأتن وقتلوا الغلمان ، وسقطت نار من السماء فأحرقت الغنم ، وهبّت ريح دفنت الأبناء والبنات والغلمان تحت أنقاض بيت أخيهم الأكبر .

قال أيوب : (عرياناً خرجت من بطن أمى ، وعرياناً أعود إلى هناك ، الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً) .

لم ييئس الشيطان ، فالتحدى ما يزال قائماً ، لأن (كل ماللإنسان يعطيه لأجل نفسه) ، لهذا (ضرب أيوب بقرح ردىء ، من باطن قدمه

(1) قصة الحضارة – مج١ – جـ ٢ ص ٢٥٦ / ٢٥٨ .

إلى هامته) ، وساءت حاله ، حتى اجتمع إليه أصحابه يرثون له ويعزّون ، وأخذ الضعف يتسرب إلى نفسه ، حتى لامه (أليفاز) قائلاً :

(الآن إذ جاء عليك ضجرت ؟! إذ مسّك ارتعت ؟! الغيظ يقتل الغبى ، والغيرة تميت الأحمق ، إن البليّة لا تخرج من التراب ، والشقاوة لا تنبت من الأرض ، ولكن الإنسان مولود للمشقة) .

ولأن مصيبة أيوب (أثقل من رمل البحر) ، قال متضرعاً إلى الله مسترحماً :

(الليل يطول وأشبع قلقاً ، حتى الصباح .. لبس لحمى الدود مع مدر التراب ، جلدى كرِش وساخ ..إن قلت فراش يعزّينى تريعنى بالأحلام ، وترهبنى برؤى .. قد أذنبت .. حتى متى لا تلتفت عنى ، ولا ترخينى ، ريثما أبلع ريقى ؟!) .

بلدد : مستنكراً : (هل الله يعوّج القضاة ؟! أو القدير يعكس الحق ؟! الله لا يرفض الكامل ، ولا يأخذ بيد فاعلى الشر) .

أيوب : بعد استغراقة صوفية طويلة (لا أبالى بنفسى ، رذلت حياتى ، هى واحدة .. أنا مستذنب ، فلماذا أتعب عبثا ؟!) .

صوفر : (إن الله يغرمك بأقل من ثمنك .. أإلى عمق الله تتصل ، أم إلى نهاية القدير تنتهى ؟!) .

أيوب : (للمبتلى هوان فى أفكار المطمئن .. ما تعرفونه عرفته أنا أيضاً ، ولكنى أريد أن أحاكم إلى الله .. اسكتوا عنى فأتكلم أنا ، وليصبنى مهما أصاب ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أزكّى طريقى أمامه .. كم لى من الآثام والخطايا ؟! أعلمنى ذنبى وخطيتى !! لماذا تحجب وجهك ، تحسبنى عدواً لك ؟! أترعب ورقة مندفعة ، وتطارد قشاً يسا ؟! من يخرج الطاهر من النجس ؟!) .

أليفـــاز : (هل تنصت فى مجلس الله ، أو قصرت الحكمة على نفسك ؟!) .

أيـــوب : (معزون متعبــون كلكم .. لو كانت أنفسكم مكان نفسى !! روحى تلفت ، أيامى انطفأت ، إذا رجوت الهاوية بيتاً لى ، وفى الظلام مهدت فراشى ، وقلت للقبر أنت أبى ، وللدود أنت أمى وأختى ، فأين إذن آمالى ؟! آمالى من يعاينها ؟!) .

بلـــدد : (إلى متى تصنعـون أشراكاً للكلام ؟! يأيها المفترس نفسه فى غيظه ، هل لأجلك تخلى الأرض ، أو يزحزح الصخر من مكانه ؟!) .

أيـــوب : (لماذا تطاردوننى كما الله ، ولا تشبعون من لحمى ؟!) .

صوفـــر : (تعبير توبيخ اسمع !! أما علمت أن هتاف الأشرار من قريب ، وفرح الفاجر إلى لحظة ؟!) .

أيـــوب : (احتملونى وأنا أتكلم ، وبعد ذلك استهزئوا .. لماذا تحيا الأشرار ويشيخون ، نعم ، ويتجبرون ؟! نسلهم قائم أمامهم معهم ، وذريتهم فى أعينهم ، بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله ، ثورهم يلقح ولا يخطئ ، بقرتهم تنتج ولا تسقط ، يقضون أيامهــم بالخير .. فى لحظة يهبطون إلى الهاوية ، الله يخزن إثمه لبنيه .. هوذا قد علمت أفكارهم ، فكيف تعزوننى باطلاً ؟!) .

أليفـــاز : (هل ينفع الإنسانُ الله ؟ بل ينفع نفسه الفطن !!) .

أيـــوب : (حفظت طريقه ولم أحِدْ ، من وصية شفتيه لم أبرح) .

بلـــدد : (السلطان والهيبة عنــده) .

أيـــوب : (إنه مادامت نَسْمتى فىّ ، ونفحة الله فى أنفى ، لن تتكلم شفتاى إثماً ، ولا يلفظ لسانى بغشّ ، حتى أسلم الروح ، لا أعزِل كَمالى عنّى) .

ويعترف أيوب بأن (مخافة الله هى الحكمة) ، لكنه بشر ، يقارن بين ماضيه : (كنت عيوناً للعُمى ، وأرجلا للعُرج) ، وبين حاضره : (الليل ينخر عظامى فىّ) ، فيصرخ : (ليزِنّى فى ميزان الحـق ، فيعـرف الله كمالى .. من لى بمن يسمعنى ؟!) .

(فكفّ هؤلاء الرجال الثلاثة عن مجاوبة أيوب ، لكونه باراً فى عينى نفسه) .

وحمى غضب أليهو بن برخئيل البوزى ـ الذى كان يسمــع ولا يتكلم ـ لأنه فهم أن أيوب (حسب نفسه أبر من الله) ، فقال :

(أى إنسان كأيوب يشرب الهزء كالماء ، ويسير متحــداً مع فاعلى الإثم ، وذاهباً مع أهل الشر ، لأنه قال : لا ينتفع الإنسان بكونه مرضياً عند الله ، إن كنتَ باراً ، فماذا أعطيته ؟ وماذا يأخذ من يدك ؟!) .

يُسمع صوت الرب من العاصفة ، معاتباً أيوب الذى أضنته شقوته :

(أين كنتَ حين أسّستُ الأرض ؟ عندما ترنّمتْ كواكب الصباح معاً ؟ من حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم ؟ إذ جعلت السحاب لباسه ،والضباب قماطه ؟ أين الطريق إلى حيث يسكن النور ؟ والظلمة أين مقامها ؟ أدَخلتَ إلى خزائن الثلج ؟ أم أبصرت مخازن البَرد ؟ هل تربط أنت عقد الثريا ؟ هل عرفت سنن السموات ؟ أترفع صوتك إلى السحب ، فتعميك فيض المياه ؟ أترسل البروق فتذهب لها وتقول ها نحن ؟ أمِنْ فَهْمك يستقلّ الضباب ، وينشر جناحيه نحو الجنوب ؟ أو بأمرك يحلق النسر ويعلى وكره ؟!) .

أيـــوب : (هأنا صغير ، فماذا أجاوبك ؟) .

الـــرب :(لعلك تناقض حكمى ، تستذنبنى ، لكى تتبرر أنت؟)

أيـــوب :(قد علمت أنك تستطيع كل شيء ، ولا يعسر عليــك

أمر .. بسمع الأذن قد سمعت عنك ، والآن رأتك عينى ، لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد) .

ورضى الله عن أيوب ، وبارك أخراه أكثر من أولاه .

** صورة مسرحية ، تتناول قضية فلسفية ، بأسلوب هو مزيج من الشعر الصوفى المتغنى بقدرة الله ، والقلق النفسى الذى قد يصل إلى حد الرفض والتمرد .. وما أكثر الحالات التى تتسع فيها النفوس المرهفة لنزعتى التصوف والتمرد ، حيث تكونان كالشىء وظله ، أو كالأصل والصورة ، الظاهر والباطن .

* * *

أما (المزامير) فلم تخرج عما ورد فى سفر أيوب من معان ، وإن صيغت فى شكل ابتهالات ، يكثر فيها التنبؤ بظهور منقذ إسرائيل ، حلم المعاناة الطويلة الذى يشبه (مثراس) فى الزارادشتية ، الذى يجىء ليحكم بين الناس ، ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين ، وهو الذى تحوّل فى لغة (الشيعة) إلى (المهدى المنتظر) .

وهناك من يرى أن معظم المزامير ترجع إلى الأدب البابلى ، إذ كان الأثر البابلى شائعاً فى فلسطين قبل السبى ، منذ عهد (أحز) و (منسّى) ، حيث انتقلت الديانة البابلية وقتذاك بمزاميرها وترانيمها الخاصة ــ وكانت تغنى فى الأعياد ــ إلى أورشليم .

يقول نبوخذ نصر الفخور ، مخاطباً (مردوك) فى تذلل وخضوع :

(إذا لم تكن أنت يارب ، فماذا يكون للملك الذى تحبه وتنادى باسمه ، وستبارك لقبه حسب مشيئتك ، وتهديه صراطاً مستقيما ؟

أنا الأمير الطائع لك ، باق كما صنعتنى يداك

إنك أنت خالقى

وأنت الذى حكّمتنى فى جيوش العباد

وبمقتضى رحمتك يامولاى بدّل قوتك الرهيبة حباً ورحمة

وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك

وهبنى ما ترى فيه الخير لى)

ومن أناشيد التوبة نجد البابلى يقول :

(أنا خادمك ، أضرع إليك ، وقلبى مفعم بالحسرات

إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب

إنك لتنظر إلى الرجل فيعيش ذلك الرجل

فانظر إلىّ بعطف حق ، وتقبّل دعائى) .

ويقول آخــــر :

(أى إلهى ، لا تنبذ خادمك

لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده

والذنب الذى أذنبت بدّله رحمة

والظلم الذى ارتكبته مُرْ الريح أن تحمله

واخلع ذنوبى الكثيرة كما يخلع المرء الثياب)

ومن الترانيم التى ما تزال باقية فى الطقوس السامية :

(رب ، إن ذنوبى عظيمة ، وأفعالى السيئة كثيرة ، إنى أرزح تحت أثقال العذاب ، ولم يعد فى وسعى أن أرفع رأسى ، إنى أتوجه إلى إلهى الرحيم أناديه ، وأنا أتوجع وأتألم ، رب لا ترد عنك خادمك)[1] .

** وقد اهتدى علماء المصريات إلى الصلة القوية بين المزامير العبرية

(1) قصة الحضارة ــ مج١ ــ جـ ٢ ص ٢٢٣ / ٢٢٦ .

وبعض فقرات نشيد أخناتون ، وبخاصة قصيدة الشمس ذات الأثر البارز فى المزمور الخامس والخمسين بعد المائة [١] .

وأغلب الظن ــ كما يقول ول ديورانت ــ أن طائفة من الشعراء قد كتبوا هذه المزامير بعد الأسر البابلى بزمن طويل يرجح أن يكون فى القرن الثالث قبل الميلاد [٢] .

ويمكن تصديق ول ديورانت فيما هو من المزامير التى صيغت على نسق أناشيد أخناتون ، إذ إن بعض لفائف البرديات تحوى نصوصاً كاملة من مزامير داود ، مدوّنة باللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفى ، وهى تسبق مزامير داود المدونة باللغة والخط العبرانى بأكثر من ثلاثمائة عام ، ويضم متحف برلين ثلاث صفحات من كتاب أخناتون ، مطابقة لمثيلاتها فى أسفار التوراة .

وثمة صلة قوية بين موسى عليه السلام وأخناتون ، إذ إن موسى ــ كما يقول فرويد ــ قد تلقى علومه فى معبد أون الذى تخرج فيه أخناتون ، وقد آمن بعقيدة التوحيد التى نادى بها أخناتون وحاربها المصريون استجابة لكهنة معبد أمون ، وكان موسى ينشر عقيدة التوحيد بين اليهود ، وكان اليهود يرتلون تسابيح أخناتون فى معابدهم ، ويتغنون بأناشيده بمصاحبة الموسيقى فى مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية .

ولا ريب فى تناقل هذه التسابيح والأناشيد حتى وصلت إلى النبى داود الذى اشتهر بجمال صوته وإتقان عزفه على « القيثار » أحد الآلات الموسيقية الفرعونية المعروفة ، وعن طريق إجادة الغناء والعزف كانت نسبة أعمال أخناتون إلى داود [٣] .

* * *

---

(١) قصة الحضارة ـ مج١ ـ جـ ٢ ص ٣٨٦ ـ ولعل ديورانت رجع إلى نسخة من التوراة يختلف فيها عدد المزامير عن التى بين أيدينا ، إذ إن مزامير النسخة الرائجة فى العربية ١٥٠ مزموراً .

(٢) المصدر السابق ـ جـ ٢ ص ٣٨٦ .

(٣) مجلة الهلال ـ ديسمبر ١٩٩٢ .

و(الأمثال) كذلك لم تخرج عما جاء فى سفر أيوب ، وإن وردت فى صورة وصايا تحاول التوفيق بين اليهودية والأفلاطونية ، وتهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج فى الثقافة اليونانية أن يعودوا إلى الشريعة ، كل ذلك فى نثر لا يقل فى جزالته وقوته عن أى نثر آخر منذ عهد أشعياء .

وقد نسبها عالم المصريات (أدولف أرمان) إلى كتاب (تعاليم أمين ــ أم ــ أوبى) ، الذى يرجح أنه عاش حوالى الألف الأولى قبل الميلاد ، ويؤكد هذا بريستد فى (فجر الضمير ص ٣٤٧) بقوله :

(إننا نعرف الآن حكم أمينو بى هذه قد ترجمت إلى العبرية ، وقرأها العبرانيون ، وإن قسما هامّا منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم) .

يقول ول ديورانت عن كتاب (تعاليم أمين ــ أم ــ أوبى) إنه يتضمن ثلاثين حكمة فى السلوك الطيب ، يوصى بها ابنه ، وقد جاء فيها :

(لا تغمس قلمك فى المحبرة حتى تؤذى شخصاً آخر .

لاتغش فى المقاييس والأوزان ، ولا ترتش .

اقض بعدل ، لا تظلم الضعيف لصالح الغنى ، ولا تطرد من كان ملبسه غير مناسب .

لا تغش فى جباية الضرائب ، ولا تكن قاسياً كذلك .

إن جميع ما تفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ إن مكيالاً واحداً يعطيه الإله خير من خمسة آلاف تكتسبها بغير حق .

لكى يكون المرء كاملاً ، عليه أن يظهر دائماً باحتشام ورقّة وتواضع ، فالشخص الثائر كالشجرة التى تنتهى بأن تصير وقوداً ، أما الوديع فكالشجرة التى تحمل ثماراً فى الحديقة .

كن رحيماً فى كل شىء ، فلا تهزأ بالأعمى ، ولا تسخر من

القمىء ، ولا تسبب ضرًا للمقعد ، ولا تزدر رجلاً فى يد الإله ، ولا تغضب عليه إن سقط .

احذر الهموم ، لأن الإنسان لا يدرى ما سوف يكون فى الغد .

لا تبذر الكلام القبيح .

انقل فى مركبك كل من يطلب العبور ، طالما كان فيها مكان) .

وإلى جانب هذا الأثر المصرى ، هناك أثر بابلى أشورى ، ومما يدل على تعدد المصادر أنها لا رابطة تجمعها ، وليس فى أسلوبها وحدة أو تناسق ، فهى مجرد أدب شعبى تناقلته الألسنة ، وتوارثته الأجيال ، فغيّرته العصور ، وبدلته الأذواق ، حتى أتى عصر التدوين ، فقدر لها من أثبتها ، ونسبها إلى سليمان الحكيم [١] .

* * *

و(الجامعة) التى تكوّن مع سفرىْ أيوب والأمثال ما يعرف فى (العهد القديم) باسم أدب الحكمة والأمثال التى شاعت فى الشرق القديم ، وبخاصة عند البابليين وقدماء المصريين ـ ليست فى الواقع لسليمان ، وذلك لأن ابن داود يذكر فى هذا السفر أنه كان ملكاً على إسرائيل بأورشليم ، قبل تأليف (الجامعة) ، والعهد القديم يحدثنا أن سليمان ظل ملكاً حتى توفى ، كما أنه من المستبعد جداً أن يصف سليمان عصره بأنه عصر الظلم واستشراء الفساد ، فضلاً عن أن فلسفة (الجامعة) تحمل بين طياتها كثيراً من عبارات الكفر والإلحاد ، كما يغلب على هذه الفلسفة طابع التشاؤم الذى يغلب على الفلسفة العربية القديمة التى عرفتها الجزيرة منذ عصور بعيدة جداً ، سواء فى الأكادية أو العبرية أو العربية الجاهلية [٢] .

(١) التوراة الهيروغليفية ـ ص ١٤٥ / ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٦٤ / ١٦٧ .

نصحت الآلهة جلجامش بقولها : (أى جلجامش ، املأ بطنك ، وكن مرحاً بالليل والنهار ، بالنهار والليل كن مبتهجاً راضياً ، وطهّر ثيابك ، واغسل رأسك بالماء ، والق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ، واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك) .

وهذا أشبه بقول الجامعة : (اذهب كُلْ خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب طيب ، لأن الله ـ منذ زمان ـ قد رضى عن عملك ، لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ، ولا يعْوز رأسك الدهن ، التذ عيشا مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلك التى أعطاك إياها تحت الشمس) .

لكن جلجامش لا يزال باحثاً عن المتاعب فى سبيل الخلود ، ويظل فى رحلة الظلام غير مبال بنصيحة الآلهة ، متأوهاً من صميم قلبه ، لأن (قلب الإله بعيد بعد أطباق السموات الداخلية ، والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها) .

أما (الجامعة) فيرى كل شىء (باطل الأباطيل ، وقبض الريح) ، لأن (ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة) ، ولأن (الحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله ، وكلاهما ينتهى إلى جيفة منتنة) .. وهو ما حاول جلجامش أن يتوقاه ، فظل يعانى فى طلب الخلود .

ولعل هذه النظرة السوداوية عند (الجامعة) إنما كانت بسبب عدم التطلع إلى سعادة ما بعد الموت ، وإلى عدم الإيمان بالبعث ، وهو ما يتنافى مع أى رسالة سماوية .

* * *

بصورة موجزة يمكن القول إن (العهد القديم) صدى ثقافات كثيرة اعتملت فى وجدان وفكر شعوب الشرق الأدنى كله ، ولعل النصوص الكنعانية والفينيقية التى اكتشفت أخيراً فى (أوجاريت) أكبر دليل على أن كتّاب العهد القديم قاموا بدور الانتخاب تارة والامتصاص تارة أخرى ، من خلال ظروف طويلة متشابكة بين شعوب البحر المتوسط وغيرها ، فتولد هذا التراث الشرقى الكبير الذى بين أيدينا فى إطار (الكتاب المقدس) .

* * *

٨ ـ كتاب مقدس ..
عبارته تنفى قداسته !!

من يطالع العهد القديم يلتقى بمثل هذه العبارة:

(كان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا فى مراثيهم إلى اليوم ، وجعلوها فريضة على إسرائيل ، وهاهى مكتوبة فى المراثى ، وبقية أمور يوشيا ومراحمه ـ حسبما هو مكتوب فى ناموس الرب ـ وأموره الأولى والأخيرة ها هى مكتوبة فى سفر ملوك إسرائيل ويهوذا) ـ (أخبار الأيام الثانى / ٣٥) .

العبارة تشير إلى أن الكاتب ينقل عن كتب أخرى ، مثل ما جاء فى (أخبار الأيام الأول / ٢٩) .

(مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى ، وأخبار ناثان النبى ، وأخبار جاد الرائى) .

ومثل ما جاء فى (أخبار الأيام الثانى / ٩و١٢و٢٤) :

(أما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى ، ونبوءة أخيا الشيلوتى ، وفى رؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط) ؟

(أما هى مكتوبة فى أخبار شمعيا النبى ، وعِدُّو الرائى عن الانتساب) ؟ .

(ها هى مكتوبة فى مدرس سفر الملوك) .

لكن .. متى تمت الكتابة أو النقل ، ومن الكاتب أو الناقل ؟!

يكاد يجمع العلماء على أن الكتابة تمت فى عهد متأخر ، وطال زمن الكتابة والجمع تحت مؤثرات مختلفة .

ويكفى أنه ــ بعد أربعمائة وثمانين عاماً لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر ــ لم يكن يوجد فى بيت الرب الذى بناه سليمان إلا لوحا الشهادة اللذان كتبهما الرب بإصبعه لموسى ــ (الملوك الأول / ٦ و ٨).

ومع هذا نجد من يدعى أن موسى أُعد إعداداً خاصاً ــ حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م ــ ليبدأ فى كتابة الأسفار المقدسة التى فيها يسجل تاريخ ٢٥٠٠سنة خلت من قبله [(١)] .. فهل كانت الكتابة بالمصرية القديمة التى عرفها موسى ، أو بالآرامية فاليونانية فاللاتينية فالعربية التى تم النقل إليها بواسطة من لا يعرفون لغة موسى ؟! .

وهل كانت لموسى مراجع ومصادر ينقل عنها ، أو كانت وحياً يوحى ؟! .

وهل يبتدئ التاريخ الإسرائيلى بموسى أو بإسرائيل أو بإبراهيم أو بسام بن نوح ؟ .

وهل كان هؤلاء الأجداد العظام يدوّنون ، أو على علم بهذا التاريخ ؟.

(بعد السبى البابلى ، واندماج اليهود مع البابليين ، قل استعمال اللغة العبرية تدريجياً بين الشعب كلغة قومية ، وإن ظلت لغة مقدسة ، وأوشكت على الزوال ، حتى أن اليهود حوالى القرن الثانى قبل الميلاد احتاجوا إلى تراجم لقراءة الصلوات وتأدية الطقوس فى السبوت والأعياد ، وحلت محلها اللغة الآرامية ، فظهرت تراجم للعهد القديم فى لغات مختلفة ، أهمها الآرامية ، على يد أونقلوس ويوناثان بن عزئيل والحاخام يوسف ، وفى اليونانية ترجمه فى الإسكندرية ــ زمن بطليموس فيلاد لفوس (٢٨٥ / ٢٤٧ ق. م) ــ سبعون عالماً من اليهود ، قضوا فى ترجمته ــ كما يروى ــ

(١) مصادر الكتاب المقدس ــ ص ١٢ .

سبعين يوماً ، ثم ترجمه أخيلاس فى عهد أوريان (١٣٨ / ١١٧ ق . م) ، ثم ثيودوثيوس وسيماخوس فى أواخر القرن الثانى ق . م ، ثم إلى اليونانية الحديثة واللاتينية والسريانية ، والعربية على يد سعديا الفيومى ، حوالى عام ٩٤٢ للميلاد ، وهلم جرا) [(١)] .

النقل تم بلغات مختلفة ، ولكل لغة عاداتها ومصطلحاتها ، ولكل زمن لغته وموحياتها ، ولكل كاتب قدراته ومكوناته التنسية ، مما أدى إلى أننا نعثر فى أماكن كثيرة من التوراة على آثار حذف ملموس ، أو تكرار ممل ، أو تناقض واضح .. وثمة (عقائد وشرائع مختلفة ، تعكس الأفكار والنظم المتعددة ، التى كانت سائدة لديهم ، فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل) [(٢)] .

ولقد (استُهلك مادون من كثرة الاستعمال ، أو طوحت به السنون فى زوايا النسيان ، وبعضها قد أُفسد عمداً ، أو أهلك عرضاً ، وبعضها ضاع واختفى فى فترات الاضطهاد ، هذا كله بالإضافة إلى ما تطَلّبه وضع العهد القديم من زمن قد امتد إلى نحو ألف عام ، كما أن جمعه قد استغرق قروناً عديدة) [(٣)] .

والكهنة كانوا يعتمدون فى التدوين والجمع على ماسمعوه ، وماتلقاه الخلف عن السلف ــ رواية ــ من أخبار وأساطير ، وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو ما يتمنونه ، ويحلمون به حقيقة واقعة ، أو تاريخاً ماضياً ، وما هو إلا خيال يبلغ التعلق به مبلغ التصديق ، أو هو وهم يتخذ فى نفس الواهم صورة الحقائق المقررة ، ومن ذلك ما جاء فى سفر

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ــ ص ١٠٢.

(٢) د. على عبد الواحد وافى ــ اليهودية واليهود ــ مكتبة غريب بالقاهرة ــ ص ١٣ .

(٣) مصادر الكتاب المقدس ــ ص ٧/٦ ويلاحظ أن السيد القس يقول بعد ذلك : (إن نسخ الأسفار المقدسة التى وصلت إلينا بعد هذا الأمد المديد هى عين النسخ التى كانت فى ذلك الوقت) ــ ص ٨ .

(صموئيل الثانى _ ٨) من أن داود النبى (ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات) !! .

هذا إلى اختلاف المصادر ، لدرجة أن A - Lods استطاع سنة ١٩٤١م أن يميز فى الوثيقة (اليَهْوِيّة) ثلاثة مصادر ، وفى الوثيقة (اليهودية) ثلاثة مصادر ، وفى الوثيقة (الإلوهيمية) أربعة ، وفى سفر التثنية ستة ، وفى النص (الكهنوتى) تسعة، هذا عدا (حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين) ، كما يقول الأب ديفو .

وقد جرّ تعدد المصادر إلى تنافرات وتكرارات عديدة فى هذه النصوص ، وبخاصة فيما يتصل بالخلق وأنسال قابيل والطوفان واختطاف يوسف وما جرى له فى مصر ، والاختلافات الخاصة ببعض الأسماء ، والتصورات المختلفة للأحداث الهامة [1] .

إذا كان الأمر كذلك فقد حق لنا أن نتساءل :

هل (العهد القديم) قُدسىّ العبارة أو الدلالة ؟! .

هل الذين كتبوه يحملون صفة تشريعية تستوجب الطاعة ، أو هُم مجرد أدوات تسجيل تختلف قدراتها ؟! .

إذا سقمت العبارة بحيث تعطى انطباعاً سيئاً لدى جماهير القراء ، فهل نبقى على هذا الانطباع السيئ ، ونحافظ على شكل العبارة الموروث ، ولا حيلة لنا فى تغييره ؟! .

إذا كان الذين سجلوا ليسوا كتّاب الوحى ، أما يحق لنا إعادة التسجيل ، وبخاصة أن ما نملكه ليس ما يؤكد أصالته ؟! .

لننظر فيما عرض لنا أثناء القراءة الأولى ، ونترك لذوى البصيرة حق المراجعة .

* * *

(١) موريس بوكاى : ص ٢٩ .

ثمة أخطاء خاصة بالمعلومات العامة ، أو القريبة ، أو البديهية ، كثيرة فى أقلام كتّاب العهد القديم ، ومن ذلك :

يبدأ سفر تكوين بقوله : (فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله : ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهاراً ، والظلمة دعاها ليلاً ، وكان مساء وكان صباح ، يوماً واحداً) _ (تكوين / ١ _ ٥) .

وفق التكوين الجيولوجى للكون تمثل المياه مرحلة متأخرة ، كما أن النجوم لم تخلق حسب نص التوراة إلا فى اليوم الرابع ، فمن أين جاء النور، والظلمة والنور فى (التكوين) خاضعان لحركة النجوم والكواكب ، أو حركة الأرض فى مجموعتها الشمسية ؟ .

ثم إنه تحدّث عن النبات ، فقال : (لتنبت الأرض عشباً وبقلاً ، تبزر بزراً وشجراً ذا ثمر) (تكوين / ١) قبل أن تكون النجوم ، ومنها الشمس التى تحكم الإنبات ، ومنها الأرض أيضاً التى احتاجت ملايين السنين حتى تبرد قشرتها ، وتجرى مياهها .

هذا إلى ما هو أهم ، وهو أن خلق الأرض ليس سابقاً على خلق الشمس والقمر ، حتى تكون مياه ونبات ونور !! .

ثم إن إشارات سفر (تكوين / ٥ و ١١) عن الفترة الزمنية التى تفصل بين آدم وإبراهيم تقود إلى تحديد تاريخ آدم بحوالى ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح ، أى بعد ظهور الحضارة المصرية بعدة قرون ، مع أن الحضارة المصرية تمثل مرحلة متأخرة فى حياة الإنسان التى ترجع إلى عشرات ألوف السنين ، كما يدل على ذلك الكثير من الحفائر التى لا يتطرق الشك إلى معطياتها ، ومن خلالها يصل عمر الإنسان إلى مليونين وإلى خمسة ملايين ، فيما ورد من (التقديرات) .

ثم إذا كان نوح قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من خلق آدم ، حسب الإشارات الزمنية السابقة ، فإن الطوفان يكون قد وقع بعد ١٩٥٦ عاما من خلق أبينا الأول تقريباً ، لأن الطوفان حدث وعمر نوح أكثر من تسعمائة عام، فإذا كان الطوفان يخص الجنس البشرى كله ، وكل الكائنات الحية على الأرض ، فإنه يكون قد حدث قبل الأسرة الحادية عشرة فى مصر ، وأسرة أور الثالثة فى بابل ، ولم يتحدث التاريخ عن انقطاع الحضارة فى هذه المرحلة !! .

وأخطر من هذا كله أن كلمة (يوم) فى التوراة تعنى المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين ، أو غروبين متواليين للشمس ، وذلك بالنسبة لسكان الأرض ، ولم يكن بعد سكان ، ولم تكن شمس ، فإذا كان اليوم يعنى مرحلة زمنية تتسع للتغييرات (الكونية) ، فقد أصبح (يوم السبت) ـ بمفهوم ما جاء فى (الوصايا) ـ عبثاً من العبث !! .

جاء فى (تكوين / ٧) أن الطوفان استمر أربعين يوماً وأربعين ليلة فى حين ورد بعد ذلك فى نفس الأصحاح أن الطوفان استمر (١٥٠) يومــــاً ؟! .

* * *

ويلحّ سؤال : إذا كان سفر (تكوين) من الأسفار الخمسة التى أجمع المؤرخون ورجال الدين اليهودى والمسيحى على أنه من كتب موسى التى جاء بها عن الرب ، وكانت لغة موسى المصرية القديمة ، إذ إن موسى ـ كما ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس فلافيوس ـ كان (ضابطا فى الجيش المصرى ، ولم يخرج مع من خرجوا إلى سيناء ، التى كانت وقتذاك إقليماً مصرياً ـ إلا ليواصل حياته المصرية ، بعيداً عن استبداد الفرعون ، ولم ير موسى فلسطين ، وتوفى قبل أن تظهر العبرية إلى الوجود بأكثر من قرن) [١]

(١) التوراة الهيروغليفية ـ ص د .

ثم دونت كتب موسى قطعاً بغير العربية ، فمن أين جاءت هذه الاشتقاقات اللغوية ؟! .

قد يقال : إن العبرية والآرامية والعربية ذات أصول مشتركة ، لكن كثرة هذه الاشتقاقات فى صورتها العربية تجزم بأن الذين ترجموا التوراة إلى العربية كانت لهم حرية الحركة أكثر مما ينبغى ، وإلا كان علينا أن نقرر أن العربية والآرامية والعبرية لغة واحدة اختلفت لهجاتها ، وليس الأمر كذلك ، ثم إن المصرية القديمة بعيدة عن هذه المشاركة .

جاء على لسان آدم : (هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرئ أخذت) ـ تكوين ٢ ـ مفسراً كون حواء أخذت من أحد أضلاعه .

(ودعا آدم اسم امرأته حـواء ، لأنها أم كل حى) ـ (تكوين/ ٣).

(وولدت له قايين ، وقالت : اقتنيت رجلاً من عند الرب) ـ (تكوين / ٤) .

(ولعابر وُلد ابنان ، اسم الواحد فالج ، لأن أيامه قسمت الأرض) (تكوين / ١٠) .

(ودُعى اسمها بابل ، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض) ـ (تكوين ١١) ـ مع أن الأقرب إلى الحقيقة أن الأصل (باب أيل) ، أى بوابـة الرب ، وبلبلة الألســنة العالمية فى مكان بعينه لا يقوم عليه دليل ..

(وتدعـين اسمـه إسماعيل ، لأن الرب قد سمـع لمذلتـك) ـ (تكوين / ١٦) .

(يهرب لوط إلى مدينة صغيرة ، ومن ثم (دعى اسم المدينة صوغـر) ـ (تكوين / ١٩) .

(وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه

يعقوب) ـ (تكوين / ٢٥) .

(أقام إبراهيم سبع نعاج وحدها) ، بعدما حفر بئراً ، (لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع) ـ (تكوين / ٢١) .

ويمضى هذا التفسير الاشتقاقى فى كثير من الأسفار المقدسة ، مما قد يثير سؤالاً : هل هذا وارد فى الترجمة العربية فقط ؟ .

وإذا كان الأمــر كذلك ، فهل يباح للمترجم أن يغير فى النص المقدس ، لمجرد أن هذا اللون من التعليل استهواه ، فأنساه أحيانا تعليلا سُبق به ، مثلما ورد من (أن عبيد إسحق جاءوا وأخبروه عن البئر التى حفروا ، وقالوا له : قد وجدنا ماء ، فدعاها شبعة ، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليـوم) ـ (تكوين / ٢٦) .

وبهذا يكون مصدر تكذيب للأخبار المقدسة ؟! .

ويلاحظ أن إسحق بن إبراهيم ، أى لم يمض زمن يستدعى حفر البئر من جديد ، والبحث عن سبب آخر للتسمية !! .

* * *

ولا يقف أمر التكذيب عند حسن التعليل أو سوئه ، فإن كثيرا من الأخبار الواردة فى سفرى (تكوين) و (خروج) ـ أول أسفار توراة موسى ـ تحمل دلالة كذبها .. مثال ذلك :

** وسوست الحية لحواء أن تأكل من الشجرة المحرمة ، فكان العقاب للحية : (على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك) ، كما كان عقاب حواء (تكثيراً أكثر أتعاب حبَلك ، بالوجـع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك)ـ (تكوين / ٣) .

فهل كانت الحية لا تسعى على بطنها قبل هذه الحادثة ؟.

وهل هى تأكل تراباً أيام حياتها ؟ .

وما الظن بالتفسير الذى يرى أن الحية رمز الذكورة الذى هو سبيل إلى الحبل والولادة والتكثير ؟! وهل المرأة ـ دون بقية الإناث ـ يسيطر عليها الذكر ؟ .

وهل هى ـ من دون بقية الإناث ـ تعانى من آلام الحبَل والولادة ؟

وهل من العقاب أن تشتاق إلى زوجها ؟ .

وما الظن بالمرأة التى تسود وتتحكم فى ملايين الذكور ، مباشرة ، أو من وراء ظهر زوجها ؟! .

** ورد فى سفر (تكوين / ٢) : نُهى آدم عن الأكل من شجرة بعينها : (فأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت) ، والذى حدث أن آدم أكل منها ولم يمت ، بل عاش أكثر من تسعمائة سنة ، ثم كيف يدعى آدم إلى الخير وهو لا يعرفه ، وينهى عن عمل الشر وهو جاهل به ؟

ألا يكون فى التعريف بالشجرة المنهى عنها نوع من التجاوز ؟ .

ألا تكون الشجرة المحرمة على سكان (الجنة) هى شجرة (التكاثر) ، بسبب ما يتبع التكاثر من مشكلات إنسانية لا نهاية لها ؟ .

** تحدث سفر (تكوين / ٤و٥) عن مواليد آدم ، حتى ولد نوح ساما وحاما ويافث ، (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ، وولد لهم بنات ، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا ، فقال الرب : لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد ، لزيغانه ، هو بشر ، وتكون أيامه مائة وعشرين سنة) (تكوين / ٦) .

لماذا فصل بين الذكور والإناث ، فجعل الذكور أبناء الله ، والإناث بنات الناس ؟ .

أهو استفادة من موقف كفار العرب ، حين جعلوا الإناث لله والذكور لهم ، فاستنكر الله هذا فى قرآنه يقوله : ﴿ **فاستفتهم ، ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون** ﴾[1] .

ومن ثم سار كاتبو التوراة هذه السيرة ؟ ولماذا يغضب الله من هذا التزاوج بعد أن توالدت أجيال غفيرة ؟ ثم يحكم على الإنسان الذى اقترف هذا (الجرم) بأن (تكون أيامه مائة وعشرين سنة) ، ثم يذكر مواليد سام ، فإذا أعمارهم مئات السنين ؟! (انظر ، تكوين / ١١) .

** (وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له ، وأما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحق ابنه شرقا ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد حى) .

(وأسلم إبراهيم روحه ، ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعان أياما ، وانضم إلى قومه ، ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة) ـ (تكوين / ٢٥) .

خبران فى أصحاح واحد ، كيف صرفهم إلى أرض المشرق وهو بعد حى ، ثم حضر إسماعيل ابن سريته دفنه ؟ .

هل اتصل إسحق بأخيه إسماعيل بالبرق أو بالمسرة أو بالبريد ؟ .

أو أنه ضرب إليه بطن ناقة شهراً وعاد فضرب بطنها شهراً ، قبل أن يتم دفن إبراهيم ، حرصاً ووفاء لأخيه ، حتى يشارك فى تقبل عزاء أبيه ؟! .

(١) الصافات / ١٤٩ ـ ١٥٤ .

أو أنه حدث صدفة أن كان إسماعيل فى زيارة أبيه ؟ .

** (وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها ، وأنه ابن رفقة ، فركضت وأخبرت أباها ، فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته ركض للقائه) (تكوين / ٢٦) .

كيف يجتمع هذا فى خبر واحد ، إلا أن يكون يعقوب النبى كاذباً ، أو أنه لم يكن يعرف علاقته بخاله ، أو أنه كان يمزح !! .

** (واجتاز رجال مديانيون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر ، وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة)ـ(تكوين/ ٣٧)

(وأما المديانيون فباعوه فى مصر لفوطيفار خصيّ فرعون رئيس الشرطة) ـ (تكوين / ٣٧) .

(وأما يوسف فأنزل إلى مصر ، واشتراه فوطيفار خصى فرعون رئيس الشرطة ، رجل مصرى ، من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك) ـ (تكوين / ٣٩) .

لو أننا جمعنا بين الأخبار الثلاثة يكون المديانيون قد باعوا يوسف للإسماعيليين ، والإسماعيليون باعوه لفوطيفار ، ومن ثم يكون المأخذ على صياغة كل خبر على حدة .

** انتقم الله لبنى إسرائيل ، (فماتت جميع مواشى المصريين) ـ (خروج / ٩ى ٦) .

ثم طلب من موسى وهارون أن يأخذا ملء أيديهما من رماد الأتون ، ويذرياه نحو السماء ، أمام عينى فرعون ، (ليصير غباراً على كل أرض مصر ، فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور ، فى كل أرض مصر) ـ (خروج / ٩ ى ٩) .

إذا كانت جميع المواشى قد ماتت ، فمن أين البهائم المصابة

بالدمامل ؟! أم أنه أراد تفسير طريقة الموت ، فجاء بالتفصيل بعد الإجمال ، وإن كان التفصيل أصاب الناس والبهائم بالدمامل فقط ، على حين اقتصر الإجمال على موت جميع المواشي !!

** جاء في سفر (تكوين / ٣٢) أن يعقوب عبر مخاضة يبوق مع أسرته ، ثم بقي وحده ، فلقي الله ، وصارعه ، (صارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حقّ فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال ـ الله ـ أطلقني ، لأنه قد طلع الفجر ، فقال ـ يعقوب ـ لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال : لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك ، فقال : لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل ، قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ، ونُجِّيتْ نفسي ، وأشرقت له الشمس ، إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه ، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا) .

يعلق صاحب (الفولكلور في العهد القديم ـ جـ١ ص ٣٦٦ وما بعدها) بأن القصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن يكون مؤلفو سفر تكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية ، عندما اشتموا فيها رائحة الوثنية ، ومن ثم فإن أى تفسير لها إنما يعتمد على الفرض .

لكننا إذا ربطنا هذه القصة بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها من ناحية ، وإذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها ، فإننا نفترض بادئ ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه ، وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان

الماشية ، وبقاءه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر ، وربما حسب يعقوب أن إله النهر المنعزل يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار الدفل ، على مسافة آمنة بعيدة .

وقد كان (مينيلاوس) قد أمسك على هذا النحو بإله البحر (بروتيوس) الذى كان يرقد منعزلاً وقت الظهيرة بين الحواجز ، وفوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته ، وقد حاول روح الماء ذو الجسد الطيع الأملس أن ينزلق من قبضة أسره ، ثم وجد أن محاولاته تضيع هباء ، فرضخ لمطلبه ، وأعطاه المنحة التى يسعى إليها .

أكثر من أسطورة إغريقية تأخذ هذا الشكل القصصى ، وكان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التى تخشى خطورتها وتقلبها .. وينصح (هزيود) من يعبر النهر بقوله : (عليك قبل أن تعبر النهر أن تنظر إلى المياه الجارية ، وأن تصلى وتغسل يديك ، لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه فإنه يتعرض لغضب الآلهة) .

ومن أساطير المكسيكيين القدماء أن رجلا شجاعا أمسك شبح الإله الكبير (تزكاتليبوكا) ، وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس ، فتوسل الشبح إليه أن يتركه ، ووافق على أن يمنحه أى هبة يطلبها .

** هذا التصور الخرافى الوارد فى سفر (تكوين) للعلاقة بين الإنسان والإله ، أو لوجود آلهة للقوى الطبيعية ، إنما هو من طبيعة الفطرة الإنسانية الضعيفة البسيطة التى لم يهذبها دين أو مدنية ، ومع هذا فقد أصبحت جزءاً من كتاب دينى ، ما يزال أكثر سكان العالم يدينون به !! لم يتوقفوا عند تجسيد الإله فى صورة إنسان ، وعند هزيمة الإله مصارعاً الإنسان ، وعند خضوع الإله لإرادة الإنسان ، ومع هذا فما يزال التاريخ يتحدث عن يعقوب النبى ، لا عن إسرائيل النبى !! .

* * *

وقد نلتقى فى سفر بما يخالف ما ورد فى سفر سابق ، لأن الكاتب غير الكاتب ، مما يشير إلى أن الأخبار الواردة لم تكن رهن التحرى والدقة ، مما يوجب إعادة النظر .

يقول سفر (خروج) : (فأدار الله الشعب عن طريق برية سوف ... وارتحلوا عن سكّوت ، ونزلوا فى إيثام فى طريق البرية) ـ (خروج / ١٣) .

(ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف ، وخرجوا إلى برية شور ، فساروا ثلاثة أيام فى البرية ، ولم يجدوا ماء ، فجاءوا إلى مارة ، ولم يقدروا أن يشربوا ماء مارة ، لأنه مر .. ثم جاء إلى إيليم ، وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة) ـ (خروج / ١٥) .

(ثم ارتحلوا من إيليم إلى برية سين التى بين إيليم وسيناء فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى بعد خروجهم من أرض مصر) ـ (خروج / ١٦) .

هذا الطريق فى جملته يكاد يتفق مع ما سجلته البعثات الأثرية الجغرافية ، ألمانية وأمريكية وإسرائيلية ، فيما أطلق عليه المسح التاريخى لسيناء .

كان الطريق من مدينة بروعمسيس ودفنا (إدفينا) التى كانت بها المخازن التى سرق الإسرائيليون ـ فى رحيلهم ـ ما كان بها من غلال ، وقضوا الليلة الأولى فى أسكوت (منطقة الصالحية) ، وفى اليوم الثانى نزلوا ببيداء إيتام (صحراء الفاقوسية) ، فى طريق للرعاة والقوافل ، يصل بين الأرض الزراعية والصحراء ، وفى اليوم الثالث أمرهم الله أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر ، أمام بعل زيفون ، إذ تبعهم فرعون بعدما علم بسرقة ذهب المصريين ، بحجة استعارته فى عيدهم ، ثم هربوا به

مع ما سرقوه من خزائن الدولة ، وفى اليوم الرابع لحق بهم فرعون بالقرب من يم سوف (شرق بحيرة المنزلة) ، حيث المستنقعات التى تتكشف أرضها عند هبوب الرياح الشرقية والجنوبية الموسمية ، (ومد موسى يده على البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة ، وانشق الماء) ـ (خروج/١٤) ـ ومشوا فى اليوم الخامس ببيداء شور ، ولم يجدوا ماء ، وضربوا خيامهم فى مارا ، بعد ثلاثة أيام ، ويقع بئر مارا (المر) فى مواجهة السويس ، وفى اليوم التاسع ارتحلوا من مارا إلى إيليم ، حيث عيون موسى الحالية ، وفى اليوم العاشر وصل موسى وقومه إلى رافيديم التى تقع عند مدخل الوادى المقدس (وادى سدر) ، ومنها صعد فى الجبل المقدس حورب (سن بشر) ليكلم ربه ، ومن هذا الجبل ـ لا جبل الطور ـ كانت أحجار اللوحات التى نقش عليها موسى الوصايا العشر ، من الحجر الجيرى الذى يسهل حفره ، لامن صخور الطور التى هى من الجرانيت والبازلت الصلب ، كما أن وادى سدر هو نفسه المدخل الطبيعى الأول إلى قلب سيناء ، كما أن وصف التوراة مرورهم فى أرض مناجم الفيروز والنحاس ينطبق على هذا الوادى ، حيث كانت مناجم الفيروز المشهورة عند قدماء المصريين ، والتى اشتهر اليهود بصناعتها والتجارة فيها [1] .

ويأتى سفر (الملوك الأول /٩) ، فيحكى أن الملك سليمان عمل (سفناً فى عصيون جابر التى بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف فى أرض أدوم) .. والخريطة الملحقة بالكتاب المقدس ترسم أدوم فى صحراء النقب ، وتجعل أيلة فى مكان ميناء (أيلات) الحالى ، ومن ثم يكون (بحر سوف) هو خليج العقبة .. وإذا رجعنا إلى كلمة (سوف) أو (سوب)

---

(١) عن الدكتور سيد كريم (سفر الخروج بين الواقع والأساطير) ـ مجلة الهلال ـ مايو ١٩٧٥ .

بالفرعونية ، نجد أن معناها البوص أو البردى ، الذى لاينبت إلا مع المياه العذبة ، وخليج العقبة بعيد كل البعد عن هذه المياه !! .

** وفى سفر (الأيام الأول / ٧) نجد أبناء بنيامين فى الأصحاح السابع ثلاثة ، وهم (بالع وباكر ويديعئيل) ، وفى الأصحاح الثامن نجدهم خمسة (بالع وأشبيل وأخرخ ونوحة ورافا) ، على حين هم فى سفر (تكوين ٤٦) عشرة : (بالع وباكر وأسبيل وجيرا ونعمان وإيحى وروش ومفيم وحفيم وأرد) ، مع ملاحظة الاختلاف فى الأسماء أيضاً .

** وفى سفر (الأمثال ٢) نجد إدانة للكذب : (من الشفة الكاذبة نفرة الرب) ، مع أن الله فى سفر (خروج /١١) دعا موسى إلى أن يتحدث (فى مسامع الشعب أن يسأل الرجل صاحبه ، والمرأة صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب) ، وفعل بنو إسرائيل ـ كما أمر موسى ، أو كما أمر الرب ـ واستعاروا من المصريين أوانى فضة وذهب ، وشيئاً كثيراً من الكسوة .. احتال الله ـ سبحانه ـ لبنى إسرائيل ، حتى يستولوا على مال المصريين ويهربوا ، ثم أرسل الله روح ضلالة ـ كما جاء فى (سفر صموئيل الأول / ١٩) ـ فجعل جماعات تتنبأ فى صف صموئيل وجماعات تتنبأ فى صف شاؤل ، وكل التنبؤات من وحى (روح الله) !! .

* * *

وكثيراً ما يصطدم القارئ بعبارات ومواقف لا تلائم هذا المجال الدينى المقدس ، كأن يجرى على لسان موسى الرسول مسترحماً الله : (لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال؟! اندم على الشر بشعبك) ، ثم يقول : (فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه) ـ (خروج / ٣٢) .

ولا يكون الندم إلا إذا كان الخطأ ، فهل إله موسى غير معصوم من الخطأ !؟ .

ثم إن الإذن بالخروج كان لنجاتهم من فرعون ومن المصريين ـ وقد تحققت النجاة ـ ففيم إذن الإدانة التى تستدعى الندم ؟! لقد صحب الخروج عدة خوارق طبيعية لصالح إسرائيل ، أما كانت تستدعى الشكر والحمد (فريضة دهرية) ؟! .

وللأسف يتكرر هذا التعبير بعد ذلك على ألسنة (الأنبياء) ، كأن يقول أرميا : (اسمعوا لصوت الرب إلهكم ، فيندم الرب عن الشر الذى تكلم به عليكم) ـ (أرمياء / ٢٦) .

** وتنسب التوراة إلى هارون النبى أنه أمر بنزع أقراط الذهب من آذان النساء ، وصنع منها عجلاً مسبوكاً ـ (خروج / ٣٢) .

وبهذا يكون هارون ـ الذى استنجد به موسى ليكون عونه على نشر رسالته ـ داعية إلى الوثنية ، والحقيقة التاريخية التى سجلها القرآن الكريم أن رجلا سامريا [1] هو الذى فعل هذا الفعل ، بعد أن وجد استجابة كبيرة من (الشعب) ، فخشى هارون ـ إذا وقف فى وجه هذا التيار الإلحادى الجارف ـ أن يمزق وحدة الشعب ، وهو ما يزال فى التيه ، فانتظر قدوم موسى بوحى وتوجيه من الله :

﴿... وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا .. ﴾ ... ﴿ قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ [2] .

** الأخبار الكثيرة التى تنال من سيرة الأنبياء ، فتجعلهم قتلة أو زناة أو دعاة إلى الزنا [3] ، ابتداء من نوح ، مرورا بإبراهيم وسليمان .. وما كان

(١) منسوب إلى طائفة السامرة ، من غير بنى إسرائيل ، اعتنقت اليهودية ، وامتزجت بالإسرائيليين ، أو يرجع أصله إلى إقليم السامرة ـ عن اليهودية واليهود ـ ص ٦٩ .
(٢) انظر سورة طه من الآية ٨٥ إلى الآية ٩٤ .
(٣) انظر الفصل الأول .

ينبغي أن تصل الجرأة إلى تجريم آباء إسرائيل بهذه القسوة ، مهما قيل عن الضعف البشرى ، والخطيئة الموروثة عن آدم ، وإلا فكيف يقول الرسول ما لايفعل ؟ كيف يدعو إلى الخير وهو صورة للشر ، داعية إليه ؟! كيف يكون سليمان رسول الله وهو يعبد آلهة سبعمائة زوجة ، ويقدم لها القرابين ؟! .

** يجرى سفر (أخبار الأيام الأول / ١٧) على لسان الله ما لايتفق والواقع التاريخى ، إذ قال رب الجنود لداود :

(كنت معك حيثما توجهت ، وقرضت جميع أعدائك من أمامك ، وعملت لك اسماً كاسم العظماء الذين فى الأرض ، وعينت مكاناً لشعبى فى إسرائيل ، وغرسته فسكن فى مكانه ، ولا يضطرب بعد ، ولا يعود بنو الإثم يبلونه ، كما فى الأول) .. مع أن أحداث السبى والشتات جرت بعد ذلك !! .

ويلاحظ أن داود هذا ـ مع مكانته فى التاريخ اليهودى والمسيحى ـ يقع تحت طائلة تشريع يقول : (لا يدخل ابن زنا فى جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر ، ولا يدخل منه أحد فى جماعة الرب) (تثنية / ٢) لأنه من أبناء فارص الذى ولد لثامار من زنا ، كما جاء فى (سفر تكوين / ٣٨) .

أليس عجباً أن نزيف سلسلة نسب السيد المسيح ليصبح من أبناء داود هذا ؟! .

* * *

وهناك مآخذ لفظية مردها الغفلة أو الجهل .

ورد فى سفر (تكوين / ٣٦) : (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم ، قبلما ملك ملك لبنى إسرائيل) .. والصحيح أن تكون صيغة

الخبر (قبل أن يكون ثمة ملك فى إسرائيل) ، فالمعروف أن أدوم (عيسو) عاش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، بينما بدأت الملكية فى إسرائيل بشاءول حوالى سنة ١٠٠٧ ق . م ، ومعنى هذا أن الملكية لم يكن لها وجود ، أو احتمال وجود قريب من أيام موسى ، فكيف أتيح لموسى أن يكتب عنها إذا صحت نسبة هذه الأسفار إليه ؟! فهل الخبر يتعلق برسالة موسى حتى ينزل به وحى ؟!

قال آدم كلارك : (غالب ظنى أن موسى ـ عليه السلام ـ ما كتب هذه الآية والآيات التى بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين ، بل هذه الآيات هى آيات الأصحاح الأول من السفر الأول من أخبار الأيام ، وأظن ظناً قوياً قريباً من اليقين أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة ، فظن الناقل أنها جزء من المتن فأدخلها فيه [1].

** وفى سفر (تثنية / ٣٤) : (لم يقم بعدُ نبيٌ فى بنى إسرائيل مثل موسى) ، مع أن موسى لم تجف عظامه بعد ؟! ويحكى موسى عن نفسه أنه (مات موسى عبد الرب فى أرض مواب ، حسب قول الرب ، ودفنه فى الجواء فى أرض مواب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم) ـ (تثنية / ٣٤) ـ وما ندرى حدود (إلى اليوم) ، كما لا ندرى سر إخبار موسى عن موته بصيغة الغائب ، إلا إذا كان لوناً من فن الصياغة !! .

(ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه ، كما يكلم الرجل صاحبه) ، على حين يقول الرب لموسى : (لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش) ـ (خروج /٣٣) .

فإذا قلنا إن فى العبارة الأولى مجازاً ، كان ينبغى أن تُختار ألفاظ تبعد عن هذا التناقض الصريح ، وبخاصة أن الرؤية المباشرة تكررت كثيراً فى

(١) رحمه الله ـ إظهار الحق ـ دار التراث العربى ١٩٧٧ ـ ص ٢٢٣ .

تعبيرات الأنبياء أو كتّاب أسفارهم ، هذا إلى أن عبارة (كما يكلم الرجل صاحبه) تباعد احتمال المجاز .

** وذكر سفر (عدد / ٣١) أن بنى إسرائيل أفنوا المديانيين فى عهد موسى ، وما أبقوا منهم ذكراً بالغاً ولا غير بالغ ، حتى الصبى والرضيع، كذلك ما أبقوا منهم امرأة بالغة ، وأخذوا غير البالغات جوارى لأنفسهم ، على حين ذكر سفر (القضاة / ٦) أن المديانيين فى عهد القضاة كانوا ذوى قوة عظيمة ، بحيث كان بنو إسرائيل مغلوبين وعاجزين ، والزمن بين العهدين لا يتجاوز مائتى عام !! .

** ونسب سفر (خروج / ٢٧) إلى بنى إسرائيل ـ وقد قضوا أربعين سنة يتيهون فى الأرض ـ القيام بصناعات لا تتوافر القدرة على تخيلها، كما لا تتوافر خاماتها من أخشاب ومعادن وحجارة كريمة ، أو تتوافر المهارة الفنية اللازمة لأدائها ، إلا فى أرض المدنيات المزدهرة المستقرة !! .

** وذكر (صموئيل الثانى / ١٨) أن (أبشالوم قد أخذ وأقام لنفسه ـ وهو حى ـ النصب الذى فى وادى الملك ، لأنه قال ليس لى بن لأجل تذكير اسمى) ، مع أن السفر نفسه (ص ١٤) ذكر أنه ولد لأبشالوم (ثلاثة بنين وبنت واحدة اسمها « ثامار » ، وكانت ابنة جميلة المنظر) !! وليس من دليل على موت جميع أبناء أبشالوم قبل إقامة النصب ، بل إننا نجد لأبشالوم ابنة أخرى اسمها (معكة) فى سفر (الملوك الأول / ١٥) .

** وقصة موت شاءول فى نهاية سفر صموئيل الأول تخالف ماجاء فى أول سفر صموئيل الثانى ، والقصتان إحداهما فى ظهر صفحة الأخرى !! .

** فى (صموئيل الثانى / ٧) وعد الله شعبه فقال : (وعينت مكاناً لشعبى إسرائيل ، وغرسته ، فسكن فى مكانه ، ولا يضطرب بعد ، ولا يعود بنو الإثم يذللونه ، كما فى الأول) ، وكان هذا المكان أورشليم ، لكن لم يحصل وفاء بهذا الوعد ، وأوذوا فى هذا المكان إيذاء شديداً ، آذاهم سلطان بابل وأشور مرات ، قتلهم وأسرهم وأجلاهم ، وآذاهم سلاطين آخرون ، وجاء الحكم الرومانى ، فأصابهم تيتوس فى أنفسهم وأموالهم وفى دينهم ، فخرب المعبد ، وبنى مكانه معبد جوبتر ، وفرض فروضاً دينية قاسية ، وسار سيرته من بعده نيرون وتراجان وهادريان !! .

** يلاحظ أن لفظ (الشعب) ـ منذ ذُكر فى سفر (تكوين) خاصاً ببنى إسرائيل ـ ظل فى أقلام كتّاب الأسفار بعد ذلك علما عليهم .. لكن سفر صموئيل الثانى تحدث عن أن الشعب غير إسرائيل ، فقد انقسمت الدولة بعد سليمان إلى مملكة يهوذا ، وعاصمتها أورشليم ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، وعاصمتها شكيم ، ومن ثم هو يقصد بالشعب مملكة يهوذا ، والاعتراض على استخدام (المصطلح) استخداماً مضطرباً ، إذ يقول مثلاً : (وخرج الشعب إلى الحقل للقاء إسرائيل ، وضرب يواب بالبوق ، فرجع الشعب عن اتباع إسرائيل ، لأن يواب منع الشعب) ـ صح ١٨ ـ ويقول :

(فأتى جميع الشعب أمام الملك ، وأما إسرائيل فهربوا ، كل واحد إلى خيمته) ـ صح ١٩ ـ ويقول :

(فخرج يواب ورؤساء الجيش من عند الملك ليعدوا الشعب ، أى إسرائيل) ـ صح ٢٤ ـ ثم يفصل بين رجال يهوذا ورجال إسرائيل ، مما يفهم أن الشعب هم رجال يهوذا : (فأجاب كل رجال يهوذا رجال إسرائيل) ـ صح ١٩ ـ (فكان إسرائيل ثمانمائة ألف رجل ، ورجال يهوذا

خمسمائة ألف رجل .. وضرب داود قلبه بعدما عدّ الشعب) ـ صح ٢٤ ـ أى إسرائيل ويهوذا ، وبهذا يتبين الاضطراب .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن سبطى يهوذا وبنيامين وبعض بنى لاوى كونوا مملكة يهوذا ، أو العبرانيين ، وأن الباقين من بنى إسرائيل كونوا مملكة إسرائيل التى تعرف بمملكة السامريين ، صار إطلاق لفظ الشعب على يهوذا إطلاقاً سياسياً يندد بإسرائيل ويحط من قيمتها .

** وأتى كاتب آخر فخالف ـ فى عبارته ـ بين يعقوب وإسرائيل ، فقال : (عند ردّ سبى شعبه يهتف يعقوب ، ويفرح إسرائيل) ـ (مزمور ٥٣/) ـ (أقام شهادة فى يعقوب ، ووضع شريعة فى إسرائيل .. لذلك سمع الرب ، فغضب ، واشتعلت نار فى يعقوب ، وسخط أيضاً صعد على إسرائيل) ـ (مزمور / ٧٨) ـ (ليرعى يعقوب شعبه ، وإسرائيل ميراثه) ـ (مزمور / ٧٨) ـ (فثبته ليعقوب فريضة ، ولإسرائيل عهداً أبدياً .. فجاء إسرائيل إلى مصر ، ويعقوب تغرب فى أرض حام) (مزمور / ١٠٥) ـ (أرسل الرب قولاً فى يعقوب فوقع فى إسرائيل) (أشعياء ٩) ويتكرر هذا التعبير كثيراً فى أشعياء .

** وفى سفر الملوك الأول نلتقى ـ من حين لآخر ـ بمثل عبارة : (وأما بقية أمور يربعام ، كيف حارب ، وكيف ملك ، فإنها مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل) ـ ص ١٤ ـ مع أن سفر (الأيام) سيأتى بعد ذلك مما يفيد أن هذه الكتابة كتبها غير واحد ، فى أوقات مختلفة ، على غير النسق الذى ورد فى (العهد القديم) ، ويفيد فى الوقت نفسه غفلة المنسقين .

** وفى سفر الملوك الأول أيضاً خبر أورده الكاتب دون أن يدرى مغزاه ، إذ جعل الأب والابن من امرأة واحدة ، فأبيام ملك يهوذا (اسم أمه معكة ابنة أبشالوم) ، ولما انتصر يربعام على أبيام دفن (فى مدينة داود ،

وملّك آسا ابنه عوضاً عنه) ، وكان (اسم أمه معكة ابنة أبشالوم) ـ صح ١٥ .

** وفى سفر (حزقيال / ٢٩) ـ (قال السيد الرب : هأنذا أبذل أرض مصر لنبوخذ نصر ملك بابل ، فيأخذ ثروتها ، ويغنم غنيمتها ، وينهب نهبها ، فتكون أجرة لجيشه ، قد أعطيته أرض مصر لأجل شغله الذى خدم به ، لأنهم عملوا من أجلى) .. ولعله يقصد بهذا العمل محاصرة مدينة صور ، وهو استمرار للتوسع البابلى ، على حساب كل القيم الأخلاقية ، ولم يحدث أن خضعت مصر لحكم نبوخذ نصر ، فكيف وعد الله ـ سبحانه ـ من لا يستحق بما لم يتحقق ؟! .

** وفى سفر (دانيال / ٢ و ٤) أن نبوخذ نصر حلم حلماً أحسن تأويله دانيال ، فاستل غضب الملك الذى كاد يبيد كل حكماء بابل ، لأنهم لم يستطيعوا تأويله ، وكان أن كتب (إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين فى الأرض كلها) معبراً عن ابتهاجه ، فإذا هو يذكر حلماً غير الحلم الذى أوّله دانيال ، فهل معنى هذا أن الملك رأى حلمين ؟! ولماذا لم يشر الكاتب إلى أمر كهذا ؟! .

* * *

ومن الجهل والغفلة أن يحكى سفر (صموئيل الأول/ ٢٠) أن شاؤل الملك غضب على داود القائد ، وأراد قتله ، وكان داود صديق يوناثان ابن الملك ، فاحتال يوناثان بأن يختبئ داود فى مكان ، حتى يحاول مرضاة الملك ، فإذا رضى الملك أرسل سهاماً ثلاثة ناحية المكان الذى يختبئ فيه ، وقال لغلامه الذى سيذهب لالتقاط السهام : (هو ذا السهام دونك فجائياً) .. عند ذلك يأخذها داود ويقوم ، (لأن لك سلاماً) .. وإن قال لغلامه : (هو ذا السهام دونك فصاعداً) ، فعلى داود أن يهرب ، (لأن

الرب قد أطلقك) ، وتكون السهام للإطلاق .. ويمضى يوناثان إلى داود ، (وقبّل كل منهما صاحبه) ، ويبكى كل منهما مع صاحبه حتى زاد داود) .. فلماذا كانت حيلة السهام ما داما سيلتقيان ؟! كان يمكن (إطلاق) السهام فقط فى حالة عدم الحصول على رضى الملك ، فيهرب .

** لما قربت أيام وفاة داود أوصى ابنه سليمان أن ينتقم من قائد جنده (يواب) ، لأنه قتل رئيسى جيوش إسرائيل ، (أبنير بن نير ، وعماسا بن يثر ، إذ قتلهما وسفك دم الحرب فى الصلح ، وجعل دم الحرب فى منطقته التى على حقويه ، وفى نعليه اللتين برجليه) .

إذا كان الأمر كذلك ، فلما تركه ـ وهو الملك ـ دون أن يقتصّ منه؟ أتراه كان يعلم أن (سليمان) الحكيم سيكون سفاحا بأمر (كاتب السفر) فيقتل (يواب) بجانب (المذبح) ، محملاً نسله دم القائدين ، ثم يقتل (أدونيا) أخا سليمان الأكبر ، لأنه طلب الزواج من (أبيشج الشونمية) ، ثم يقتل (أبياثار) كاهن أبيه ـ (الملوك / ٢) كل هذا أحدثه (الحكيم) فى بداية حياته الملكية ، دون سبب معقول !! .

** ومن الغفلة هذا التكرار الكثير الذى لا مبرر له ، وإن قيل إنه من عمل تعدد الكتّاب ، إذ كان على اللاحق أن ينظر فى عمل السابق ، أو كان على الذين دونوا أو ترجموا أخيراً أن يقوموا بعملية تنسيق ، أو مراجعة ، حتى لا تذهب الظنون بالقراء .

فى سفر (خروج) نجد أن ما جاء فى الأصحاحات (٣٦ و ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠) كان يغنى عنه قوله :

(وبصلئيل بن أورى بن حدر من سبط يهوذا صنع كل ما أمر به الرب موسى ، ومعه أهو لياب بن أخيساماك من سبط دان) ، لأن ما صنعاه هو ما ورد بالتفصيل فى الأصحاحات (٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠) .

وفى (صموئيل الأول) ما ورد فى (صح ٢٦) تكرار لا داعى له لما جاء فى (صح ٢٤) .

كما جاء فى (صموئيل الثانى ٧) عقاب الله لداود ، وعهده لنبيه على لسان النبى ناثان ، وتكرر القول فى (أخبار الأيام الأول / ١٧) ، فلماذا الاختلاف فى العبارة ، مع أنه وحى مدون (مكتوب فى سفر ياشر) ، كما تقول عبارة (صموئيل الثانى / ١) ؟! .

** ومن الغفلة أيضاً هذه المبالغات التى تذهب بثقة القارئ ، بل تَستبدل بالتوقير السخرية والاستهزاء . جاء فى (صموئيل الثانى / ٢٣) أن يوشيب بَشَّبث أحد قادة داود (هزّ رمحه على ثمانمائة قتلهم دفعة واحدة) ، وأن أبيشاى أخا يواب بن صروية (هزّ رمحه على ثلاثمائة قتلهم) .

وجاء فى (أخبار الأيام الأول / ١١) أن (يشبعام بن حكمونى رئيس الثوالث هز رمحه على ثلاثمائة قتلهم دفعة واحدة) !!

أيكون العدد ثلاثمائة رمزاً للكثرة ، على غير ما علم أصحاب اللغة ؟! .

* * *

ومن المآخذ الأسلوبية أن يبدأ أحد الأسفار بمقدمة تعرّف به من دون بقية الأسفار :

(أمثال سليمان بن داود لمعرفة حكمة وأدب ، لإدراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة ، لتعطى الجهال ذكاء ، والشباب معرفة وتدبراً ، يسمعها الحكيم فيزداد علما ، والفهيم يكتسب تدبيراً ، لفهم المثل واللغز ، أقوال الحكماء وغوامضهم ، مخافة الرب ورأس الحكمة ، أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب) .

إذا كان هذا يعنى أن الأمثال كتبت وطبعت منفصلة ، ثم ضمت إلى الكتاب المقدس ، كان ينبغى حذف هذه المقدمة عند ضمها ، حتى لا نفاجأ بكاتبها مقحماً نفسه بطريقة غير مألوفة .

** ومن المآخذ الأسلوبية الركاكة السيئة التى تتمثل فى كثير من الأسفار .. مثال ذلك ما جاء فى (عزرا / ٤) :

(فى أيام أرتحشستا ، كتب بشلام ومثرداث وطبئيل وسائر رفاقهم إلى أرتحشستا ملك فارس ، وكتابة الرسالة مكتوبة بالأرامية ، ومترجمة بالأرامية ، رحوم صاحب القضاء ، وشمشاى الكاتب ، كتبا رسالة ضد أورشليم إلى أرتحشستا الملك ، هكذا كتب حينئذ رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب وسائر رفاقهما .. هذه صورة الرسالة التى أرسلوها إليه ، إلى أرتحشستا الملك) .

وكان موضوع الرسالة عدم تمكن بنى إسرائيل من بناء بيت الله فى أورشليم ، فاستجاب الملك :

(الآن أخرجوا أمراً بتوقيف أولئك الرجال ، فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر منى أمر ، فاحذروا من أن تقصروا عن عمل ذلك) ـ (عزرا / ٤) .

ولكن (كان شيوخ اليهود يبنون وينجحون حسب نبوة حجّى النبى ، وزكريا بن عدو ، فبنوا وأكملوا حسب أمر إله إسرائيل وأمر كوش وداريوس وأرتحشستا ملك فارس) ـ (عزرا / ٦) .

وكتب أرتحشستا إلى عزرا مبيحاً له (كل الفضة والذهب الذى تجد فى كل بلاد بابل ، مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذى فى أورشليم) ، متوعداً (كل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك ، فليقض عليه عاجلاً ، إما بالموت ، أو بالنفى ، أو بغرامة المال ، أو بالحبس) ـ (عزرا / ٧) .

وعلق عزرا على هذا بقوله : (مبارك الرب إله آبائنا الذى جعل مثل هذا فى قلب الملك ، لأجل تزيين بيت الرب الذى فى أورشليم) ـ (عزرا / ٧) .

وزاد (نحميا) ، فذكر أن أرتحشستا الملك أرسل معه (رؤساء جيش وفرساناً) ، تأييداً وعوناً على بناء (بيت الله) ـ (نحميا / ٢) .

وبهذا يطول التساؤل حول عزرا ونحميا ، حتى نجد عبارة تقول :

(اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التى أمام باب الماء ، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتى بسفر شريعة موسى التى أمر بها الرب إسرائيل) ـ (نحميا / ٨) .

فنفهم أن عزرا كان بين رجال نحميا ، على حين أن سفر عزرا يتحدث بأن عزرا تحرك من بابل بإذن خاص من الملك ، ولم يكن تابعا لنحميا ، فهل أرسل الملك كلاً من عزرا ونحميا بتوجيه خاص وبعون خاص ؟! .

* * *

بالإضافة إلى هذه المآخذ نجد ألفاظاً قبيحة ، أو خاطئة لا معنى لها .. مثال ذلك :

جاء فى (أشعياء / ٢٠) : (يسوق ملك أشور سبى مصر وجَلاء كوش الفتيان ، والشيوخ ، عراة وحفاة ، ومكشوفى الأستاه ، خزيا لمصر) ، فلفظ (مكشوفى الأستاه) لا ينبغى أن يجرى على لسان الرب !! .

وجاء فى (دانيال / ١٠) : (كنت نائحا ثلاثة أسابيع أيام) ، ما لايحتاج إلى تعليق ، كذلك (ذهبت مرًا فى حرارة روحى ، ويد الرب كانت شديدة علىّ) ـ (حزقيال / ٣) .

وورد فى (المزمور / ٧٢) ، الذى ذكر أنه لسليمان ، عبارة ختامية ، تقول : (تمت صلوات داود بن يسىّ) ، ثم ذكر (المزمور / ٨٦) بعنوان صلاة لداود !! .

وتكرر لفظ (سلاه) فى أكثر من عشرين مزموراً بصورة مقحمة ، دون مبرر ، وإن قيل فى معناه شيء فهو رجم بالغيب [١] .. كما تكرر لفظ (هللويا) فى أكثر من عشرة مزامير ، دون مبرر ، وإن قيل معناه (صلوا ليهوه ، أو امدحوا يهوه) [٢] .

وتكرر لفظ (هه هه) فى المزامير للاستخفاف ، حتى على لسان الله : (ليستوحش من أجل خزيهم القائلون لى : هه هه) (مزمور / ٤٠) .

ويلاحظ أن هذه الألفاظ لم تتكرر إلا فى المزامير ، وقل ورود (هللويا) فى (حبقوق) ، و (هه هه) فى (حزقيال) ، مما يفيد أنها (لازمة) بعض الكتّاب .

* * *

مثل هذه المآخذ وكثير غيرها من الأخطاء اللغوية والإعرابية تلحّ على ضرورة المسارعة إلى إعادة كتابة هذه الأسفار بأسلوب يتناسب مع قيمتها التاريخية والدينية ، ويخلّصها من كثير مما داخلها من التحريف والتزييف والابتذال والركاكة .

إن نظرة سريعة إلى المقابلة بين ترجمة سفر (عاموس) فى النسخة العربية ، طبعة جمعية التوراة الأمريكانية وترجمة الدكتور موفات اللتين أوردها الدكتور جابر الحينى ـ فى كتابه (فى العقائد والأديان) ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ـ ترينا إلى أى حد يمكن أن تضيع معالم النص الأصلى .

لهذا (نأسف حقاً لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى

(١) ، (٢) التوراة الهيروغليفية ـ ص ١٣٢ / ١٣٥ .

نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة ، خلافاً لكل منطق ، إن ذلك موقف يسىء كثيراً إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة ، ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من مثل هذا النوع ، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف ، وظلت فى جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التى تعتبر غالباً من المعارف الأساسية جداً) [١] .

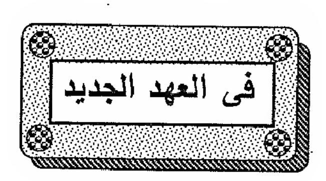
(وإن ما يصدمنا حقاً فى أيامنا هذه أن نرى المتخصصين فى دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة ، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف ، ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين فى ذلك ببهلوانيات جدلية) [٢] .

يقول لورتز فى دراسته (ما هى حقيقة التوراة) الصادرة سنة ١٩٧٢ : إن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى ـ (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) ـ (قد حذر من إعطاء أى قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة فى التوراة) [٣] .

أهذا هو ما كان يعنيه القديس أوغسطين من أن الله (لا يمكن أن يُعلم البشر ما لا يتفق والحقيقة) ؟! .

* * *

(١) ، (٢) ، (٣) موريس بوكاى ص ـ ١٠ و ١٤ و ٥٩ .



١ ـ الآب والابن والروح القدس !!

٢ ـ وعبارة العهد الجديد فيها نظر !!

٣ ـ إنجيل برنابا !!

* * *

٩ـ الآب .. والابن ..
والـــروح القـــدس !!

(الإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة ، وإنا لا نملك مثلاً أى شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى)[1].

(ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) .

هذا شعار التشريع المسيحى ، لكنه ليس دقيقاً كل الدقة ، لأن الأناجيل جملة لا تتضمن تشريعاً ، بل روح التشريع ، فالمسيح (لم يأت ليتقن نظاماً للدين أو للآداب ، بل ليدخل نفســه فى عقــول وقلــوب النــاس) [2] ، بالحب والرحمة والتسامح والسلام .

يقول القس إكرام لمعى فى كتابه (الاختراق الصهيونى للمسيحية ـ ص ٥٢ / ٥٣) :

كانت فلسفة هليل ـ من يهود الشتات ـ أن يجعل طاعة الناموس ممكنة لكل اليهود ، سواء بالميلاد أو بالإيمان ، ولقد أخذ المسيح خط هليل الفكرى ، وقدم نظاماً لاهوتياً أخلاقياً روحياً ، يتضمن الحب والمساواة بين البشر ، والعطاء دون مقابل ، وبذل الذات لأجل الآخرين ، حتى ولو لم يكونوا من اليهود

ولم يعد لليهود مكان متميز فى تعاليم المسيح ، (فالذى يقبل تعليم المسيح ، ويعترف بشخصه وعمله يصبح مختاراً من الله ، وهكذا تحرر الاختيار من الجنس والعنصر ، وبالتالى لا مكان للعهد الذى يقوم على قطعة أرض وذبيحة) .

---

(١) موريس بوكاى ص ١١ .
(٢) شمـس الســير ـ ص ١٢١ .

ومع هذا أخذت المسيحية من اليهودية التوراة ، وكتب الأنبياء والحكمة ، وأخذت أسلوب العبادة وشكل الهيكل وسلطان الكهنوت .

أما ما هو من تشريع المسيحية فقد وضع القواعد والشرائع أكابر وبابوات الديانة بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلاثمائة والثمانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك (الأمانة) التى اتفقوا عليها ، ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً ، بل تخالف ما أنزل الله من الكتب ، مع مخالفتها العقل الصحيح [1] .

والسيد المسيح كثيراً ما تمثل أقوال الأنبياء : أرميا وأشعياء ودانيال ، وإنه ليربط مواقفه وعباراته كثيراً بنبى لم يسّمه ، كأن يقول (لكى يتم ما قيل بالنبى القائل : ...) ، أو (وهذا كله كان لكى يتم ماقيل من الرب بالنبى القائل : ...) .

ومع هـذا ، فجملة ما جاء به عيسى يتمثل فى إجابته عمن سأله : (أية وصية هى العظمى فى الناموس؟) بأن (تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك) ، وأن (تحب قريبك كنفسك) ــ (متى ٢٢) .

والتسامح فرع المحبة : (باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم) ــ (متى / ٥) ــ (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا) ــ (متى / ٥) .

لكنه تسامح لا يصلح مع كل الناس، أو لا ينسجم مع الطبيعة البشرية، وقد تشوبه المهانة والذلة ، ولعل الترجمة أفقدته سمّو معناه المتمثل فى قول القرآن الكريم : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [2]

(١) ابن تيمية ــ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ــ مطبعة المدنى بالقاهرة ــ جـ ١ ص ١١٧ / ١١٨ .
(٢) الشورى / ٤٠ .

إنه العفو عند المقدرة ، الذى يترتب عليه إصلاح ، ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولّىٌ حميم ﴾ [1] ــ يترتب عليه سعادة فى الدنيا ، بنزع العداوة وتحقيق التضامن والتعاون والتآخى ، كما يترتب عليه ثواب الآخرة ، لأن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره ، وبنزع أشواك النفوس .

وقد اتسع مفهوم التسامح فى شريعة عيسى حتى سقطت كل الحدود (العقوبات) ، على خلاف ما وجدنا فى شريعة (العهد القديم) التى تجاوزت فيها العقوبات إدراك الإنسان لمفهوم العدالة .

ومن ثم لا نجد عقاباً على جريمة ، إنه مجرد نهى ، قد يصل إلى حد العتاب الرقيق ، كأنه يتوخى صحة الإيمان ، و (لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب) ــ (متى / ٩) ــ بل (لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون للجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل) ــ (متى / ١٧) .

بهذا المفهوم الفلسفى السامى لاينزل إلى واقع الناس فيعايشهم ، ويجد حلول مشكلاتهم ، من خلال توصيف كامل لهذه المشكلات ، ومعرفة الدوافع النفسية والمادية ، وصراع الغرائز ، وطلاء النفوس والوجوه والأعمال بكل ما تبدع المدنية من ألوان .

وبهذا ، اقتصر التشريع على لمسات نفسية ناعمة :

(متى وضعت صدقة ، فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك) ــ (متى / ٦) ــ أما وجوب الصدقة ، ومقدارها ، وثمرتها ، فهو يكتفى بأن يحذر الأغنياء : (لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض ، حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون) ــ (متى / ٦) ــ ويشتد فى تحذيره أحيانا ، (إن مرور جمل فى ثقب إبره أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) ــ (متى / ١٩) .

(١) فصلت / ٣٤ .

أما القرابين والعشور التى اهتمت بها (التوراة) فلا شيء ، بل إننا نجد سخرية من هذه القرابين جرت على لسان أحد تلاميذه : (لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا) ـ (الرسالة إلى العبرانيين / ١٠) ـ وصدق الله فى قرآنه : **﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم ، لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾** [1] .

وإن كانت الحجة أن يسوع كفى أتباعه هذه القرابين حين ضحّى بنفسه ، فهى حجة ظالمة ، لأنها تأخذ شكل الدعوة الصريحة إلى العبث ، إلى الانعتاق من كل قيد ، وبخاصة أن المقومات الأساسية للإيمان مرت بها الأناجيل مروراً سهلاً .

(متى صليت فلا تكن كالمرائين) ـ (متى / ٦) .

(متى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين) ـ (متى / ٦) .

دون وضع قاعدة محددة للصلاة أو للصوم ، فلا كيفية ولا توقيت ، مما أدى إلى الخضوع للكهان ، فاحتكر هؤلاء فى أيديهم وظيفة تحديد عدد الصلوات ، وطول الأدعية وكلماتها ، ومن هنا نشأت الضرورة لعقد مجامع ولمؤتمرات كنسية ودينية لتقرير بنود الإيمان وشئون الضمير ، ومن هنا أيضا نتجت تلك العبادات الميكانيكية للرهبان ، كما تولّد ذلك الزحف الكبير إلى الكنائس والأديرة فى يوم واحد من الأسبوع ، بغية المزيد من الغذاء الروحى.

كما أن الصوم ارتبط بفكرة عامة تعود فى أصلها إلى العقوبة والتكفير ، وقد ظل التعذيب الجسدى التطوعى يتكرر فى الكنيسة المسيحية ، ولكن هذا الأذى كان يتجه دائماً نحو تحطيم الطاقات الجسدية ، والملكات العقلية ، من أجل تغذية الصوفية الحالمة والزهد الخانع الذليل [2] .

---

(١) الحج / ٣٧ .

(٢) أمير على ـ روح الإسلام ـ بيروت ـ ص ١٩٠ / ١٩١ .

ولم يكتف الحواريون بهذا (التبسيط) التشريعى ، فكتبوا إلى (الإخوة الذين من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية) رسالة تقول : (قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، والمخنوق ، والزنا ، التى إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون) ـ (أعمال الرسل / ١٥).

اقتصر التشريع (الواجب) على أربعة محرمات ، حتى لا يكون (ثقل) ، ومن هنا صح لبولس الذى حمل هذه الرسالة مع برنابا أن يدعو إلى ترك مظهر دينى هام فى شريعة موسى ، وهو (الختان) ، حتى صار رمزاً لبنى إسرائيل ، ودليلاً عليهم .

يقول بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس / ٧ : (أنا آمر فى جميع الكنائس ، دعى أحد وهو مختون فلا يصير أغلف ، دعى أحد فى الغرلة فلا يختتن .. الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها) .

ومع أن للختان أهدافاً أخرى ، فإن المرء ليحس كأن شريعة عيسى قصدت إلى أن تقضى على مظاهر التشدد فى شريعة موسى .. يبدو هذا بوضوح فى موضوع النجاسة ، الذى وسّعت التوراة نطاقه ، وجعلت للطهارة طقوساً خاصة ، فإذا بولس يقول : (إنى عالم ومتيقن فى الرب يسوع ، ليس شيء نجسا بذاته ، إلا من يحسب شيئاً نجسا فله هو نجس) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ١٤) وبهذا هدم ركناً من أخطر أركان التوراة .

ولقد عبّر السيد المسيح عن هذا الاتجاه بالإيحاء ، دون ثورة أو انفعال ، أو استعمال لفظ (أمر) : (ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من الفم ، هذا ينجس الإنسان) ـ (متى/ ١٥) ـ دعوة إلى طهارة النفس ، بحيث لا (تشبهون قبوراً مبيضة ، تظهر من خارج جميلة ، وهى

من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسه) (متى / ٢٣) .

وأخطر النجاسات التى اهتمت بها التوراة جريمة الزنا ، وقد حددت لها أقسى ألوان العقاب ، وهو الرجم ، لكن عيسى عليه السلام تناول القضية من جانب آخر ، هو جانب أولئك الذين يسارعون إلى تنفيذ العقاب ، أو الذين يسارعون إلى تلويث سمعة الآخرين ..

أتراهم يصلحون لتنفيذ الشريعة ؟ .

أوهُم الجديرون بأن يقوموا على محاسبة الآخرين ؟ .

هل طهرت نفوسهم وألسنتهم وأعراضهم حتى يعاقبوا غير الطاهرين ؟.

هل سدّدوا خطاهم حتى يقوّموا سلوك الآخرين ؟ أم أنه (حيثما تكن الجثة فهناك تجتمع النسور) ؟! (متى / ٢٤) .

(قالوا له : يا معلم ، هذه المرأة أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل ، وموسى فى الناموس أوصانا أنه مثل هذه ترجم ، فماذا تقول أنت ؟!)

قال : (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر) .

ثم قال لها : (اذهبى : ولا تخطئى أيضا) – (يوحنا / ٨) .

علاج نفسى ، واحتجاج على فساد منتشر ، تصفق له كل مدارس التربية الحديثة ، لكن .. ماذا والنفس أمارة بالسوء ، ونوازع الشر تعمى ، والفساد الاجتماعى يعدى ، وارتكاب الجريمة يدخل فى باب انتصار الأقوى ؟! .

حقاً ، (إن كان لإنسان مائة خروف ، وضلّ واحد منها ، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ، ويذهب يطلب الضال ؟ وإن اتفق أن يجده ، فالحق أقول لكم : إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التى لم تضل) – (متى / ١٨) .

لكن إن كان هذا الضلال سقوطاً فى الهاوية ، أو مرضاً خبيثاً ، فلا بد من ضرب بقية الخراف التى تسلك سبيل الغواية ، ولا بد من عزل المريض ، حتى لا يهلك القطيع ، وحتى تستجيب البقر يضرب الثور ، و (كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار) – (متى / ٣) – فكيف بالتى تنتج شوكاً وثمراً ساماً ؟! .

مع هذا .. فشريعة التسامح ترى أن (كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه) (متى / ٥) وبهذا تقطع الأسباب الموصلة للجريمة ، وهذا ما عبّر عنه الرسول محمد – ﷺ – بقوله : (العينان تزنيان) ، ومن آداب الطريق (غض البصر) ، فالنظرة الفاجرة من (خطوات الشيطان) .

لقد توسعت شريعة التسامح فى مفهوم الزنا ، مع أنها لم تضع له عقاباً حاسماً ، فصار (من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى) – (متى /٥) .

تشريع حريص على تدعيم الرباط المقدس ، فالطلاق سبيل إلى الضياع ، إلى السقوط .. حقاً ، أو هو يحل من الالتزام بآداب الأسرة ، أو يدفع إلى الانتقام من هذه الآداب .. وكذلك الرباط الزوجى – إذا فقد قداسته – يصير قيداً ، والمقيد تموت فى نفسه معانى النبل والكرامة ، وقد تأخذ هذه المعانى شكلاً آخر ، فتلتبس على صاحبها أو صاحبتها ، وتكون النتيجة حقداً وكيداً وسرقة وزناً وقتلاً .

كما أن الطلاق لغير جريمة الزنا لا يحول دون الزواج بالمطلقة ، فإذا كان الطلاق مثلاً من أجل الكراهية فكيف نمنع الزواج من أجل الحب ؟! .

وفشل التجربة لا يستدعى عدم الدخول فى تجربة أخرى ، وإلا فقد الإنسان قيمة الحياة وجفت ساقه !! .

أما القول بأن (الذى جمعه الله لايفرقه إنسان) ـ (مرقس/ ١٠) فهو قول عام ، لا يرتبط بقضية خاصة ، إذ يمكن أن نقول إن كانت الكراهية بإرادة من الله ، فالتفرقة بإرادته ، والحب الوارد بعد ذلك من الله ، فالله هو الذى يجمع بين المطلقين وغيرهم ، وعلى هذا فليست جريمة الزنا قائمة بين زوجين ، وإن سبق الطلاق فى حياتهما ، وسبحان مقلب القلوب ، فقد يكون الطلاق علاجاً ، ودرساً نافعاً ، وكما يقولون : بين الحب والكراهية شعرة ، وكلاهما تحركه ريح تختلف درجة هبوطها ، فتكون رخاء وتكون عاصفـــة .

أما أن تقول : لقد جرب وجربت ، فلينفصلا ، وليترهبا ، دون أن يحسما العلاقة بينهما ـ فإن وجود هذه العلاقة التى لا هى زواج ولا هى طلاق تساعد على تأريث كثير من المعانى الشريرة ، فهناك متطلبات الحياة الكثيرة المرهونة بتكييف هذه العلاقة ، حتى يأخذ كلٌ طريقه ، على الوجه الذى يمكنه من استئناف حياة جديدة ، فليس الرجال جميعاً على شاكلة هذا الزوج ، وليست النساء جميعاً على شاكلة هذه الزوجة ، ومن فشل مرة لا يحكم عليه بالعقم ، فالبذرة التى لا تنمو فى مكان تجود ثمرتها فى أكثر من مكان .. هذا وللأبناء عيون وآذان وعقول وقلوب ، وللأقارب والجيران والمعارف عيون وآذان وألسنة !! .

وإذا كان (يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات) ـ (متى / ١٩) ـ فهذا عامل خاص ، ارتضاه المتعبد تقرباً إلى الله ، وتفرغاً لعبادته ، وإن كان يحمل طابع التخلى عن الصراع الناشئ عن الشهوة ، والقوة الحقيقة تتمثل فى هذا الصراع ، وفى القدرة على الانتصار .. ثم إذا كنا نشجع الرجال على الخصاء ، فكيف نحمل النساء على العفة ؟! .

من هنا تتسطح النظرة التى تقول : (غير المتزوج يهتم فى ما للرب

كيف يرضى الرب ، وأما المتـزوج فيهـتم فى ما للعالـم كيـف يرضى امرأته) .. و (غير المتزوجة تهتم فى ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً ، وأما المتزوجة فتهتم فى ما للعالم كيف ترضى رجلها .. إذاً من زوج فحسنا يفعل ، ومن لا يزوج يفعل أحسن) ـ (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس / ٧) ـ فهذا التصور غير مسلّم به تماماً ، لأن الزواج كثيراً ما يحمى من نزعات الطيش ، ونزوات الغريزة ، ومن أمراض خبيثة أيضاً ، سواء عن طريق العلاقة الجنسية ، أو عن طريق الأعباء الاجتماعية ، والعلاقات الأسـرية .

وبهذا يمكن تعليل قول بولس فى الرسالـة ذاتها والأصحاح نفســه : (إن كان له امرأة غير مؤمنة ، وهى ترتضى أن تسكن معه ، فلا يتركها ، والمرأة لها رجل مؤمن ، وهو يرتضى أن يسكن معها ، فلا تتركه ، لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة ، والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل) .

وحين نمضى مع بولس ، وبخاصة فى رسالته إلى أهل غلاطية ، نجد اتجاهاً إلى محو الشريعة .. فهو فى الأصحاح الثانى يركز على الإيمان بالمسيح ، (لنتبرر بإيمان يسوع ، لا بأعمال الناموس ، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسدٌ ما) .

وعلته فى ذلك (إن كان بالناموس برّ فالمسيح إذاً مات بلا سبب) .

إنه إذن يدعو إلى التخلى عن الشريعة ، لأنه لا حاجة إلى التكفير عن الخطايا ، ما دام السيد المسيح قد تحمل بمجيئه أو بصلبه خطايا البشرية .

يقول الأنبا جريجوريوس أسقف البحث العلمى فى ذكرى عيد القيامة ـ جريدة الأهرام ـ ١٢ / ٤ / ١٩٨٤ ـ إن (هدف مجيء المسيح خلاص آدم وبنيه من العقوبة الأبدية المحكوم بها عدلاً عليهم ، حيث ورثوا منه حالتــه ، وورثوا منه فساد طبيعته ، فسرى على آدم وذريته من بعده حكم

القضاء الإلهي على الجميع بالموت الأبدى والطرد من الجنة ، وإغلاق الفردوس فى وجه الله) الذى هو المسيح !! .

ومع ما فى هذه الدعوى من مناقضة صريحة للتشريع الموسوى ، كما جاء فى (حزقيال / ١٨) : (النفس التى تخطئ فهى تموت ، والابن لا يحمل بإثم الأب ، والأب لا يحمل إثم الابن ، وغير العادل يكون عليه ، ونفاق المنافق يكون عليه) .

ومع أن هذه الدعوى نذهب ببولس ـ وهو صاحب هذا الاتجاه الجديد ـ إلى التجديف فى حق المسيح بقوله فى نفس رسالته إلى أهل غلاطية : (المسيح افتدانا من لعنة الناموس ، إذ صار لعنة لأجلنا ، لأنه مكتوب : ملعون كل من علق على خشبة) ـ نجد أن هذه الدعوى تطهر الإنسان من الخطيئة ، ومن ثم لم يعد فى حاجة إلى شريعة تقوّم سلوكه ، وحسبه أنه يؤمن بالمسيح ، ففى هذا خلاصه ، وسبيله إلى الجنة ، وإن أهلك الحرث والنسل (!!) .

وبإلغاء الشريعة على هذا النحو يبطل قول السيد المسيح : (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) !! .

ومن هنا صار قوام المسيحية العلاقة بين الله والإنسان .. فما دامت الحدود غير قائمة ، وما دام العقاب المادى غير وارد أمام أعين الخطاة ـ فلا سبيل إلا إلى تقوية الرباط بين الخالق والمخلوق ، بين القادر والمقدور عليه .

ولا تكون العلاقة قوية الفاعلية بين الناس ، إلا إذا كان الإدراك الكامل لألوهية الإله ، والإيمان بصفات كماله التى لا يشركه فيها أحد من خلقه ، ولا يكون ثمة تداخل بين معالم اللاهوت والناسوت ، هذا التداخل الذى جاء به بولس ، واستغله البابوات بعد ذلك ، فباعوا صكوك الغفران ، وأثروا ثراء الفاتيكان ، مع أن (الله لم يشفق على ملائكة قد أخطئوا ، بل فى

سلاسل الظلام طرحهم ، وسلمهم محروسين للقضاء) ، كما جاء فى رسالة بطرس الثانية .

وبعد .. فهل تكون (مدخولات) بولس هذه من الآثار (التلمودية) التى تقصر (رضوان) الله على اليهود ، وتذهب بأبناء (الرجاسات) من الشعوب الأخرى إلى (الجحيم) ؟! .

** على أى حال فإن الطريق أمام من يحسن القراءة رحبة واسعة ، وإن كان ما ورد على لسان عيسى وحوارييه كثيراً ما يلتوى معه الفهم ، لا من حيث سوء الصياغة ، وما أكثره فى كلام الرسل ، وبخاصة بولس ، ولكن من حيث الإلحاح على المعنى وضده .

ويقول يسوع فى وصيته لتلاميذه : (من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى) ـ (متى / ١٠) .

(كل خطية وتجديف يغفر للإنسان ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له ، لا فى هذا العالم ، ولا فى الآتى) ـ (متى / ١٢) .

وفى الرد على من قال له : (أيها المعلم الصالح) قال : (لماذا تدعونى صالحاً ، ليس أحد صالحاً إلا واحد ، وهو الله) [1] ـ (متى / ١٩) .

ثلاثة تعبيرات فى مواضع مختلفة من إنجيل متى ، واضحة الدلالة على أن عيسى ليس هو الله ، لأنه مرسل من قبل الله ، ولأنه إنسان ، التجديف عليه لا يحرم من المغفرة ، أما التجديف على الله فإن : ﴿ ... الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [2] .

---

(١) يبرر صاحب (شمس البر) ـ ص ١١٨ ـ هذا القول بأن المسيح وجهه لسائل كان لا يعتقد أنه إله .. فهل كان يدعم هذا الاعتقاد ؟! .

(٢) النســـاء / ٤٨ .

ولأن يسوع ليس الصالح ، بل الله وحده ، فهذا يعنى الصلاح المطلق (الكامل) ، ومن ثم – وقد رفض بتواضعه أن يدعى صالحاً – كيف وهو يدعى إلهاً ؟! .

جاء فى إنجيل (مرقس / ١٢) : سأله أحد الكتبة : (أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا ، اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك) .

كرر بهذا ما جاء فى سفر (تثنية / ٦) ، مما يفيد التزامه بشريعة موسى ، وإيمانه بما آمن به موسى ، فإن موقفه من الله موقف رسول ، كما كان موسى .

** لكن .. ترد فى إنجيل (متى) أيضاً ، وعلى لسان يسوع ذاته ، تعبيرات أخرى موهمة :

يقول : (إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً) – (متى / ١٢) .

وفى قيصرية فيلبس ، استنكر يسوع أن يقال له أنه (ابن الإنسان) ، وحين قال له سمعان : (أنت هو المسيح ابن الله الحى)، أجاب يسوع : (طوبى لك يا سمعان بن يونا ، إن لحماً ودماً لم يعلن لك ، لكن أبى الذى فى السموات) ، وفى مجال آخر قال بطرس ليسوع : (حاشاك يارب) – (متى / ١٦) .

وقال يسوع : (إن ابن الإنسان سوف يأتى فى مجد أبيه مع ملائكته) – (متى / ١٦) .

وقال بطرس ليسوع فى كفر ناحوم : (يارب، كم مرة يخطئ إلىّ أخى ، وأنا أغفر له ؟) – (متى / ١٨) .

ومع هذا الإبهام ، قد يجد المرء تفسيراً آخر لمعنى البنوة والربوبية ،

فالبنوة ليست معنى جسدياً تناسلياً ، بل هى تعبير عن الحاجة إلى الراعى القادر ، تعبير عن ضعف المخلوق أمام خالقه ، والربوبية تربية وإعداد ورعاية .. لهذا نجد يسوع فى الأصحاح السادس والعشرين من متّى (ذا نفس حزينة جدا حتى الموت ، ويخرّ على وجهه يصلى) ، فهل هذه إلا صفات مخلوق يعانى ويضرع إلى خالقه ؟! .

ومما يرجح هذا التفسير أن تعبير البنوة ليس مقصوراً على السيد المسيح ، بل هى عادة منتشرة فى كتب (العهد القديم) ، فالرب يقول لإسرائيل : (أنت ابنى البكر) ، ولداود : (ابنى وحبيبى) ، ولسليمان : (أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً) ، وأشعيا يخاطب الله بقوله : (فإنك أنت أبونا ، يارب أنت أبونا) ، وجاء فى سفر (تكوين ٦) : (أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا .. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس ، وولدن لهم أولاداً ، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم) .

بل إنه تعبير شائع فى الديانات قبل اليهودية ، فقد جاء فى ابتهالات أخناتون :

(أنت فى قلبى ، ولا أحد يعرفك
غير ابنك أخناتون
أنت الذى ألهمته معرفة طبيعتك وطاقتك) [1] .

أخناتون هذا الذى يزعم بعض المؤرخين أنه أول أبناء الجنس البشرى إدراكاً لوحدانية الله – جل شأنه – وشموليته :

(فى بلاد سوريا ومصر ، تضع كل شىء فى مكانه
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه

(١) محمد شبل – إخناتون – ص ٦٨ .

وتزود كل كائن بطعامه ، وتقدّر له أجله .

وبفضلك يختلف الناس فى لغاتهم ، وتفترق طبائعهم ، ويتباين لون جلودهم

فأنت الذى ميزت الأمم الأجنبية بعضها عن بعض ، وأنت الذى تهبها الحياة) [١] .

وقد جاء فى قصيدة رامايانى فلميكى الهندية أن راما الذى هو إله تارة وبطل أخرى .. راما بقوة تقواه ظل يميل نحو أبيه القديم بحب لا يتزعزع :

ظل يرعى واجبه النبيل فى وصية أبيه المقدسة [٢] .

وهذا الفهم المجازى يؤكد ما جاء فى (لوقا) على لسان يسوع فى أخريات أيامه ، مخاطباً الله :

(لتكن لا إرادتى ، بل إرادتك) ـ (لوقا / ٢٣) .

فصل واضح بين الإرادة البشرية ، والإرادة الإلـهية ، بين عيسى وخالقـه .

أما ذلك الموقف بين يسوع والفريسيين فى الأناجيل الثلاثة : متى ، ومرقس ، ولوقا :

(فيما كان الفريسيون مجتمعين ، سألهم يسوع قائلاً ، ماذا تظنون فى المسيح ؟ ابن من هو ؟ قالوا له : ابن داود .. قال لهم : فكيف يدعوه داود بالروح رباً ، قائلا : قال الربّ لربىّ : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئـاً لقدميك ، فإن كـان داود يدعـوه رباً فكـيف يكـون ابنـــه ؟) ـ (متى / ٢٢ ومرقس / ١٢ ولوقا / ٢٠) .

هذا الموقف لا يخرج عن بيان مكانة عيسى ، وأنه ليس مجرد إنسان لا دورَ له متميزاً فى الحياة عن طريق السماء .

---

(١) محمد شبل ـ إخناتون ـ ص ٩ .

(٢) فى العقائد والأديان ـ ص ١٤٧ .

** وأتى يوحنا متأثراً بالفيلسوف اليهودى فيلون ـ المعاصر للسيد المسيح ، والمفتون بالفلسفة اليونانية ، والقائل :

(إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان) ـ فقال ناهجاً نهجاً صوفياً ، شأن فيلون : (فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عنـد الله ، وكان الكلمة الله) (أصحاح / ١ ـ ١) .

ويلاحظ أن التراث المصرى القديم ذكر أنّ لسان الإله (أتوم) ، خلق كل شيء حى ، بواسطة (الكلمة) التى خلقت كل قـوى الحيـاة ، وكل ما يؤكل ، وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان [١] .

ومن ثم يمكن تفسير تعبير يوحنا بقوله : (كل شيء به كان ، ولغيره لم يكن شيء) (أصحاح / ١ ـ ٢) .

وعلى هذا يكون الأمر مقصوراً على الله ، وإرادة الخلق والتكوين ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كـن فيكون** ﴾ [٢] .

لكن ما يلبث إنجيل يوحنا أن يمضى بالمعنى إلى حيث أن يوحنا المعمدان جاء (ليشهد للنور، لكى يؤمن الكل بواسطته ، لم يكن هو النور ، بل ليشهد للنـور ، كان النـور الحقيـقى الذى ينيـر كل إنسـان ، آتياً إلى العالم،كان فى العالم ، وكُوِّن العالم بـه ، ولم يعرفـه العالم) (أصحاح / ١ ـ ٧ و ١٠).

بهذا يبدو أن المسيح هو الكلمة ، والكلمة هى الله ، والله هو النور ، والنور هو المسيح الذى (إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله ، وأما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنون باسمه)(أصحاح / ١ ـ ١١ و ١٢).

---

(١) ديانة مصر القديمة ـ ص ١٠٦ .

(٢) يس / ٨٢ .

فكأنه يقول : إن المسيح هو الكلمة ، لأنها تحققت فيه ، والله هو الكلمة لأنه صاحبها ، وهو النور لأنه خالقه ، والنور هو المسيح لأنه ناشره بين الناس ، وكل من يفعل فعل المسيح فهو ابن الله ، لأنه مؤمن بالله ، منفذ لأوامره ، فبنوة المؤمنين (الذين ولدوا ليس من دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا مشيئة رجل) ناشئة عن هدَى الله ، واصطفائه ورضوانه ، وكل هذا منة وفضل (من الله) (أصحاح / ١ ـ ١٣).

إنه ـ على هذا ـ لا ينفى أن يكون المسيح (ابن الله) كأى مؤمن بما جاء به عيسى ، درجة النبوّة هى التى تختلف باختلاف ما بين الرسول وقومه ، فالبنوة لله مع عيسى حقيقة سامية أخذت صورة إنسانية ، إذ (الكلمة صار جسداً ، وحل بيننا) (يوحنا / ١) ومع المؤمنين اتصال بالله وامتثال لمشيئته .

وينبغى ملاحظة أن يحيى ـ عليه السلام ـ كان إلى آخر أيامه شاكاً فى عيسى ، عليه السلام : هل هو المسيح الموعود به أو لا ، كما فى إنجيل (متى / ١١) ، إذ يقول : (أرسل اثنين من تلاميذه ، وقال له : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟) .. فلو كان عيسى إلهاً لزم تكفر يحيى ، إذ الشك فى الإله كفر ، وكيف لا يعرف النبى إلهه ؟ لقد كان يحيى أفضل من نبى بشهادة السيد المسيح ، حين أخبر متى ـ فى نفس الأصحاح الحادى عشر ـ فقال : (لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان) ، فكيف فاته أن يعرف الذى منّ عليه بهذا الفضل ؟! .

** وتتجلى المغايرة بين الله وعيسى فى قول يسوع :

(الحق أقول لكم ، لا يقدر الابن أن يفعل من نفسه شيئاً ، إلا ما ينظر الآب يعمل ، لأن الآب يحب الابن ، ويريه جميع ما هو يعمله .. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذى أرسله ، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً ،

لأنه ابن الإنسان .. أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً ، كما أسمع أدين ، ودينونتى عادلة ، لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى .. هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى أن الآب قد أرسلنى) (يوحنا / ٥) .

يلاحظ أن هذه العبارات جميعاً من حديث عيسى فى أورشليم ، يوم عيد لليهود ، وهذا الحديث لم يرد فى الأناجيل الثلاثة الأخرى ، وقد أفدنا من (يوحنا) استخدام لفظ (الآب) خاصاً بالله الذى تختلف مشيئته عن مشيئة (ابن الإنسان) ، والآب هو الموجه ، وهو العامل ، وهو القادر ، وهو الديان ، وهو الذى أرسل ابن الإنسان إلى قومه .. هذا فضلاً على أن (الله لم يره أحد قط) ، كما جاء فى (يوحنا / ١) ، أما عيسى فهو يمشى بين الناس ، ويفعل ما يفعلون ، ويقع عليه عدوان المعتدين ، ولا يتميز عن غيره إلا بأنه رسول الله ، وقائد موكب الهداية والرشاد .

(قالوا له : ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ؟ أجاب يسوع ، وقال لهم : هذا هو عمل الله ، أن تؤمنوا بالذى أرسله) ـ (يوحنا / ٥) ـ (تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى) (يوحنا / ٧) .

هذا دور عيسى ، وهذه هى علاقته بخالقه ، مجرد رسول .

وبهذا لا يخفى علينا ما يعنيه بقوله فى الهيكل ـ فى عيد التمجيد ـ لليهود (يوحنا / ١٠) :

(أبى الذى أعطانى إياها ـ يقصد خرافه ـ هو أعظم من الكل ، ولايقدر أحد أن يخطف من يد أبى ، أنا والآب واحد) .

يفيد هذا القول أنه ليس الله ، لكنه يصدر عن الله ، غير أن من المسيحيين من يؤول قوله : (أعظم من الكل) على أساس أنه أعظم من عيسى فى حالة تجسده ، بدليل أنه قال بعد ذلك : (أنا والآب واحد) مع

أن العبارة الأخيرة نعنى أنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فما يجىء به من هداية خرافه إنما هو من الله ، واجب التبليغ نصاً ، ولا يملك معه تحريفاً أو اجتهاداً ، ولعل اليهود الذين كانوا يستمعون إليه أرادوا عبارة لا تحتمل التأويل ، فقالوا له : (إنك ـ وأنت إنسان ـ تجعل نفسك إلهاً ؟!) ، فقال : (إن كنت لست أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى ، ولكن إن كنت أعمل ، فإن لم تؤمنوا بى فآمنوا بالأعمال، لكى تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فىّ وأنا فيه) ـ (يوحنا / ١) .

قول يركز على القدرة الحسنة ، فليست العبرة بالأقوال ، بل بالأفعال ، كما أنه ليست العبرة بالقائل ، بل بما يقول .. لكن الصياغة تذكرنا بنزعة الصوفى الإسلامى الذى قال : (ما فى جبتى غير الله) ، وهو قول لا يتجاوز الإشعار بقوة الإيمان ، وبقوة الاتصال بالله ، والاستغراق الكامل فى حب الله .

فى أقسى لحظات المعاناة التى يلجأ فيها أغلظ الناس قلوباً إلى الصدق والبوح بما تعتمل به النفس ، نجد السيد المسيح يضرع إلى الله ، قائلاً : (إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى؟!) ـ (متى / ٢٧ ، ومرقس / ١٥) ـ إنه نداء اليأس البشرى ساعة الاحتضار ، كما يقول ول ديورانت الذى يضيف : (ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية ، فبدّلها بقوله : « يا أبتاه ، فى يديك أستودع روحى » (١) .

وكل من عبارة متى ومرقس ولوقا دليل على بشرية عيسى ، وعلى ضعفه عند الشدة ، وعلى حاجته إلى خالقه . ومن الواجب أن نعرف أن الإله (موجود ، واجب الوجود لذاته ، ليس جسماً ، ولا متحيزاً ، ولا عرضاً) ، وعيسى ـ عليه السلام ـ بخلاف هذا كله ، وإذا كان قد أحيا

(١) قصة الحضارة ـ جـ١١ ص ٢٣٨ .

الميت بإذن الله ، فالعهد القديم ينسب إلى حزقيال إحياء آلاف الموتى ، كما أن كُلاًّ من إيليا وأليشع شاركا فى الإحياء والإبراء من الأمراض المزمنة !! .

وهذا المفهوم الذى يفصل بين ما لعيسى وما لله أدركه كثير من المفكرين المسيحيين .

يقول اكلمندس الرومانى الذى كان إيريناوس يعتبره أسقفا لروما : (إن الله أرسل المسيح ، والمسيح اختار الرسل ، والرسل اختاروا خلفاءهم من الشيوخ والأساقفة) ، ويقول اغناطيوس الأنطاكى : (اتبعوا الأسقف كما اتبع يسوع المسيحُ الآب) .

قال إميل لودفيج : (لم يفكر يسوع فى أنه أكثر من نبى ، وليس بقليل أن يرى نفسه فى بعض الأحيان دون النبى ، ولم يحدث أبداً من يسوع ما يخيِّل به إلى السامع أن له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم ، وما كان يسوع ليذهب إلى أبعد من ذلك ، فيدعى أنه المنقذ المنتظر ، فإذا ما قال الناس إنه أحد قدماء الأنبياء راقه ذلك ، موجهاً أفكارهم إلى ملكوت السموات ، إلى أبينا جميعاً ، وإذا ما قال إنه ابن الرب كان ذلك محمولاً على أنه ابن الرب كجميع الذين يشعرون بانطواء أنفسهم على القوى المبدعة التى يشتق منها وجودنا ، والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه ابن الإنسان ، وقديما أراد الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوة الواسعة التى تفصلهم عن الله ، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الإنسان ، ومن هؤلاء دانيال وحزقيال اللذان أظهرهما الرب مخاطباً كلٍ واحد منهما بابن الإنسان ، أى بآدمى ضعيف هالك ، وِلد ليفنى بعد ألم ، ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب) (١) .

وقال توينبى المؤرخ العالمى المعروف :

(إن علاقة المسيح بالله هى علاقة روحية ، تشبه العلاقة الروحية التى

(١) ابن الإنسان ـ ترجمة عادل زعيتر ـ ط الحلبى ١٩٤٧ .

تقوم بين الآباء والأبناء من البشر ، فى أرفع درجاتها .. ومعنى كون المسيح ابن الله أن الحب كان يلهمه ويملأ شغاف قلبه أكثر من أى إنسان آخر نعرفه ، وبهذا المعنى يكون جميع الناس أبناء الله ، ولا يكون المسيح هو ابنه الأوحد ، وإنما يتفاوت الناس فى درجة بنوتهم لله ، بمقدار ما يحملون من المحبة فى قلوبهم)[1] .

وهذا ما يوضحه قول السيد المسيح : (تعلمون أنى أنا فى أبى ، وأنتم فىّ ، وأنا فيكم) (يوحنا / ١٤) فهذا (الحلول) المعنوى لا يعنى إلا قوة الاتصال ، كما يقول الحلاج : (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) .

وصدق الله فى قرآنه : ﴿ ... **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا** ﴾[2] .

* * *

يأتى ـ بعد أصحاب الأناجيل ـ أولئك الرسل الذين نشروا دعوة السيد المسيح فى (الأمم)، فلم يخرجوا عن هذا المفهوم الفاصل بين الله وابن الإنسان ، وجعل ما لله لله وما لعيسى لعيسى .

بطرس الرسول يقول : (أيها الرجال الإسرائيليون ، اسمعوا هذه الأقوال : يسوع الناصرى رجل أيده الله بينكم بالآيات والمعجزات ، كما تعلمون) ـ (أعمال الرسل / ٢) .

(١) عن مقال للدكتور محمد توفيق حسين ـ مجلة آفاق عربية ـ آذار ١٩٧٦ ـ نقلاً عن كتاب (تجارب) لتوينبى .

(٢) النســاء / ١٧١ ـ ١٧٢ .

(إن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً) ـ (أعمال الرسل / ٢) .

(إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، إله آبائنا ، مجّد فتاه يسوع الذى أسلمتموه) ـ (أعمال الرسل / ٣) .

(إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة) ـ (أعمال الرسل / ٥) .

واضح تماماً أن الإله هو الذى جعل يسوع مسيحاً ، ومجّده ، وأقامه ، وأن يسوع هذا قَدَر عليه اليهود ، فأسلموه ، وصلبوه ، و (علقوا إياه على خشبة) .

وبولس الرسول يقول : (صار من نسل داود ، من جهة الجسد ، وتعيّن ابن الله بقوة ، من جهة روح القداسة) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ١) .

(نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٤) .

(أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٦) .

(الخليقة نفسها أيضاً ستُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله) ـ (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٨) .

فالمسيح من نسل داود ، بشر كآبائه ، يرتبط بالله من جهة الروح ، والله هو الذى تفضل فبعث فيه الحياة مرة ثانية بعدما صلب ودفن ، وقوة الصلة بين الله وعيسى حررت عيسى من سلطان الجسد ، ويمكن لغير عيسى ـ بقوة إيمانهم ـ أن يتحرروا كذلك ، ويتصلوا بمجد الله .

** هذا هو ما يمكن أن يرتبط بشريعة سماوية ، أما تجسيد (اللاهوتى فى الناسوتى) فليس إلا من بقايا الوثنية التى تسللت إلى العقيدة السماوية

من بيئات ثقافية مختلفة ، وبخاصة اليونان ، أو هو من رصيد التجسيد لله الذى يشيع فى التوراة [١]، ومن رصيد الحلول اللاهوتى الناسوتى الذى نجده فى التلمود ، إذ (تتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أن الابن جزء من أبيه) ، ويقول التلمود بالتناسخ ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند وأخذه حاخامات بابل من بيئة الأسر الطويل ، أو لعله ما جاء فى الأساطير السومرية عن زواج أبسومن تيامت الذى تولد عنه ثلاثى الآلهة ، أنو وأنليل وأبا ، فى الأساطير البابلية ، أو لعله صورة من ثالوث الآلهة براهما وفشنو وسيفا فى الأساطير الهندية ، أو من الثالوث المصرى أوزيريس وإيزيس وحورس .

وإذا كان العهد القديم قد تتلمذ طويلاً على التراث المصرى القديم ، والعهد الجديد (تكملة) للعهد القديم ، واستمرار له ـ يسهل علينا الرجوع إلى قصة تقمص الإله آمون شكل الملك تحوتمس ، ليستولد زوجته (أحمس) الجميلة الابنة المحبوبة (حتشبسوت) ، ويتقمص (بتاح تاتنن) شكل (تيس مندس) ويضطجع مع أم رمسيس الجميلة ، لكى تلد هذا الملك العظيم ، (وأعضاؤه كلها إلهية) .

(وفى مساكن العصر الرومانى نجد بين تماثيل الآلهة من الصلصال أشكالاً متنوعة لإيزيس ، كانت تعتبر ـ عند العامة من الناس ـ تماثيل مقدسة ، وكثيراً ما تزود بمصابيح تضاء فى عيد المعبود ، تكريماً له ، وفى هذه التماثيل الصغيرة يتجلى الشغف بإبراز الجانب الإنسانى فى إيزيس ، فقد كان يستحب تمثيلها مع رضيعها وهى تعطيه ثديها ، فى وضع يذكر فى بعض الأحيان بتماثيل السيدة العذراء) [٢] .

ولا ريب فى أن تماثيل السيدة العذراء دليل قاطع على مدى تأثر

---

(١) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢) ديانة مصر القديمة ـ ص ٦٤ و ٦٥ و ٤٣٤ .

الديانة المسيحية بالتراث المصرى القديم ، وبخاصة أن مصر احتضنت الديانة المسيحية فى مراحل هامة من تاريخها ، وكان عصر الشهداء قمة التضحية المصرية فى وجه الطغيان الرومانى .

يؤكد هذا قول ول ديورانت : (فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب ، فأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان فى هذا وذاك ، ومنها جاءت أم الطفل ، والاتصال الصوفى بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية ، ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها وصورتها التى نسجت على منوالها ، ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس ، ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام ... وقصارى القول إن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم) [١] .

** وقد سيطرت الوثنية اليونانية ، والفلسفة اليونانية على فكر بولس الرسول الذى (كان فيه من الإحساس القوى والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء)[٢].. لذلك جرت على لسانه تعبيرات ملتوية ، مهدت لمثل ما صار إليه الفهم العام ؛ مع أن المسيحية بريئة منه ، أو قل إنها بريئة مما صارت العامة تردده ، دون وعى ، أخذاً بظاهر اللفظ ، أو اقتداء بأولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً .

ويلاحظ أن هناك من يتهم بولس (شاءول) اليهودى الفريسى ، بأنه دخل المسيحية ليخربها من الداخل ، إذ نقلها من ديانة خاصة ببنى إسرائيل إلى ديانة عالمية ، ونقلها من التوحيد إلى التثليث ، وقال بألوهية المسيح وألوهية روح القدس ، واخترع قصة التكفير عن خطيئة البشر .

---

(١) قصة الحضارة مج٣ ـ جـ٣ جـ ١١ ص ٢٧٥ / ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٥١ .

واليهود المسيحيون الذين كانوا ـ حتى عام ٧٠م يعدون أغلبية الكنيسة، وصموا بولس بالخيانة والتواطؤ ضد المسيحية ، وكان رئيس الجماعة فى ذلك الحين Jacques (يعقوب)قريب المسيح ، وهو يعد عمود اليهودية المسيحية الذى ظل عن إرادة ملتزماً بخط اليهودية أمام المسيحية البولسية ، وقد ظلت اليهودية المسيحية مسيطرة ثقافياً حتى عام١٤٠م ، ومن عام٧٠ حتى١١٠ نتجت أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا ، ولقد كانت رسائل بولس سابقة عليها ، إذ إن رسالته إلى أهل تسالونيكى كانت سنة٥٠ تقريباً ، لكنه لم يشهد المسيح ، وإن ادعى أن المسيح قد ظهر له ، على طريق دمشق ، بعد قيامته ولم تنتصر رسالة بولس إلا بعد وفاته حين ساد المسيحيون الهللينستيون[1].

ثم جاء لوثر ليجعل منه رسول الإصلاح الدينى ، وأخذ عنه كلفن عقيدة الجبرية [2] .

يقول بولس عن بنى إسرائيل : (لهم الآباء ، ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٩)

(الذى هو صورة الله غير المنظور ، بكْر كل خليقة [3]، فإنه فيه خُلق الكل ، مافى السموات وما فى الأرض ، ما يرى ومالا يرى ، سواء كان عروشاً ، أم سيادات أم رياسات ، أم سلاطين ، الكل به وله قد خلق) ـ (رسالة بولس إلى أهل كولوس / ١).

---

(١) موريس بوكاى ـ ص ١٨ و ٧٤ .

(٢)قصة الحضارة ـ مج٣ ـ جـ٣ ـ ص ٢٧٠ .

(٣) يعلق وليم باركلي في كتابه الخاص بسفر الرؤيا ص٤٤ بقوله : (يقصد أن المسيح رب الكون كله ، وله وحده مكان الشرف والمجد) ، ومع هذا يقول ص٥٨ : (ومن ملابس شبه الإنسان نرى أنه صاحب الوظائف الثلاث : فهو النبى ، والملك ، والكاهن) وفى ص١٦٩ يقول : (فعندما عمّد يوحنا يسوع انفتحت السماء ونزل روح القدس على المسيح) .

(فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً) ـ (إلى أهل كولوس ٢/) ـ (الله ظهر فى الجسد، تبرر فى الروح ، تراءى لملائكته ، كرز به بين الأمم، أو من به فى العالم ، رفع إلى المجد) ـ (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٣/) .

** وجاء يوحنا اللاهوتى فجعل من هذا الالتواء شعاراً ، وصار خلاصة رسالة المسيح :

(إن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة : الآب والكلمة والروح القدس ، وهؤلاء واحد ، والذين يشهدون فى الأرض هم ثلاثة : الروح والماء والدم ، والثلاثة هم فى الواحد) ـ (رسالة يوحنا الأولى / ٥) .

(أنا هو الأول والآخر ، والحى ، وكنت ميتاً ، وهأنا حى إلى أبد الآبدين ، آمين ، ولى مفاتيح الهاوية والموت) ـ (رؤيا يوحنا / ١)

** وكان أن عرض أريوس الإسكندرى (ت ٣٣٦)لهذا الأمر ، فأعلن أنه (إذا كان الابن من نسل الأب فلابد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن ، وعلى هذا لايمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن ، يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلابد أن يكون خلقه من لاشىء أى من غير مادة الأب ، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة ، وقد ولد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها[1] .

ولما كان أريوس مؤيداً بعدد كبير من رجال الدين ارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء ، فدعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع فى الإسكندرية ، وأقنع أعضاءه بتجريد أريوس وأتباعه ، وأبلغ الإجراءات التى اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة ، لكن الجدل ظل قائماً بين المؤيدين

---

(١) قصة الحضارة ـ مج٣ جـ٣ ـ ص ٣٩٢ .

والمعارضين ، مما دعا قسطنطين الملك إلى دعوة أول مجلس عام للكنيسة لوضع حد لهذه الخلافات التى اشتعلت نيرانها فى بلاد الشرق اليونانى ، فانعقد سنة ٣٢٥م مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر – فى نيقية البيثينية بالقرب من عاصمة نقوميديا – بصحبتهم حشد كبير من رجال الدين الأقل درجة ، واستطاعوا أن يصوغوا تشريعاً يقول :

(نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لايرى ، وبرب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد المولود من الأب ، قبل كل الدهور ، نور من الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ الآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنّس وصلب على عهد بيلاطس النبطى ، وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وأيضاً فسيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لافناء لملكه ، وبروح القدس الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، مع الآب والابن، مسجود له، وبمجد الناطق فى الأنبياء ، واعتقد بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وإرجاء قيامة الموتى ، وحياة الدهر الآتى ، آمين)[١].

وحكم المجلس على أريوس ومؤيديه باللعنة والحرمان ، ونفاهم قسطنطين من البلاد ، وصدر مرسوم امبراطورى بإحراق كتب أريوس جميعاً وصار إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام [٢].

وبهذا انسع مجال البلبلة والاضطراب الفكرى وبخاصة أن هذا المجمع المسكونى لم ينجح فى إفهام العقول – ولا سيما العقل اليونانى – سر عقيدة التجسيد ، وكيف أن أقوال أريوس القائلة بأن المسيح مخلوق بأمر الله الآب – فاسدة ، وليست أقوال اثناسيوس القائلة بأزلية المسيح جسداً وجوهراً .

(١) ابن تيمية – الجواب الصحيح – ص ١١٨ .

(٢) قصة الحضارة – مج٣ جـ٣ – ص ٣٩٤ / ٣٩٦ .

ولا شك فى أن القول بالأزلية أو الألوهية يثير أكثر من سؤال :

كيف يعيش الله فى رحم امرأة ؟ هل تصبح مريم زوجاً للإله أو أمّا ؟ كيف تصبح زوجاً للإله وهى على ذمة يوسف النجار ؟.

ألا نفتح الطريق بهذا القول أمام اليهود ، فيصفونه – عليه السلام – بأنه ابن زنا ؟! .

إذا كانت ابنة عمران أمّاً لله ، فهل نغذى جسد الله من دمها ؟ .

ألا تصبح أم الله إلهة هى الأخرى ، مع أنها ابنة عمران ؟ .

حين كان الرب جنيناً ، هل فقد شيئاً من صفات الألوهية ؟ .

هل كان يدير الكون من داخل قفص الرحم ، أو كان فى إجازة ، والكون يسير بقوة القصور الذاتى ؟ .

حين ولد وباشر حياة الناسوت هل كان يباشر حياة اللاهوت فى ذات الوقت ؟ .

هل يمكن تصديق القس منسّى فى قوله : (لئن كنا نراه يؤدى الواجبات الناسونية ، ويباشر مع الناس ، إلا أن روحه كانت فى السموات مع أبيه ، وبنور ذلك الموضع السامى نظر إلى العالم الأسفل ، وبه دبّر شئونه ودعوته بين الناس)[١] ؟ .

إذا صح أنه (يباشر مع الناس) بلا روح ، وأن (روحه كانت فى السماء مع أبيه) فهل انفرد بالعمل دون أبيه ، أو قسّما العمل بينهما ، وهل كانت القسمة بالتساوى ، أو أن حظ أحدهما كان أكبر ؟ .

وهل يمكن أن يكون الابن هو الآب فى وقت واحد ؟ .

هل كان (مساوياً الآب فى الجوهر الذى به كان كل شىء) حقا ؟.

ألا يعنى هذا أنه والآب يصبحان جوهرين متساويين ، أى أنه ليس هو ؟ .

وإلا فكيف أصبح مُرسلاً ورسولاً ؟ .

(١) شمس البر – ص ١٥ .

كيف نصدق أن (الفكرة القائلة بأن يسوع جاء إلى العالم بكتاب أنزل عليه اسمه الإنجيل فكرة خاطئة ، لا تطابق الواقع ، والأحرى أن يقال : إنه عندما جاء يسوع إلى العالم أعطى الإنجيل للناس) [1] ؟ .

أليس هذا لوناً من العنت والإجهاض الفكرى ، فى سبيـل الافتراء على ما جاء به القرآن الكريم تعظيماً وتمجيداً ودفاعاً من الرسول عيسى ابن مريم ، وعن السيدة مريم ، عليهما سلام الله ورحمتـه ؟ .

كيف يصح أن يمسك الجنود والغوغاء بالإله ويضعوا الشوك على رأسه ، ويبصقوا على وجهه ، ويصلبوه بين لصين ؟ .

لصالح من هذا العبث والتجديف على الله ؟ .

أهى الاستهانة بالعقل الإنسانى إلى حدّ إلغائه أو تشويهه ؟ .

أليس هذا الاضطراب وهذه البلبلة وهذا التجديف مما دعا سابيليوس إلى القول : إن الأقانيم الثلاثة هى الوجود والحكمة والحياة ، وليست معانى زائدة على ذات الله تعالى ، بل هى صفات اعتبارية ، ولا مسمّى لشىء منها فى الخارج ، إذ البارى تعالى موجود لا بوجود ، وحكيم لا بحكمة . وحىّ لا بحياة ـ كما أورد ابن العبرى فى مختصر تاريخ الدول ص ١٢٨ ـ وهو مفهوم يلتقى بالفكر الإسلامى ، إن لم يكن مستقى منه ؟! .

أليس هذا الاضطراب وهذه البلبلة وهذا التجديف مما ساعد على ظهور مذهب الموحدين Unitarians القائم على وحدانية الله ورفض التثليث ، وكان نيوتن أحد رجال هذا المذهب ، أو كما قال برونوفسكى : كان العلماء أواخر القرن السابع عشر يشعرون بالحرج من مبدأ التثليث ؟! [2] .

أليس هذا الاضطراب وهذه البلبلة وهذا التجديف مما شجع الدكتور راشدل أسقف كارليل على القول ـ فى مجتمع من رجال الدين فى أكسفورد سنة ١٩٢٠ ـ بأن عيسى ليس إلا إنساناً ، بكل ما يتضمن هذا

(١) مصادر الكتاب المقدس ـ ص ١٩ .

(٢) ارتقاء الإنسان ـ عالم المعرفة ـ عدد مارس ١٩٨١ ـ هامش ص ٩٩ .

اللفظ من معان ، لأنه لم ينسب إلى نفسه الألوهية ، وما هو إلا جسد بشرى ، وروح بشرية ، عقلاً وإرادة ، ولأن ميلاده من عذراء لا يثبت ألوهيته ، ومن العسير إنكار أنه توقع حدوث أشياء فى المستقبل لم تتحقق تاريخيـاً ؟! .

وأيّد هذا الإتجاه هـ . د . ميجر الذى افتتح المناقشة بأن عيسى لم يَدع أنه ابن الله ، بالمعنى الميتافيزيقى ، بل بالمعنى الذى يكون به البشر ذوى صلة روحية وبنوية بالله ، قادرين على أن يعملوا بالأسس الأخلاقيـة التى بها يعمل الله .

ونجد روبرتسون فى كتابـه Paganchrist يحدثنا عن عبارة مثرا الفارسية التى انتشرت فى العالم لمدة تقرب من ستة قرون ، فيقول : إن مثرا ولدته عذراء فى كهف ، فى ٢٥ ديسمبر ، وإنه جاب الآفاق يبشر برسالته ، وكان حواريوه اثنى عشر رجلاً ، وإنه مات فى سبيل البشرية ، واحتفل بقيامه من القبر بفرح عظيم ، وقد أطلق اسم المخلّص .. ومما هو جدير بالذكر أن هذا الدين كان قوياً إلى القرن الثالث الميلادى [1] .

ماذا يقصد روبرتسون بهذا القول ؟! .

ألا نكون فى غنى عن هذا كله لو أنصفنا المسيح والمسيحية ، دون هذا الإغراق فى البهتان ، حتى لا نضطر أخيراً إلى أن نقول :

(هو حقيقة أعلنها الله فى كلمته ، وهى تفوق العقل ، ولذلك ينبغى أن نصدقها ، وإن كنا لا ندركها) !! .

(إنها سر ، ووجود الأسرار فى الدين إشعار بأن الدين من الله) !! .

الاعتراف بأن الثالوت أغمض سر يعد تكريماً لله ، (لأننا حينئذ نصغى له بأسمى شىء فينا ، وهو العقل) !! .

(١) فى العقائد والأديان ـ ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

أو أن نتفلسف ـ دون وعى بأنه يلزم لكون الله ودوداً محبـاً ، منـذ الأزل ، أن يكون له مودود ، أى محبوب منذ الأزل ، حتى (يتصل الله اتصالاً أزلياً كلياً بداخله) ، وبهذا يصبح الله (مثالاً للحياة البشرية ، فيما يتعلق بالمعاشرة الحبيبة والألفة الإلهية) !! .

فإذا قيل : لماذا لم يقل المسيح صريحاً : (أنا الله) ، بل قال : (أنا ابن الله) ، كان الجواب : لأنه لو قال : (أنا الله) يجمع إلى أقنومه أقنومى الأب والروح ، وهما معه أقنومان ممتازان فى اللاهوت ، بل قال : (أنا ابن الله) لنعرف نسبته الأزلية إلى الأقنوم الأول ، وقال (أنا والآب واحد) ، لنعرف مساواته له [1] !! .

* * *

لقد أدى هذا التقوقع الفكرى ، والخوف من أن تنال عقول الآخرين من هذا المعتقد الخطير ، إلى أن صارت أسلحة دفاعاتهم مصوبة إلى صدورهم .

يقول القديس غريغوريوس: (أنه خير لله أن يكون أباً لابن ، من أن يكون سيداً لجمهور من العبيد) !! .

وهؤلاء العبيد هم خلق الله الذين خلقهم على صورته ، كما تقول التوراة !! .

ويقول م . ليموان : (إنه خير له ألاّ يكون معروفا من كائن آخر غير ذاته) !! .

يعرف مَنْ حقيقة مَنْ ؟ أهو تفسير جديد للحكمة القائلة : (اعرف نفسك) ؟! .

(١) شمس البر ـ ص ٦٧ و ٦٨ و ٨١ و ١٢٧ / ١٢٨ .

ويعلل الدكتور أنس وجودَ عيسى الإله بأن (الله وحده يقدر أن يصالحنا مع الله) ، و (من يكفّر عن خطايانا غير الابن الإله ، ومن يقدسنا غير الروح القدس الإله) ؟! .

أى أننا ما دمنا نخطئ فى حق الإلـه ، فلابد أن يكون إله يطهر أرواحـنا ، ليرضى عنا الإله الذى هو إله التكفير وإله التطهير فى الوقت نفسـه ، لأن (الآب إله ، والابن إله ، والروح القدس إله ، ولكنهم ليسوا ثلاثة آلهة ، بل إله واحد) !! .

أليس هذا أشبه بقول كهنة الهنود فى تفسير الأسماء الثلاثة التى أطلقت على (الله) :

هـو براهما من حيث هو موجود

وهـو فشـنو من حيث هو حافظ

وهو سيفا من حيث هو مهلك ؟!

ولا غرابة فى هذا ، فإنه (مع كونهم ثلاثتهم ذوى طبيعة واحدة ، ترى كلا منهم منفرداً عن الآخر ، كاملاً بذاته ، يتكلم باسمه ، فيقول الآب : أنا خلقت العالم ، ويقول الابن : أنا فديت العالم ، ويقول الروح القدس : أنا قدست العالم) ، والثلاثة جوهر واحد ، عليك أن تسلم به ، ولا تفكر فيه ، (فما أعلى الحقائق التى تتضمنها عقيدة التثليث ، وما أدقها ، فما مسّتها اللغة البشرية إلا جرحتها فى أحد جوانبها) ، كما يقول العلامة أوجيه دى بليس ، و (عندما يراد البحث عن كلمة للإعراب بها عن « الثلاثة » فى الله تعجز البشرية عن ذلك عجزاً أليماً) ، كما يقول القديس أوغسطينوس ، وكل ما يمكن اللغة أن تقوله هو كما قال أوريجانوس : (إن الآب هو الأصل ، أو الله الذى هو من ذاته وبذاته إله، وإن

الابن مولود من الآب فقط ، فهو غير مصنوع ولا مخلوق ، بل مولود ، وإن الروح القدس غير مصنوع ولا مخلوق ولا مولود ، ولكنه منبثق من الآب ، فهو أصله إذن) !! .

ويمكن تبسيط هذه الحقيقة إذا كان معك (ثلاث قطع ذهب ، فتقول عن كل قطعة من الثلاث القطع إنها ذهب تام ، وليست الثلاث القطع ثلاثة أذهاب ، بل ثلاث قطع ، والذهب واحد) ، أو أن تقول : (١×١×١ = ١) ، أو أن تقول : إن عيسى من الله كالشعاع من الشمس [1] ، ولكن .. إياك أن تفكر فى جوهر القطع الذهبية الثلاث ، فترى أن كل قطعة كيان مستقل ، أو أن تحول عملية الضرب إلى عملية جمع ، أو أن تبحث عن دور مريم العذراء بين الشعاع والشمس !! .

وليست المسيحية بدعاً فى هذا ، ففى الديانات الهندية والصينية والفارسية ، وفى كتابات أفلاطون ما يشعر بهذا .. الفرق هو (أن الوثنيين مضطربون فى اعتقادهم بالتثليث ، كما اضطربوا فى عقيدة الوجود الإلهى ، نظراً لأنهم لم يهتدوا بنور الوحى الإلهى ، كما ينور الوجدان) .

وعقيدة التثليث ـ على فرض أنها لم ترد فى التوراة ـ (موجودة فى التقليدات اليهودية ، كالاعتقاد بخلود النفس ، وقيامة الأجساد ، والتجسد الإلهى) [2] .

* * *

(١) شمس البر ـ ص ٨٣ / ٨٥ و ١٠٣ و ١١٤ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٩٣ / ٩٤ و ٩٧ وقد تناولت هذه القضية بتوسع فى كتابى : (مسيحية بلا مسيح)

١٠ ـ وعبارة العهد الجديد فيها نظر !!

« إن الإنجيل تاريخ غريب ، جزء منه حكايات شعبية ، والجزء الآخر سجل تاريخى » . [برونوفسكى ـ ارتقاء الإنسان] .

حين أخذ ول ديورانت فى الكتابة عن (يسوع) تساءل : (هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية ، وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها ، أسطورة من الأساطير ، شبيهة بخرافات كرشنا وأوزوريس وأتيس وأدونيس وديونيشس ومثراس ؟) .

(لقد كان بولنجبروك والملتفون حوله يقولون فى مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجهر فلنى Volney بهذا الشك فى كتاب « خرائب الامبراطورية » الذى نشره فى عام ١٧٩١م ، ولما التقى نابليون فى عام ١٨٠٨ بفيلاند العالم الألمانى لم يسأله فى السياسة أو الحرب ، بل سأله : هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟) [1] .

وفى عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يريد أن يثبت بها أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو طقساً من الطقوس ، نشأ فى القرن الثانى ، من مزيج من الأديان اليهودية واليونانية والرومانية ، وفى هذه الأثناء وصلت مدرسة بيرسن ونابر ومتثاس الهولاندية إلى حد إنكار حقيقة المسيح التاريخية ، (بعد بحوث مضنية) .

وفى ألمانيا سنة ١٩٠٦ عرض أرثر دروز هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً .

(١) قصة الحضارة ـ مج ٣ ـ جـ ٣ ص ٢٠٢ / ٢٠٤ و ص ٢١٠ .

وفى إنجلترا أدْلَى و. ب . سمث ، و ج . م . روبرتسن بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح[1] .

ولعل السبب فى هذا ما دعا هردر إلى أن يقول سنة ١٧٩٦ إنه لا يمكن التوفيق بين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح يوحنا .. وما دعا دافيد استروس إلى أن يقول : (إن ما فى الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقة يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر)[2] .

ويقول ول ديورانت نفسه ـ بعـد أن أورد أقوال المعارضين والمؤيدين ـ (وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً فى صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشك بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة ، أو طقس من طقوسها ... ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرضْ له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح)[3] .

ومن هنا كان قول فاستس ـ أحد علماء فرقة (مانى كيز) فى القرن الرابع الميلادى : (إن هذا العهد الجديد ما صنفه المسيح ولا الحواريون ، بل صنفه رجل مجهول الاسم ، ونسبه إلى الحواريين ، ليعتبره الناس ، وآذى المريدين لعيسى إيذاءً بليغاً ، بأن ألَف الكتب التى فيهـا الأغلاط والتناقضـات)[4] .

** ويمكن الاعتذار عن هذا كله بالظروف الصعبة التى ابتليت بها

(١) ، (٢) ، (٣) قصة الحضارة ـ مج ٣ جـ٣ ـ ص ٢٠٢ / ٢٠٤ و ص ٢١٠ .

(٤) إظهار الحق ـ ص ٩٩ .

المسيحية داخل التآمر اليهودى المتسلط بوسائله وبوسائل الحكم الرومانى ، وداخل التصفيات الرومانية التى استمرت أكثر من ثلاثمائة عام ، حتى عهد قسطنطين ، منذ حكم نيرون حتى ديوكليش (دقلديانوس) ، مروراً بتيتس وتراجان وهادريان وسفيرس وفالريان وأرليان ، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية والمسيحية ، وبين الفرق المسيحية المختلفة ، مما انعكس على عملية التدوين .

* * *

لهذا كله ، فإن الكلام فى (العهد الجديد) يثير الكثير من الحرج ، لكن الرغبة الصادقة فى أن نكون الفائدة من هذا (الكتاب المقدس) على خير ما يرجى ، هى التى تلحّ على ضرورة تنقية الكتاب الذى يدين به مئات الملايين من كل ما خالطه مما ليس منه ، أو مما عثرت به أقلام الكتاب والمترجمين ، أو التبس عليهم مجال نفعه ، أو مقدار هذا النفع .

ولعل مما يهوّن الحرج أن القرن الأول كله مضى وتعاليم المسيحية تنتقل بالرواية الشفوية من جيل إلى جيل .. وأخيراً كان تدوين الأناجيل التى استقت من الروايات والمصادر المتعددة ، بدافع الإخلاص لصاحب الرسالة ، والثقة الكاملة فى كل ما ينسب إليه ، والرغبة الشديدة فى ترويج كل ما يأسر العامة ، ويجمعهم تحت راية المسيح ، وكان الاضطهاد والتعذيب والدعوة إلى المسيحية من خلال طرق ملتوية وسراديب ـ ما حال دون توثيق الرواية ونقد النصوص .. ومن ثم بدا أن كل إنجيل يروى الحادثة من واقع أثرها فى نفس كاتبها ، والغاية التى يهدف إليها .

ولئن كانت النصوص الدينية الشفوية أخذت فى القرن الثانى وبداية القرن الثالث فى الظهور ـ كما يقول الأستاذ بوكيه[1] ـ ووضعت لـها

(١) يقول ول ديورانت : (ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠م إلا فى كتاب =

الأسس التى يعرف بها الصحيح من الزائف والمشكوك فيه ، فإن الخلاف بين المسيحيين ظل قائماً بين أيها يعتمد من الأسفار وأيها يستبعد ، وأى الأسفار يتضمن الكتاب المقدس ، حتى انفق عالم الشرق والغرب المسيحى ـ بعد المجمع المقدس الذى انعقد سنة ٦٩٢م ـ على الوضع الحالى الجديد ، ولكن ما زالت خلافات ذات أهمية أساسية بين المسيحيين ، وبخاصة بين الكنيستين الشرقية والغربية [١] .

وفى مؤتمر الأديان الذى عقد فى باريس ـ يوليه ١٩١٣م ـ اتجه المؤتمرون إلى رفض الشعائر المسيحية القائمة ، لأنها تقوم فى رأيهم على أخطاء [٢] ، أو بلغة أخرى (إن الأناجيل كتبت منذ ألفى سنة ، بلغة لا يتكلم بها أحد الآن ، وبين أناس عوائدهم مختلفة عما هى عندنا الآن ، ولقلة معرفتنا بهذه الأحوال لا نستطيع فَهْم كثير من المشاكل) [٣] .. وهو عذر قد يعين على تقبل كثير من المآخذ ، وإن ظلت تحمل طبيعة التحريف

= بياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥م ، إذ يقول : إن « يوحنا الأكبر » ـ وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها ـ قال : إن مرقس ألّف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس) ـ قصة الحضارة ـ مج ٣ جـ٣ ـ ص ٢٠٧ .

ويضيف موريس بوكاى : (فى العصور المسيحية الأولى كان هناك تداول كثير من الكتابات المسيحية ، غير أنه لم يعتد بها ككتابات جديرة بالصحة ، كما أوصت الكنيسة بإخفائها ، وربما كان ما حذف مائة إنجيل ، ومع هذا ـ فهناك مثل أناجيل الناصريين وأناجيل العبرانيين وأناجيل المصريين ـ التى عرفت بفضل تنويهات آباء الكنيسة ـ ما كان يشبه عن قرب الأناجيل المعترف بها كَنَسياً ، ونفس الأمر ينطبق على إنجيل توما وإنجيل برنابا ـ ص ٩٩ .

ويقول جون لوريمر ـ أستاذ مادة تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة ـ فى كتابه (تاريخ الكنيسة) جـ ١ ص ٧٥ : إن المؤرخ المسيحى الشهير يوسابيوس القيصرى (٢٦٠ ـ ٣٤٠م) كتب عن حياة الرسل ، فاعتمد كثيراً على بعض الأساطير ، أو على تقاليد نسبت إلى كتاب آخرين فى القرن الثانى ، و (فى تلك الحقبة كتبت بعض أسفار العهد الجديد ، وعلى الأخص الأناجيل والرسائل الرعوية ورسالة العبرانيين ويعقوب وسفر الرؤيا) .

(١) ، (٢) فى العقائد والأديان ـ ص ٢٤١ و ٢٤٨ .

(٣) شمس البر ـ ص ٥٣ و ٥٤ .

أو الالتواء أو الاختلاق ، كما أنه يعين على التأويل ـ فى بعض الأحيان ـ لكنه قد يصل إلى حد (الابتكار) .

ورد عن السيد المسيح : (ينبغى أن يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال) .. وفى هذا يقول القس منسّى : (كان اصطلاح اليهود فى تلك الأيام أن يَحسبوا الجزء من النهار نهاراً كاملاً ، والجزء من الليل ليلاً كاملاً ، وعلى ذلك يصح أن يكون معنى قوله : « ثلاثة أيام وثلاث ليال » يوماً كاملاً ، أى أربع وعشرين ساعة ، وجزءين من يومين آخرين ، مهما كان ذانك الجزآن صغيرين) [١] !! .

هذا التأويل الذى يزيد من الحرج يغنى عنه أن نعالج الأمر علاجاً جذرياً ، فما دام النص بالرواية عن المسيح وليس نص المسيح ، وما دام منقولاً من لغة إلى لغة ، فليكن سبيلنا إلى لغة سلسة يسيرة الفهم ، ونتلافى جوانب الغموض والإيهام ، دون أن نقع تحت تأثير قول ماثيو أرنولد : إن أسانيد العهد الجديد ليست ثقة فى كثير من الحالات ، فلا يجوز الاعتماد عليها أبداً [٢] .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : الفوارق والمخالفات الموجودة بين أسفار العهد الجديد وأجزائه متنوعة ، منها أغلاط الكتّاب والمُمْلين ، وسقوط بعض الكلمات أو العبارات ، أو زيادتها ، وتقسيم الكلمة قسمة خطأ ، أو الجمع بين كلمتين أو أكثر فى كلمة واحدة ، والجهل أحياناً ببعض الاختصارات أو الاصطلاحات ، أو الخطأ فى الكلمة أو نطقها أو تصحيحها ، كما يعمد الكاتب إلى سد نقص قد يوجد خطأ .. ومثل هذه الأخطاء فى معظم المخطوطات التى وصلتنا ، بالإضافة إلى أن الكنيسة كثيراً ما أحدثت بعض التغييرات فى الألفاظ والأساليب ، كأن تضيف بعض العبارات

(١) شمس البر ـ ص ٥٣ و ٥٢ .

(٢) روح الإسلام ـ ص ٦٦٣ .

للإيضاح والتفسير ، أو لتأكيد معنى من المعانى ، أو لتجنب معنى آخر قد يفهم من نص عبارة ما ، كما قامت الكنيسة بإبعاد العبارات التى يفهم منها التناقض ، وهذا الإصلاح الأخير حدث خاصة فى الأناجيل ، حيث بذلت مجهودات كثيرة فى سبيل التوفيق بينها ، كما لاحظ هذا أوريجينيس[1] .

وهذا الذى قامت به الكنيسة ـ بالرغم من عدم مشروعيته ، بالنسبة لقداسة النص ـ يشجع على إعادة النظر فى (صياغة) العهد الجديد الذى بأيدينا .

* * *

بدأ إنجيل متى بذكر (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم)، ويمضى فى سلسلة النسب من إبراهيم لينتهى إلى (يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع ، الذى يدعى المسيح) ـ (متى / ١) فكأن (السلسلة) تقول : إن عيسى ابن يوسف النجار ، وليس كذلك !! .

وإذا قيل إن النسب انتهى إلى يوسف (حيث كانت العادة تقضى بنسبة الأبناء إلى الذكور ، دون الإناث ، وكان يوسف رأس بيت داود فى ذلك الوقت) ـ فما قيمة هذا النسب بالنسبة لعيسى ؟ .

كان أولى أن تنتهى سلسلة النسب إلى مريم ، أو أن يسكت عن هذا ، إلا إذا أريد القول إن عيسى تربى فى حضن رجل من نسل داود ، ولن يجدى هذا .. ثم إن الاحتفاظ بهذا النسب يدفع دعوى أن المسيح ابن الله ، أو أنه الله .

وإذا قيل أن عيسى نُسب إلى يوسف ، حتى لاتُتهم مريم بالزنا فترجم ، فإن تدوين الإنجيل كان بعد موت عيسى ومريم ، ولا حاجة إلى إغفال الحقيقة ، وبخاصة أن بقية الأناجيل تتحدث عن أن عيسى ابن الله وكلمته .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ١٥٣ .

هذا إلى أن إنجيل (لوقا / ٣) أورد سلسلة نسب يسوع على غير ما أورد (متى) ، وإن كان إيراد لوقا على وجه الظن ، إذ يقول : (وهو على ما أظن ابن يوسف بن هالى .. إلــخ) ، على حين ورد فى إنجيل متى على وجه اليقين ، وزاد متى فأحصى (جميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلاً ، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً) .. إن كان ذلك ، فالأمر لا يخرج على أن الاختلاف سبيل إلى القول بأن الاجتهاد الفردى ـ لا التزام بما هو قائم ـ كان هو القاعدة عند من كتبوا الأناجيل ، وبخاصة أن إنجيل متى بدأ السلسلة تنازلياً ، ولوقا بدأ بها صاعداً إلى إبراهيم ، ولم تكد السلسلتان تلتقيان إلا فى القليل .

يقابل رحمة الله الهندى بين سلسلتى النسب ـ فى كل من متى ولوقا ـ فيجد ستة اختلافات :

١ ـ يُعلم من متى أن يوسف ابن يعقوب ، ومن لوقا أنه ابن هالى .

٢ ـ يُعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود ، ومن لوقا أنه من أولاد ناثان بن داود .

٣ ـ يُعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون ، ومن لوقا ليسوا بسلاطين ولا مشهورين ، غير داود وناثان .

٤ ـ يُعلم من متى أن شالتيل بن يكينا ، ومن لوقا أنه ابن نيرى .

٥ ـ يُعلم من متى أن اسم ابن زر بابل أبيهود ، ومن لوقا أن اسمه ريسا ، والعجيب أن أسماء بنى زر بابل فى الأصحاح الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام ليس فيها أبيهود ولا ريسا .

٦ ـ من داود إلى المسيح ستة وعشرون جيلاً ، على ما بيّن (متّى)، وواحد وأربعون جيلاً ، على ما بيّن (لوقا) ، ولما كان ما بين داود والمسيح

مدة ألف سنة ، فعلى الأول يكون في مقابل كل جيل أربعون سنة ، وعلى الثاني خمسة وعشرون سنة [1] .

وكل هذا يدعو إلى أن إنجيل متى لم يكن معروفاً في عهد لوقا ، وإلا أخذ لوقا عنه ، أو أشار إلى موضع الخلاف معه .. كما أن كل هذا يدعو إلى مزيد من الأحكام غير المقبولة ، وإلى مزيد من عدم الاطمئنان إلى الكلمة المكتوبة

يقول بوكاى : (لا شك أن نسب المسيح في الأناجيل قد دفع المعلقين المسيحيين إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة ، تكافئ الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتى) ص ١١٦ .

ومن هنا تتساقط الدعاوى التي تقول : إن (الكنيسة الجامعة رأت أن كل إنجيل من الأناجيل الأربعة يقدم ناحية خاصة من حياة المسيح ، مع اتفاقها الذى لا ينكر في الحقائق الأساسية من سيرته) [2]. لأن الاختلاف في نسب المسيح ، أو الحديث في نسبة المسيح إلى داود ــ يهدم المعبد كله ، وليس ركناً من أركانه ، لأنه ينفي عن المسيح أهم صفاته ، كما جاء في القرآن الكريم أنه : ﴿ **كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وروح منه** ﴾ ، كما ينفي شعار الأقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) ويصادره .

أما أن نعتذر بأن (معرفتنا بطريقة تأليف جداول النسب في تلك الأيام قاصرة جداً) [3]، فهذا لون من الأقنعة الزائفة التي لاتستر عورة ، لأن الجداول محدّدة بحدود لا التواء في صياغتها ، بل في ما تهدف إليه وتنطق به .

ونحن هنا لا نسجل مواطن قصور ، أو نُحصى مآخذ ، بل نقيم الدليل

(١) إظهار الحق ــ ص ١١٤ .
(٢) مصادر الكتاب المقدس ــ ص ١٩ .
(٣) شمس البر ــ ص ٥٤ .

على ضرورة المراجعة والتنقيح والتهذيب .

وإذا كان (إنجيل متى يخاطب اليهود ، ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة ، وإنجيل لوقا يورد الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية) ــ كما يقول الأستاذ العقاد [1] ــ فمن واجبنا أن نصون هذا الهدف ، بعيداً مما يذهب بالفكر مذاهب .

* * *

ثم إن [إنجيلى متى ولوقا يعرضان لميلاد المسيح بواسطة الروح من العذراء مريم ، بينما مرقس لا يعرف شيئاً عن هذه الولادة العجيبة ، بل يذكر مرقس أنه « لما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه ، لأنهم قالوا إنه مختل » ــ (أصحاح / ٣) ــ مما يفهم أنه لم ينظر إليه كما لو أنه ولد عن طريق معجزة ، أو أنه كان مهيباً محترماً ، والشيء الثابت أن مرقس (أصحاح /١) يذكر أن علاقة المسيح بالله جاءت عن طريق المعمودية ، ويتفق معه في ذلك لوقا (أصحاح /٣) ويخالفهما يوحنا (أصحاح ١ و ٦) إذ يذكر المسيح كابن ليوسف ومريم] [2] .

(ومسألة أخرى جديرة بالملاحظة ، وهي أن القصص الخاصة بميلاده تُجمع ، أو تكاد ، على أنه كان في بيت لحم ، لكن (متى ــ أصحاح/١ ــ ولوقا ــ أصحاح / ٢) ــ ينفردان عن سائر المراجع المسيحية القديمة بأخبار مختلفة متباينة ، فمتّى يقول : إن والدى المسيح كانا يسكنان بيت لحم ، ثم هجراها إلى مصر ، خوفاً من هيرودس ، وعادا إلى أرض إسرائيل ثانية بعد وفاته ، لكن خوفهما من ابن أرخيلاوس اضطرهما إلى الانتقال إلى الناصرة في الجبل ، بينما يقول لوقا : إن سكنهما في مدينة الناصرة ،

(١) عبقرية المسيح ــ كتاب اليوم ــ ١٩٥٣ ــ ص ١٩٤ .
(٢) اليهودية واليهودية المسيحية ــ ص ١٥٨ / ١٥٩ .

إلا أنهما انتقلا إلى بيت لحم ، حيث ولد المسيح صدفة ، بينما كانت تجرى عملية التعداد فى سوريا .. وعملية التعداد غير صحيحة من الناحية التاريخية ، كما نعلم ذلك من التاريخ الرومانى .. وهناك خلاف بين متى ولوقا حول زمان ولادة المسيح ، فمتّى يقول فى (أصحاح / ٢) ـ أنه ولد أيام هيرودوس ، بينما لوقا يذكر أنه ولد فى عهد كيرينيوس ، وهيرودوس توفى قبل الميلاد ، وخلفه ابنه أرخيلاوس ، وإن كان قد توفى بعد الميلاد ، إلا أنه لم يحدث فى عهده تعداد رومانى لإقليم هيرودية) (١) .

* * *

ويتحدث إنجيل متّى عن أن أشعيا بشّر بعيسى ، لكن الصيغة التى وردت فى أشعيا تبدو مقحمة ، إذ يقول ياسم الرب : (يعطيكم السيد نفسه آية ، ها العذراء تحبل وتلد ابناً ، وتدعو اسمه عمانوئيـل ، زبداً وعسلاً يأكـل ، متى عرف أن يرفض الشر ، ويختار الخير) ـ (أشعياء / ٧) .

فكيف تكون (الآية) لقوم يعيشون قبل زمن وجودها بأكثر من سبعة قرون ؟ أى دور تلعبه هذه الآية في حياتهم ، حتى تكون موضع البشرى ؟.

ويورد متّى البشرى فى صورة أخرى مقحمة أيضاً ، إذ يقول ملاك الرب ليوسف زوج مريم : (ستلد ابنا ، وتدعو اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القـائل ، هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ، ويدعون اسمه عمانوئيل ، الذى تفسيره الله معنا) ـ (متى / ١) ـ مما يوحى بأنه لو لم يبشّر بعيسى من قبل لما ولد عيسى ، ويمكن أن يقال (كما قيـل) ، بدلاً مـن (لكى يتم ما قـيل)، ويلاحظ أن اسم(عمانوئيل) لم يعرف به عيسى ، بل يسوع ، فكيف صحت البشرى ؟ .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ١٥٩ / ١٦٠ .

ونلاحظ أن تعبير (لكى يتم ما قيل) قد تكرر كثيراً ، حتى فيما لا يحتاج إلى هذا الارتباط بالتراث .. مثلاً :

(كلم يسوع الجموع بأمثال ، وبدون مثل لم يكن يكلمهم ، لكى يتم ما قيل بالنبى القائل : سأفتح بأمثال فمي ، وأنطق بمكتومات ، منذ تأسيس العالم) ـ (متى / ١٣) .

(ولما صلبوه اقتسموا ثيابه ، مقترعين عليها ، لكى يتم ما قيل بالنبى : اقتسموا ثيابى بينهم ، وعلى لباس ألقوا قرعة) ـ (متى / ٢٧) .

كأنما القصد هو التأكيد على ربط حياة السيد المسيح بالعهد القديم ، لإثبات أنه المسيح الذى ينتظره اليهود ، حتى يقبل اليهود على الدخول فى الدين الجديد ، وتخفّ معاداتهم .

* * *

ولما ولد يسوع ، ذهب مجوس من المشرق إلى أورشليم ، يبحثون عنه ، بحجة أنهم رأوا نجمه فى المشرق ، وأتوا ليسجدوا له ـ (متى / ٢) .

فإذا كانوا مجوساً لا يعرفون الله ، فكيف بهم يسجدون لنبى الله ؟ .

وكيف عرفوا أن هذا النجم خاص بيسوع ؟ .

وكيف ربطوا بين نجم فى المشرق ومولود فى بيت لحم ؟ .

وكيف أن (النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق ، حيث كان الصبى) ؟ـ (متى / ٢) .

هل يمكن أن يتحدد مكان التقاء النجم بمكان فى الأرض ، وهو جرم هائل يسبح فى فلكه ، والأرض تسبح فى فلك آخر ، والبون شاسع بين النجم والأرض ؟ .

هل يلتقيان عند نقطة ميلاد طفل؟! .

ينقل لنا كلمنت الإسكندرى (حوالى سنة ١٠٠م) أن بعض المؤرخين

يحدد هذا اليوم بالتاسع عشر من أبريل ، وبعضهم بالعاشر من مايو ، وأنه هو (كلمنت) يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد .

وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير ، منذ القرن الثانى بعد الميلاد ، وفى عام ٣٥٤م احتفلت بعض الكنائس الغربية ـ ومنها كنيسة روما ـ بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر ، ولم يكد يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد فى الشرق أيضا [١] .

أليس هذا الاختلاف فى اليوم وفى العام مما يضع أكثر من علامة استفهام أمام قصة المجوس ؟ .

هذا إلى أن ثمة شكاً فى مكان الولادة ، فبينما يذكر متى ولوقا أن مولد المسيح كان فى بيت لحم القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم انتقلت به الأسرة إلى الناصرة فى الجليل ، إذا بمرقس لا يذكر بيت لحم ، ولا يذكر المسيح إلا باسم يسوع الناصرى ، مما دعا بعض النقاد إلى القول إن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقويا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود ، كما تتطلب ذلك النبوءة اليهودية [٢] .

حين سأل هيرودس الملك رؤساء الكهنة وكتبة الشعب : (أين يولد المسيح) ؟ . قالوا : (فى بيت لحم اليهودية ، لأنه هكذا مكتوب بالنبى) (متى / ٢) .

ونتساءل : أى نبى هذا الذى كتب ، وليس فى كتب الأنبياء المدونة فى (الكتاب المقدس) ما يفيد هذا ؟! وإذا كان ثمة نبى آخر ـ وما أكثر أنبياء بنى إسرائيل ـ فلماذا لم يذكر اسمه ، ويشار إلى موضع قوله ؟! ولو

(١) ، (٢) قصة الحضارة ـ مج ٣ جـ٣ ـ ص ٢١٢ / ٢١٣ .

أن لأنبياء آخرين وحياً أوحى إليهم ، فما علة إغفالهم ؟! .

وما سبب تفضيل وحى على آخر ؟ .

أليس هذا مما يدعو إلى الشك فيما بين أيدينا ؟ .

أو بالحرى ادعاء إمكانية الفاعلية الإنسانية ، إثباتاً وحذفا وتغييراً وتحريفاً لما جاء عن السماء ؟ .

أترى هذه هى الوسيلة الصحيحة لربط السيد المسيح بالعهد القديم ، أو باليهود ؟ .

ألا يكفى ارتباطه بالله لينطق بالهدى والرشاد ، دون حاجة إلى أن يتردد على المجمع الدينى ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، وتنطبع فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير ، فيظل يؤكد قوله بالاستناد إليها ، كأحد التلاميذ؟! .

** ويستطرد متّى فيقول : (حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جداً ، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم ، وفى كل تخومها ، من ابن سنتين فما دون ، بحسب الزمان الذى تحققه من المجوس) .

حدث خطير كهذا يمكن أن يُحدث ثورة عامة ، ومع هذا لم يورده يوسيفوس وغيره من علماء اليهود الذين تتبعوا فضائح هيرودس .. ومن الناحية العقلية فإن عيون الحاكم من الجند ومن رؤساء الكهنة وكتبة الشعب كان بوسعهم ـ فى بلدة صغيرة كبيت لحم ـ أن يتتبعوا خطا المجوس (الغرباء) ليعرفوا مكان الوليد ، دون حاجة إلى قتل الأطفال الأبرياء ، وتخطى حدود المدينة إلى ما حولها .. ثم إن حديث هيرودس مع المجوس لم يحمل ريبة حتى يخدعوه ، فقد قال لهم : (اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ، ومتى وجدتموه فأخبرونى لكى آتى أنا أيضاً وأسجد له) .. إنهم

يتحركون تحت سلطانه ، وبإذن منه ، لكنـه الوحي الذى (أوحي إليهـم فى حلم) !! .

هذا إلى أن التاريخ الصادق يذكر أن أم مريم عقب ولادته كانت لها قصة مع قومها حكاها القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا** ﴾ [1] .

أى أن أمره لم يكن سراً ، وحديث طفل فى المهد بأنه نبى لا بد أن تسير به الركبان ، ولابد أن يجتمع له وعليه القاصي والدان .

ويضيف متّى ـ فيما يشبه التعليق على جريمـة هيرودس ـ فيقـول : (حينئذ تمّ ما قيل بأرميا النبى القائل : صوت سمع فى الرامة ، نوح وبكاء وعويل كثير ، راحيل تبكى على أولادها ، ولا تريد أن تتعزى ، لأنهم ليسوا بموجودين) ، مع أن قول أرميا خاصّ بحادثة نبوخذ نصّر التى وقعت فى عهده ، وقتل فيها ألوف من بنى إسرائيل ، وأسر ألوف ، سيقوا إلى بابل ، فهل كان (متى) يقصد (التشبيه) ؟ إذن كانت الصياغة للخبر تختلف .

وفى (متى / ١٤) يذكر أن (هيرودس كان قد أمسك يوحنا وأوثقه وطرحه فى سجن ، من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه ، مع أن اسم زوج هيروديا كان هيرودس أيضا ، كما أورد يوسيفوس .

أخطاء كثيرة أوردها متّى ، مما دفع (نورتن) إلى أن يقول : (إن مترجم إنجيل متـى كان حاطـب ليـل ، ما كان يميـز بـين الرطب واليابس) [2] .

* * *

(١) مريـم / ٢٧ ـ ٣٠ .

(٢) إظهار الحق ـ ص ١٥٩ .

انفرد (يوحنا) بالتبشير بنبى آخر ، وبصورة ربما كانت أوضح من تبشير أشعياء بعيسى .

يقول يوحنا على لسان يسوع :

(تمجّد ابن الإنسان ، وتمجد الله فيه ، إن كان الله قد تمجد فيه ، فإن الله سيمجده في ذاته ، ويمجده سريعاً) ـ (يوحنا / ١٣) ـ مادام الله قد مجده ، وتمجد فيه ، فماذا سيحدث من تمجيد ، ويحدث سريعاً ، إلا إذا كان التمجيد مرتبطاً بشخص آخر ، يعبّر عما عبّر عنه عيسى ، أو يأتى مصدقاً لما جاء به عيسى ؟ وهذا ما يزكيه قول عيسى : (أنا هو الطريق والحـق والحيـاة ، ليس أحد يأتى إلى الآب إلا بى) (يوحنا / ١٤) فإذا ربطنا الطريق بمن سيأتى ، كان عيسى بالنسبة لمن بعده كما كان يوحنا المعمدان بالنسبة لعيسى .

ولعل قوله : (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب إلى الآب فيعطيكم معزّيا آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد)ـ (يوحنا / ١٤) ـ قوله : (لأنه إن لم أنطـلق لا يأتيكم المعـزى ، ولكن إن ذهبـت أرسلـه إليكـم) (يوحنا ١٦) يوضح أن المبشّر به سيكون معزياً عن الرسل السابقين ، لأنه سيأتى بما جاء فى كتبهم ، ويزيد ما يصلح المجتمع البشرى كله (إلى الأبد) ، بحيث لا تكون البشرية فى حاجة إلى رسول جديد ، وموت عيسى إنما هو إشعار بالحاجة إلى من يكمل الطريق إلى السماء ، أو من السماء إلى الأرض ، (إن لم انطلق لا يأتيكم) .. (ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب ـ روح الحق الذى من عند الآب ينبثق ـ فهو يشهد لى) (يوحنا / ١٥) وهذا ما يقرره القرآن الكريم فى كثير من آيه ، فى إطار عام يشمل كل من خصهم الله بوحيه : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل**

واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهارون وسُليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قَصَصْناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكَلَّمَ الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[1] .

وفى إطار خاص : **﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾**[2] .

ومن أجل أن (المعزى) يُصدر عما أصدر عنه عيسى وجب اتباعه ، (متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية) ـ (يوحنا / ١٦) .

ولقد أيد بولسُ الرسول (يوحنا) فيما بشّر به ، إذ قال : (المحبة لا تسقط أبداً ، وأما النبوات فستبطل ، والألسنة فستنتهى ، والعلم فسيبطل ، لأننا نعلم بعض العلم ، ونتنبأ بعض التنبؤ ، ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض) ـ (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس / ١٣) .

لم يكتف قول بولس بالتأييد ، بل وضّح دور النبى القادم (المعزى) عن السابقين ، بأنه دور (الكامل الذى يبطل ما هو بعض) ، فهى شريعة وافية ، تغنى عما سبق ، ولا تحتاج إلى جديد .

---

(١) النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥ .
(٢) النساء : ١٧١ ـ ١٧٢ .

ولعل يوحنا اللاهوتى قد رأى فيما رأى ما يمضى فى هذا الطريق ، إذ يقول : (ثم رأيت السماء مفتوحة ، وإذا فرس أبيض ، والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً ، وبالعدل يحكم ، ويحارب) ـ (رؤيا يوحنا اللاهوتى / ١٩) .

لعله أشار إلى أبرز ما اشتهر من صفات خاتم الأنبياء والمرسلين ، قبل الرسالة وبعدها ، حتى سمى الصادق الأمين .

إذن .. ما معنى أن تخلو بعض الأناجيل من البشرى التى أثبتها القرآن على لسان عيسى : **﴿ إذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مُصَدِّقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾**[1] .

وما معنى أن تصطنع الكتب المسيحية البشرى بعيسى ، ابتداء من آدم الذى بشر بمن سيعيد إلى العالم الفردوس المفقود ، حتى إن ولادة المسيح وحياته وصلبه وموته وقيامته عرفت قبل أن تحدث[2] ؟ .

كما أن ديانات الهند والفرس والصين ومصر والفلسفة اليونانية اشتركت فى التبشير به[3] ؟! .

* * *

قدمت امرأة كنعانية[4] تسترحم السيد ابن داود ، فلم يجبها بكلمة ، فلما حدثه تلاميذه فى ذلك ، قال : (لم أرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) .

لكن المرأة (أتت ، وسجدت له ، قائلة : ياسيد ، أعنّى ، فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) !! (متى / ١٥).

---

(١) الصف / ٦ .
(٢) ، (٣) شمس البر ـ ص ١٤٠ . ١٦٩ / ١٧٢ .
(٤) فى (مرقس ٧) أنها (فى جنسها فينيقية سورية) .

هل هذا موقف من يقول : (أريد رحمة لا ذبيحة) ؟! (متى / ٩) .

هل الرحمة تكون مرهونة بقوم دون آخرين ؟ وإذا كنا لا نرحم الآخرين فهل نصفهم بالكلاب ؟! .

هل نسى من كتب هذا القول عن المسيح أن راحاب وراعوث فى شجرة نسب المسيح ، وليستا إسرائيليتين ؟! .

وكيف يتفق هذا القول مع قول عيسى لتلاميذه : (اذهبوا ، وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس) ؟ ـ (متى / ٢٨) ـ وهو ما أكده بولس بقوله : (أم الله لليهود فقط ؟ أليس للأمم أيضاً ؟ بل، للأمم أيضاً) ـ (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٣) .

ثم .. كيف أن هذه الكنعانية تحاجّ عيسى بقولها : (والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها) ـ (متى / ١٥) ـ فتقيم عليه الحجة ، ويحققُ لها أملها ، فتشفى ابنتها ؟ .

أمَا كان أولى برسول الرحمة والمحبة والسلام أن يهتدى إلى هذا ، لا أن تهديه امرأة (كنعانية) ؟! .

أليس مثل هذا ما دفع ول ديورانت إلى أن يقول : (إن الإنسان ليجد فى الأناجيل فقرات قاسية مريرة ، لا تواثم قط ما يقال لنا عن المسيح فى مواضع أخرى منها) ؟ وإلى أن يقول : (إن بعضها يبدو ـ لأول وهلة ـ مجافيا العدالة ، وإن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير) [1] ؟! .

* * *

(لما قربوا من أورشليم ، وجاءوا إلى بيت فاجى ، عند جبل الزيتون ،

(١) قصة الحضارة ـ مج ٣ جـ٣ ـ ص ٢١٩ و ٢٢٤ .

حينئذ أرسل يسوع تلميذين ، قائلاً لهما : اذهبا إلى القرية التى أمامكما ، فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها ، فحلاّهما ، وائتيانى بهما ، وإن قال لكما أحد شيئاً فقولا : الرب محتاج إليهما ، فللوقت يرسلهما ، فكان هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل : قولوا لابنة صهيون : هوذا ملكك يأتيك وديعاً ، راكباً على أتان وجحش ابن أتان ، فذهب التلميذان ، وفعلا كما أمرهما يسوع ، وأتيا بالأتان والجحش ، ووضعا عليهما ثيابهما ، فجلس عليهما) ـ (متى / ٢١) .

ما السبب فى طلب الأتان والجحش ؟ لمجرد أن يتحقق ما قيل ؟ ولماذا يتحقق ما قيل ، والحاجة ليست داعية ؟ وكيف يجلس على أتان وجحش معاً ؟ .

إن هذه الواقعة وردت فى لوقا وفى مرقس وفى يوحنا ، واختلف إيرادها ، فلماذا ؟ .

فى مرقس ولوقا الواقعة مرتبطة بجحش فقط ، والجحش (لم يجلس عليه أحد من الناس قط) .

وفى يوحنا لم يرسل يسوع أحداً من تلاميذه ، لكن (وجد يسوع جحشاً فجلس عليه ، كما هو مكتوب) .

معنى هذا أن الذين كتبوا الأناجيل لم يلتزموا إلا بالصورة العامة ، ومن خلالها اجتهدوا ، أو جاءتهم الأخبار من مصادر مختلفة ، فكتبوا دون أن يتحروا ، وبهذا لم تكن الأناجيل وحياً يوحى ، بل مجرد ذكريات ، قد تخون الذاكرة أو الوسيلة فى بعض تفصيلاتها ، مثل أن يسوع (إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع ، فنظر شجرة تين على الطريق ، وجاء إليها ، فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط ، فقال لها : لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد ، فيبست التينة فى الحال) ـ (متى / ٢١) .

هذا الحدث لم يرد فى لوقا ، ولا فى يوحنا ، مع أنه مرتبط بالواقعة السابقــة .

ولقد تعجب التلاميذ : (كيف يبست التينة فى الحال ؟) ، فهل زال عجبهم حين قال يسوع : (إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون ، وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه) ؟ .

أما سأل أحدهم نفسه : لماذا لم يطلب المسيح أن تثمر التينة فيأكل منها ، ويأكل الحواريون ، بدل أن يطلب موتها ولا ذنب لها ؟ .

ألا يضر هذا الحكم على الشجرة بصاحبها ، وبمن يأكلون من ثمرها ويستظلون بظلها ؟! .

ألا يخالف هذا روح شريعة عيسى ، وطبيعة معجزاته ؟! .

وما ذنب الخنازير وصاحب الخنازير ، حين أراد إخراج الشياطين من المجنون فى إنجيل (مرقس / ٥) : (فطلب إليه كل الشياطين قائلين : أرسلنا إلى الخنازير ، فأذن لهم يسوع للوقت ، فخرجت الأرواح النجسة ، ودخلت فى الخنازير ، فاندفع القطيع إلى البحر ، وكانوا نحو ألفين ، فاختنقوا فى البحر) !! .

من الذين (اختنقوا) ؟ الشياطين أم الخنازير أو هما معاً ؟ .

ألا تستطيع الشياطين السباحة ؟ .

أيحتمل جسم مجنون واحد ألفيْ شيطان ؟! .

أما كان يمكن إخراج الشياطين دون الإضرار بالخنازير ؟

إن تربية الخنازير كانت محرمة عند اليهود ، فمن جرؤ ـ على تربية هذا القطيع الكبير ـ من اليهود ، أو ممن يساكنون اليهود ؟! .

وبلغة اليوم أليس هذا تخريباً اقتصادياً ؟! .

وما موقف صاحب الخنازير مما حدث ؟! .

* * *

الأخبار التى ترد فى الأناجيل بصور مختلفة قد تثير جدلاً حول قداسة هذه الأناجيل ، لأن الاختلاف يفيد حرية الحركة فى التسجيل ، أى أن الخبر المقدس يصبح كغيره مما يجرى فى حياة الناس ، لا يختلف إلا فى كونه يرتبط بشخصية ذات طابع خاص ، والشخصية لا تستطيع أن تضفى عليه من خصوصيتها إلاإذا ثبت صدقه .

مثال ذلك ما جاء فى الأناجيل عن تآمر يهوذا على السيد المسيح ، وما ورد من تعاليم السيد المسيح فى (متى / ١٣) ، وفى (مرقس / ٤) .. فثمة زيادة ونقص وتقديم وتأخير ، مما يفيد أن (الوحى) ليس مدوّناً كما أوحى بـه .

هذا إلى الاختلاف فى وقت العشاء الأخير ، هل هو قبــل عيــد الفصح ، أو يومه ، مع أهمية عيد الفصح والعشاء الأخير فى حــياة المسيحيين .

وفى هذا اليوم يورد يوحنا خطبة للسيد المسيح تحتل أربعة أصحاحات (١٤ ـ ١٧) من إنجيله ، وهى خطبة تتضمن آخر إرشادات المسيح لتلاميذه الذين سيتركهم يحملون رسالته من بعده ، على حين لا تشير الأناجيل الأخرى إلى هذه الخطبة ، كما ينفرد إنجيل يوحنا بغسل المسيح أقدام تلاميذه فى بداية العشاء .

كذلك الشأن فى قصة بطرس ، وصياح الديك ثلاثاً ، مع إنكار بطرس معرفة المسيح .. فقد تعدد السائلون فى (متى / ٢٦) ، وتعدد السؤال من سائل واحد ، وهو جارية رئيس الكهنة فى (مرقس / ١٤) .

والنسوة اللائى شهدن صلب المسيح وقيامته فى (متى) ، ليست فيهن (سالومة) الواردة فى (مرقس) .

ولعله يقال إن الحدث العظيم أحدث اضطراباً بين التلاميذ ، فتراءى

الاختلاف فى أخبارهم [1] .. لكن التدوين لم يتم عقب الحدث ، والفرصة كانت مهيأة للتحرى والدقة ، وبخاصة أن هذا الحدث العظيم سيكون مدعاة الريبة والاتهام ، وكان ينبغى الحرص فى تدوين ما حدث بصورته ولفظه ، أمّا أن نجد خاتمة أناجيل (متى ومرقس ولوقا) عباراتها مختلفة ، مع أنها من وحى عيسى بعد قيامته ، فهذا يحدث فى النفس أشياء عن طبيعة التدوين .

وأسماء الاثنى عشر رسولاً فى (متى / ١٠) يختلف فيها اسم أحدهم ، وهو (لبّاوس الملقب تداوس) عما ورد فى (لوقا / ٦) ، إذ ورد اسم يهوذا أخى يعقوب بن علفى .

وكانت نهاية يهوذا الأسخريوطى فى (متى / ٢٧) أنه خنَق نفسه، على حين خرّ على وجهه ، وانشق بطنه ، فانسكبت أحشاؤه كلها ومات ، فى (أعمال الرسل / ١) .

وقصة الخاطئة التى (وقفت عند قدميه باكية ، وابتدأت تبل قدميه بالدموع ، وكانت تمسحها بشعر رأسها ، وتقبل قدميه ، وتدهنهما بالطيب) ـ (لوقا / ٧) ـ لم ترد فى (متى ومرقس) .. ويعلل هذا أوغسطينوس بقوله: إن البعض من ذوى الإيمان الضعيف قد نزعوها من نسخهم ، خائفين ـ كما أظن ـ من اتخاذ دليل منها على جواز هذه الخطيئة [2] .

يلاحظ أن هذا الخبر أقرب إلى الافتعال ، إذ كيف يترك الرسول امرأة تبلل قدميه بالدموع ، وتقبلهما ، وتمسحهما بشعرها ، وتدهنهما بالطيب ، ويستسلم لهذا الفعل ، دون أن يبدى تحرجاً ، وهو فى بيت (فَرِّيسى) ،

(١) شمس البر ـ ص ٥٤ .
(٢) المصدر السابق ـ ص ٦٥ .

مكتفياً بأن يصرّح أخيراً بأن (قد غفرت خطاياها الكثيرة ، لأنها أحبت كثيراً) .. أحبت من ؟ أحبت من أخطأت معهم ؟ أم أحبت الله ؟ ومنذ متى كان حبها لله حتى يوصف بالكثرة ؟ أم أنها أحبت الناس جميعاً ؟ .

وإذا كان إنجيل (مرقس) لم يزد شيئاً على ما جاء فى (متى) ، فإن إنجيل (لوقا) زاد قصة زكريا ، ولم يتحدث عن ذهاب يسوع إلى مصر ، وحديث عيسى فى المهد لم يرد فى الأناجيل كلها ، وانفرد القرآن الكريم بذكره : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ، تكلّم الناس فى المهد ، وكهلا ﴾ [1] .

كما انفرد (لوقا) بالتعبير عن الله بلفظ (الآب) ، وتبعه (يوحنا) ، مما يفيد أن الالتزام ليس مرهوناً بشيء كامل الحلقة ، تام التكوين .. ولعل فى مقدمة إنجيل (لوقا) ما يوحى بهذا المعنى ، (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدّاماً للكلمة) .. فإذا رأينا أن هؤلاء (الكثيرين) مضوا فى تأليف القصص أكثر من مائة عام ، قبل تدوين أول إنجيل ـ أدركنا إلى أى حد ترتبط عبارة الإنجيل بالوحى .

وفى (أعمال الرسل/ ٧) أخبار عن موسى ـ عليه السلام ـ لم ترد إلا فى القرآن الكريم ، وبألفاظ القرآن الكريم تقريباً فى بعض التعبيرات ، فكيف نفسر هذا ؟! .

* * *

أورد إنجيل لوقا عبارتين متناقضتين على لسان يسوع :

قال يوحنا : (يامعلم ، رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك فمنعناه ، لأنه ليس يتبع معنا ، فقال له يسوع : لا تمنعوه ، لأن من ليس علينا فهو معنا) ـ صح ٩ ـ على حين أنه ورد فى تعاليمه (من ليس معى فهو علىّ) ـ صح ١١ .

(١) المائدة / ١١٠ .

ولما كان المعنى الأول مرتبطاً بروح الدعوة ، فكيف نفسر المعنى الآخر الذى يشبه السياسة الأمريكية التى كان يقودها فوستر دالاس ؟ .

تعبير آخر لايتلاءم مع شريعة التسامح :

(إن كان أحد يأتى إلىّ ، ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون تلميذاً) _ (لوقا / ١٤) .

طبعاً المقصود أن يكون خالصاً لله ، لكن العبارة توحى بمعان ليست من الدين فى شيء ، مردّها لفظ (يبغض) على حين يتمثل المعنى السماوى فى قول الله تعالى : **﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾** [1] .

بهذا السمو فى معاملة الآباء يحتفظ الإنسان بأنبل العواطف ، وأرقى الواجبات ، ويحمى الأسرة من التمزق ويساعد على إصلاح ما فسد ، عن طريق المعاشرة الطيبة ، وبرّ الوالدين .

** وفى الوقت الذى يقول فيه السيد المسيح : (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) ، اعترافاً منه بما جاء به الرسل السابقون ، وبخاصة موسى ، نجده يقول : (جميع الذين أتوا قبلى سرّاق ولصوص)_ (يوحنا / ١٠) _ فكيف ؟! .

مهما قلنا فى أنبياء بنى إسرائيل ومتنبئيهم ، فلا يمكن الجمع _ على السواء _ فى إطار السرقة واللصوصية !! .

** وجاء فى (أعمال الرسل / ٧) :

(نزل يعقوب إلى مصر ، ومات هو وآباؤنا ، ونقلوا إلى شكيم ،

(١) لقمـــان / ١٥ .

ووضعوا فى القبر الذى اشتراه إبراهيم بثمن فضة من حور أبى شكيم) !! .

والحقيقـة أن يعقـوب هـو الذى اشتـرى هـذه الأرض ، أما إبراهيـم فقـد اشترى من عفرون الحثى حقـلاً ومغـارة ودفـن فيها زوجته سـارة _ (تكوين /٢٣) .

** بعد كسرة الملوك كان فى استقبال إبراهيم (ملكى صادق ملك شاليم ، أخرج خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلى ، وباركه ، وقال : مبارك أبرام من الله العلى ، مالك السموات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك ، فأعطاه عشراً من كل شيء) _ (تكوين / ١٤)

وفى (الرسالة إلى العبرانيين/ ٧) كتب تيموثاوس : (ملكى صادق هذا ، ملك ساليم ، كاهن الله العلى ، الذى استقبل إبراهيم راجعاً من كسرة الملوك ، وباركه ، الذى قسم له إبراهيم عشراً من كل شيء ، المترجم أولاً ملك البر ، ثم أيضاً ملك ساليم ، أى ملك السلام ، بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب ، لا بداءة أيام له ، ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه بابن الله ، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد) .

من أين جاء تيموثاوس بهذه الصفات التى تجعل ملكى صادق الكاهن إلهاً ، لا أول له ، ولا آخر ، ولا أب ولا أم ، أليس بهذه الصفات يكون أفضل من يسوع ابن الإنسان الذى ولدته العذراء مريم ؟!

وإذا كان الله وعيسى وروح القدس شيئاً واحداً ، فما موضع ملكى صادق من هذا الثالوث ؟! .

يبدو أن تيموثاوس اطلع على ما جاء فى (المدراش) اليهودى من أن ملكى صادق كان فى سفينة نوح ، وجرى حديث بين إبراهيم وملكى صادق ، عما حدث فى السفينة ، فذهب به الخيال مذهباً بعيداً ، مع أن تاريخ يوسيفوس لم يزد شيئاً على ما جاء فى التوراة [1] .

(١) العقاد_ أبو الأنبياء_ ص ٥٢ .

** يقول الدكتور فؤاد حسنين على : إن الأناجيل الثلاثة ـ متى ولوقا ومرقس ـ تتحدث عن يوم وفاة المسيح بأنه قبض عليه ليلة عيد الفصح، وفى الصبح أمر بيلاطس بصلبه ، أى فى ١٥ نيسان ، وإذا علمنا أن أول أيام عيد الفصح يبتدئ من الساعة السادسة من مساء اليوم الخامس عشر ، وأن هذا اليوم يعتبر كيوم السبت ، أعنى مقدساً ، ولا يجوز أن تنظر فيه قضية ، أو يصدر فيه حكم ، أدركنا ضعف رأى الأناجيل الثلاثة ، بينما ما ذكره يوحنا أن القبض والصلب يوم ١٤ تاريخ معقول ، وإن كان هناك طعن يمكن توجيهه إليه ، وهو فى أى عام من الأعوام كان أول عبد الفصح يوم ١٤ و ١٥ نيسان؟ هذا ما نعجز عن الإجابة عليه[١] .

ويلاحظ أن إنجيل لوقا يصدر عن صعود المسيح قولاً يناقض ما يقوله (أعمال الرسل) التى سلّم المتخصصون أنه كاتبها ، وهى جزء متمم للعهد الجديد ، إذ يحدد فى إنجيله صعود المسيح بيوم الفصح ، ويحدده فى (الأعمال) بعد ذلك بأربعين يوماً .

كما يلاحظ أن وصف يوم القيامة انفرد به (متى/ ٢٧) فى صورة خيالية ، تذكر أن (حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور انشقت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا للكثيرين) .

فلماذا لم يرد هذا الخبر فى الأناجيل الثلاثة الأخرى ، مع أن (الجميع متفقون على أن متّى قد كتب إنجيله اعتماداً على مصادر مشتركة بينه وبين مرقس ولوقا ، وأن متى استخدم بشكل واسع إنجيل مرقس الذى لم يكن أحد حواريى المسيح)[٢] ..

من أين إذن جاء متى (بمظاهرة) القديسين هذه ؟! .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ١٦٦ / ١٦٧ .

(٢) موريس بوكاى ـ ص ٨١ / ٨٢ .

ألا يوضع فى الاعتبار حدوث هذا الصعود لموسى وأخنوخ وأليشع وأشعياء ، وأن انتقال (القديس) بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، كما يقول ول ديورانت[١] ؟ .

* * *

ظاهرة لافتة ـ سبقت الإشارة إليها فى الفصل الثامن ـ أن من جاءوا بعد موسى ـ عليه السلام ـ حرص كُتّابهم على أن يجروا على أيديهم معجزات جرت على أيدى الأنبياء السابقين .

ولقد تكرر مثل هذا مع من جاءوا بعد عيسى ، عليه السلام .

(بطرس) يلتقى برجل كسيح (أعرج من بطن أمه) ، فيقول له : (ليس لى فضة ولا ذهب ، ولكن الذى لى فإياه أعطيك ، باسم يسوع المسيح الناصرى قم ، وامش) ، وفى الحال (تشدّدت رجلاه وكعباه ، فوثب ووقف وصار يمشى) ـ (أعمال الرسل / ٣) .

(وجرت على أيدى الرسل آيات وعجائب كثيرة فى الشعب) ـ (أعمال الرسل / ٥) .

** فى (أعمال الرسل / ٥) حنانيا (باع ملكا ، واختلس من الثمن ، وامرأته لها خبر ذلك ، وأتى بجزء وضعه عند أرجل الرسل) ، أى أن الرجل لم يخطئ ، لأن المال ماله ، ولأنه أراد أن يتقرب إلى الله بهذا المال ، عن طريق الرسل ، وزوجه على علم بكل هذا .. ومع ذلك سقط حنانيا ، ومات ، لأن الشيطان ملأ قلبه بالكذب ، واختلس من ثمن الحقل !! أى أنه أخطأ فى حق الله !! ولو أن هذا حدث ، فهل يسقط الآثم ميتاً ، وتكون المعجزة ؟! أم أن الرجل أصيب بصدمة ، حين فوجئ بأن برّه صار إثماً ، وطاعته صارت معصية ، فتوقف قلبه عن العمل ، وسقط ميتاً ،

(١) قصة الحضارة ـ مج ٣ جـ٣ ـ ص ٢٤٠ .

ومات كذلك زوجته ؟! أيكون السبب أنه باع حقله ، والتفريط فى الأرض كالتفريط فى العرض ؟! .

** (كانوا يحملون المرضى خارجا فى الشوارع ، ويضعونهم على فُرش وأسِرّة ، حتى إذا جاء بطرس يخيّم ولو ظله على أحد منهم ، واجتمع جمهور المدن المحيطة إلى أورشليم ، حاملين مرضى ، ومعذّبين من أرواح نجسة ، وكانوا يبرءون جميعهم) ـ (أعمال الرسل / ٥) .

هكذا تبرأ الجموع بمجرد أن يخيم ظل بطرس عليها .. أهو العامل النفسى أيضاً ؟ بسبب الثقة ؟ بسبب الإيمان القوى ؟ أم هى آفة الخيال الواسع ؟! .

** ألقى الكهنة (أيديهم على الرسل ، وضعوهم فى حبس العامة ، ولكن ملاك الرب فى الليل فتح أبواب السجن ، وأخرجهم) ـ (أعمال الرسل / ٥) .

وكذلك فعل ملاك الرب مع بطرس فى سجن هيرودس ـ (أعمال الرسل /١٢) ـ ومع بولس فى فيلبى ـ(أعمال الرسل / ١٦) .

قد يقول قائل : لماذا يكون الإفراج ليلاً ؟ طبعاً العمل الفدائى ليس وارداً ، لكن حتى لايرى ملاك الرب ، أو حتى لا تهتز السنن الكونية فى أذهان الناس ، فيصابوا بالزلزال الذى يمزق واقعهم ، وإن كان فى إبراء المرضى ـ بصورة جماعية ، أمام جموع أهل المدن ـ ما يعدّ النفوس لتقبل كل خارقة ، إذ لم يعد للسنن الكونية قانون ثابت مطرد !! .

أليس(كثيرون من المفلوجين والعُرج شُفُوا) على أيدى فيلبس بمدينة السامرة ؟ (أعمال الرسل / ٨) .

ألم يعمّد فيلبسُ الخصىَّ : (ولما صعدا من الماء خطف روح الرب فيلبس ، فلم يبصره الخصى أيضاً ، وذهب فى طريقه فرحاً ، وأما فيلبس

فوجد فى أشدود) ؟! ـ (أعمال الرسل / ٨) .

وكان (شاول) يقتل (تلاميذ الرب) ، فظهر له المسيح ولاّمه ، فكان (وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً .. وقد رأى فى رؤيا رجلاً اسمه حنانيا داخلاً وواضعاً يده عليه لكى يبصر) .. لكن حنانيا اعترض على شفاء رجل يوثق جميع الذين يدعون باسم الرب . (فقال له الرب : اذهب، لأن هذا لى إناء مختار ، ليحمل اسمى أمام أمم وملوك بنى إسرائيل) ، فما كاد حنانيا يضع يده على شاول حتى (وقع من عينيه شيء ، كأنه قشور ، فأبصر فى الحال) ـ (أعمال الرسل / ٩) .

(وكان يجلس فى لسترة رجل عاجز الرجلين ، مقعد من بطن أمه ، ولم يمس قط) ، فقال له بولس (بصوت عظيم : قم على رجليك منتصباً ، فوثب ، وصار يمشى) ـ (أعمال الرسل / ١٤) .

وفى أفسس ، وجد بولس اثنى عشر تلميذاً ، (ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبئون) ـ (أعمال الرسل / ١٩) .

(وكان يؤتى عن جسده ـ بولس ـ بمناديل أومآزر إلى المرضى ، فتزول عنهم الأمراض ، وتخرج الأرواح الشريرة) ـ (أعمال الرسل / ١٩).

وفى يافا مرضت (طابيثا) وماتت ، وأرسل أهلها فى طلب بطرس من لدة (اللد) ، فجاء (وجثا على ركبتيه ، وصلى ، ثم التفت إلى الجسد ، وقال : ياطابيثا ، قومى ، ففتحت عينيها ، ولما أبصرت بطرس جلست ، فناولها يده ، وأقامها) ـ (أعمال الرسل / ٩) .

ودعا (شاول) على سرجيوس بولس : (الآن هوذا يد الرب عليك ،

فتكون أعمى لا تبصر الشمس إلى حين ، ففى الحال سقط عليه ضباب وظلمة ، فجعل يدور ملتمسا من يقوده بيده) ـ (أعمال الرسل / ١٣) .

خوارق عديدة من أجل الحرية ، ومن أجل محاربة المرض ، ومن أجل إحياء الموتى .. ولا تعليق !!.

* * *

نختم هذه السياحة الطويلة بهذا الخبر :

(إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان ، واحد من الجارية ، والآخر من الحرة ، ولكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذى من الحرة فبالموعد ، وكل ذلك رمز ، لأن هاتين هما العهدان : أحدهما من جبل سيناء ، الوالد للعبودية الذى هو هاجر ، لأن هاجر جبل سيناء فى العربية ، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة ، فإنها مستعبدة مع بنيها ، وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعاً فهى حرة ، لأنه مكتوب : افرحى أيتها العاقر التى لم تلد ، اهتفى واصرخى أيتها التى لم تتمخض ، فإن أولاد الموحشة أكثر من التى لها زوج ، وأما نحن ـ أيها الإخوة ـ فنظير إسحق ، أولاد الموعد ، ولكن ، كما كان حينئذ الذى ولد حسب الجسد يضطهد الذى حسب الروح ، هكذا الآن أيضاً ، لكن ماذا يقول الكتاب : اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة) ـ (رسالة بولس إلى أهل غلاطية / ٤) .

خليط من المفاهيم الخاطئة والعصبية الحاقدة ، دون مبرر ، إلا أن نقول إنها كتبت بيد صهيونية ، إذ كيف يكون أولاد إسماعيل ملعونين بالعبودية ؟ .

ولماذا كان أولاد إسحق مولودين حسب الروح ؟.

أليس إسماعيل بكر إبراهيم وابن شبابه ؟.

ألا نخرف مع المخرفين ، فنقول ، إن إسحق ابن شيخين وهن عظمهما ، فلم يرث إلا آثار الشيخوخة ؟ .

وإذا كانت المسيحية (للأمم جميعاً) ـ كما قال بولس فى رسالته إلى أهل رومية ـ فكيف لا تخلّص المسيحية العرب ـ أبناء هاجر ـ من العبودية ؟! .

أليست (الحرية التى حررنا المسيح بها) حقاً للعرب كذلك ؟! .

* * *

١١ــ إنجيل برنابا .. لمــاذا ؟

برنابا أحد حواريى السيد المسيح ، الذين شهدوه ، وساروا خلفه ، وعملوا على نشر دعوته من بعده ، وكان هو الذى قدم بولس إلى المجتمع المسيحى .

يشير صاحب (قصة الحضارة) إلى أن برنابا وقف إلى جانب بولس فى محنته من المسيحيين واليهود ، على السواء ، وقدم له المعونة ، (وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين فى أنطاكية ، وأخذ الرجلان يعملان معاً ، فهديا كثيراً من الناس ، ثم رحل الرجلان إلى قبرص للتبشير بالدين الجديد ، ممثلين لرؤساء الكنيسة [١] ، ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا فى بمفيلية ، واجتازا طرقاً جبلية وعرة ، تعرضا فيها للخطر ، حتى وصلا إلى أنطاكية فى بسيديا Pisidia ، وحملا الإنجيل إلى دربى Derbe ، ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا ، وأبحرا منها إلى أنطاكية السورية) .

أكثر من خمس سنوات ، ورسولا المسيحية فى صحبة حميمة ، مخلصين فى نشر الدين الجديد ، وما لبث أن اختلف الرسولان ، فقام بولس برحلته التبشيرية الثانية وحده سنة ٥٠ م ، واختفى برنابا فى موطنه بجزيرة قبرص ، ولم يعد له ذكر فى التاريخ [٢] .

كان لا بد من هذا الاختلاف ، وكان لا بد من اختفاء برنابا ، بعد اشتهار أمر بولس ، ذلك بسبب ما داعا إليه بولس من ألوهية المسيح ، وبما روجّ من تكفير صلب المسيح عن خطيئة آدم ، وفتح أبواب الفردوس أمام المؤمنين به ، بعد أن كانت مغلقة بسبب الخطيئة ، وبسّط التشريع اليهودى ، حتى اقتصر على أربعة محرمات : (ماذبح على النصب ،

(١) انظر (أعمال الرسل / ١٥) .

(٢) قصة الحضارة ــ مج ٣ جـ٣ ــ ص ٢٥٣ / ٢٥٦ .

الدم ، المخنوق ، الزنا) ، وأباح ما عدا ذلك ، حتى الامتناع عن الختان ، وحتى سجلّ النجاسات التى عرف بها التشريع اليهودى .. هذا على حين كان برنابا يرى فى المسيح إنساناً رسولاً ، ويرى أن إسماعيل بن إبراهيم هو الذبيح ، لا إسحق ، وأن يسوع لم يصلب ، بل رفع إلى السماء ، وأن الذى صلب هو يهوذا الخائن الذى شبه به ، وأن المسيح المنتظر الذى تحدث عنه العهد القديم هو (محمد) لا يســوع .

وترتب على هذا الخلاف أن أغفلت المسيحية دور برنابا ، بل حاربته ، وحذفت اسمه من الأناجيل المعترف بها .

وإذا أخذنا بما جاء فى دائرة المعارف الفرنسية من أن إنجيل كل من مرقس ويوحنا من وضع بولس ، أدركنا سر هذا الإغفال ، إذ إن معظم الكتابات المسيحية سيطر عليها بولس وأنصاره من بعده ، ولم يكد يبعث برنابا من جديد إلا فى القرن الثامن عشر ، حين عثر سنة ١٧٠٩م على نسخة إيطالية من إنجيل برنابا محفوظة فى أمستر دام ، وأهديت إلى البرنس (أيوجين سافوى) الذى حفظها سنة ١٧٣٨ م فى مكتبة البلاط الملكى فى فيينا ، كما عثر على نسخة أسبانية قديمة العهد فى أوائل القرن الثامن عشر ، ترجمت إلى الإنجليزية ، بواسطة المستشرق (سايل) والدكتور (منكهوس) أحد أعضاء الكلية الملكية فى أكسفورد ، وترجمت أيضاً النسخة الإيطالية إلى الإنجليزية ، ووجد أنها تطابق ــ تقريباً ــ الترجمة الخاصة بالنسخة الأسبانية .

وقد ترجم هذا الإنجيل عن الإنجليزية الدكتور خليل سعادة سنة ١٩٠٨م .

ولما كان النص المنقول إلى العربية يتضمن مفاهيم عربية إسلامية ، فقد ذكر المترجم أنه (لم يرد ذكر لهذا الإنجيل فى كتابات مشاهير الكتاب المسلمين ، سواء فى الأعصر القديمة أو الحديثة ، حتى ولا فى مؤلفات من

انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية ، مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم فى تلك المناقشات ، وليس ذلك فقط ، بل لم يرد ذكر لهذا الإنجيل فى فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعارب والأعاجم ، أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية ، من قديمة وحديثة) ـ ص (ط) .

فمن أين إذن جاء هذا التوافق مع الفكر الإسلامى ؟ .

يقول المترجم : (الذى أذهب إليه أن الكاتب يهودى أندلسى اعتنق الدين الإسلامى بعد تنصره واطلاعه على أناجيل النصارى .. لأنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم ، لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلا فى أفراد قليلين من الإخصائيين الذى جعلوا حياتهم وقفاً على الدين ، كالمفسرين) .

(.. ومما يعزز هذا الرأى أن هذا الإنجيل يتضمن كثيراً من التقاليد التلمودية التى يتعذر على يهودى معرفتها ، وفيه أيضاً شيء من معانى الأحاديث والأقاصيص الإسلامية الشائعة على ألسنة العامة ، ولا سند لها من كتب الدين ، ولا يتأتى لأحد الاطلاع على مثل هذه الروايات إلا إذا كان فى بيئة عربية) ـ ص (ى) .

ثم إن (نحو نصفه أو ثلثه ـ على الأقل ـ يتفق مع مصادر أخرى غير التوراة والإنجيل والتلمود والقرآن ، إذ فيه تفاصيل ضافية الذيول ، لم يرد لها ذكر فى الأناجيل إلا على طريق الاقتضاب ، وليس لبعضها ذكر بالمرّة ، وإن على كثير من هذه الزيادات صفة القدمية ، ويذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ م يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى « إنجيل برنابا » ، فإذا صح ذلك كان هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور نبى المسلمين بزمن طويل ، وهو دليل على أن هذا الإنجيل لم يكن حينئذ لابساً هذا

الثوب القشيب الذى يرفل فيه الآن) ـ ص (ل) .

وهذا يعنى أن إنجيل برنابا تداولته أقلام كثيرة .. فمن ناحية المحتوى نجد أفكاراً يونانية ، وأخرى إسلامية ، بالإضافة إلى دراسة جيدة لما جاء فى العهدين القديم والجديد .. ومن ناحية الشكل نجد فصولاً معنونة ، وعناوين مكررة ، وفصولاً بلا عناوين ، والعناوين جملة تأخذ تقليداً إسلامياً بقلم غير عربى .

لهذا آثرت ألا يكون هذا الإنجيل أحد مصادر الدراسة السابقة ، ولا أحد مراجعها .

** والناظر فى هذا الإنجيل يجد إلحاحاً على صلة برنابا بالمسيح ، فهو يقول فى الفصل العاشر : (ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر ـ كما أخبرنى بذلك نفسه ـ صعد إلى جبل الزيتون ... ولقد قال لى : صدّق يا برنابا أنى أعرف كل نبى ، وكل نبوة ، وكل ما أقول إنما قد جاء من ذلك الكتاب) .. يشير إلى كتاب قدمه جبريل إلى يسوع .

وفى الفصل الرابع عشر: (وانتخب اثنى عشر سماهم رسلاً ، منهم يهوذا الذى صُلب .. وبرنابا الذى كتب هذا) ، وحذف توما وسمعان ، مع مالهما من شأن فى العقيدة والتاريخ المسيحى ، وذكر تداوس معه فى مكانيهما .

وفى الفصل التاسع عشر يقول يسوع : (لا تأسف يابرنابا ، لأن الذين اختارهم الله قبل خلق العالم لا يهلكون ، تهلل لأن اسمك مكتوب فى سفر الحياة) .

وفى الفصل الحادى والعشرين بعد المائتين (التفت يسوع إلى الذى يكتب ، وقال: يا برنابا ، عليك أن تكتب إنجيلى حتماً ، وما حدث فى شأنى مدة وجودى فى العالم ، واكتب أيضاً ما حلّ بيهوذا ، ليزول انخداع المؤمنين ، ويصدّق كل أحد الحق) .

هكذا قدم برنابا نفسه إلى قرائه ، مؤكداً قوة صلته بالسيد المسيح ، واختصاصه بكتابة الإنجيل ، كأنما يرد على أولئك الذين صادروا إنجيله ، وحكموا على صاحبه باللعنة.

** كثير من الموضوعات التى طرحها إنجيله دليل قوى على أن هذا الإنجيل تحوّل إلى لون من التراث الإنسانى العام ، وإن كان فى صميمه مسيحياً .

ونكتفى فى هذا الإطار المحدود بإلقاء الضوء على أبرز الملامح الفكرية (العقائدية) الواردة فى هذا الإنجيل .

أ ـ الشيطـــان :

فى الفصل الخامس والثلاثين يتناول موقف الشيطان من الإنسان فى ثلاثة مواقف ، أقرب إلى أن يكون تناولاً فلسفياً .

يجيب عن سؤال : هل كان سقوط الشيطان عصياناً لله أو كبرياء ؟ فيقول على لسان الشيطان :

(يارب ، إننا روح ، ولذلك ليس من العدل أن نسجد لهذه الطينة) .

ولما قال ذلك أصبح مخوف المنظر ، فتضاعف (ظلم الله) له ولهذا قال متحدياً :

(يارب ، إنك جعلتنى قبيحاً ظلماً ، ولكننى راض بذلك ، لأننى أروم أن أبطل كل ما فعلت) .

وهذه الجرأة شجعت أتباعه على المغالاة فى التحدى ، فالأتباع دائماً ـ كما يقول المثل ـ ملكيون أكثر من الملك .. لهذا قالوا :

(لا تَدْعُه رباً ، ياكركب الصبح ، لأنك أنت الرب) .

لكن الرءوف الرحيم عذل هؤلاء الأتباع المندفعين فى عصيانهم ، ودعاهم إلى الجادّة ، إلى تحكيم عقولهم ، فقال :

(توبوا واعترفوا بأنى أنا خالقكم) .

وكأن استمراء العصيان أحب من الطاعة التى تكبح الجماح ، وتقيد المسيرة ، فأجابوا :

(إننا نتوب عن سجودنا لك ، لأنك غير عادل ، ولكن الشيطان عادل وبرىء ، هو ربنا) .

إنهم يقلبون الحقائق ، وسيلة إلى تزكية نفوسهم ، وتبرير موقفهم ، إمعاناً فى الضلالة ، ولجاجاً فى الحيرة ، واضطراباً فى أحبولة الانخداع بالباطل .

بهذا صوَّر (برنابا) الضعف الإنسانى الذى يتمثل فى تزيين الشهوات ، والاعتزاز بالإثم ، والاغترار بالشرور ، والاندفاع إلى الهاوية فى خطوات الشيطان التى وضحها القرآن الكريم بقوله : ﴿ **إنه يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[1] ، فهو ينتقل بالإنسان الذى اتخذ إلهه هواه من السوء ، إلى الفحشاء ، إلى الكفر بخالقه وعبادة الأوثان ، وأخطر الأوثان هو ذات المرء ، والالتفاف حول الذات أخطر العبادات .

** وفى الفصل الأربعين يعالج الكاتب طبيعة الجرم الإنسانى ، عن طريق شهوة الفرج التى يرمز إليها التراث الإنسانى بالحية ، فالشيطان يصل إلى الإنسان ، ويسيطر عليه ، عن طريق هذه الشهوة ، لهذا يقول الشيطان للحية : (إنك كبيرة ، فافتحى فاك ، فأدخل فى بطنك ، فمتى دخلت الجنة ضعينى بجانب هاتين الكتلتين من الطين اللتين تمشيان على الأرض) .

لا شك فى أن التعبير بالكتلتين من الطين عن آدم وحواء يمثل الاستهانة والقدرة على التسخير للخطيئة ، فإذا قلنا إن الحية رمز لعضو

(١) البقرة : ١٦٩ .

التذكير فقد أصبحت كتلتا الطين من جسد المرأة أمراً لا يحتاج إلى بيان .

ولما كان ارتكاب الإثم يبدأ بقدر من التردد بسبب من الفطرة الطيبة ، فإن حجج الباطل تأخذ طريق التعمية والتشويه والافتراء : (يجب أن تعرفى أن الله شرير وحسود ، لذلك لا يحتمل أنداداً ، ولكنه يستعبد كل أحد ، وهو إنما قال لكما ذلك لكيلا تصيرا ندّين له ، ولكن إذا كنت وعشيرك تعملان بنصيحتى فإنكما تأكلان من هذه الأثمار كما تأكلان من غيرها ، ولا تلبثا خاضعين لآخرين ، بل تعرفان الخير والشر كالله ، وتفعلان ما تريدان ، لأنكما تصيران ندين له) .

إنه يركز على الكبرياء الزائفة إلى جوار الإغراء المثير بالقدرة على (الخلق) : أو الإنجاب ، والإنجاب هو السبيل إلى معرفة وممارسة الخير والشر ، لأن الخير والشر لا يكونان إلا فى مجتمع من (البشر) ، يسيطر عليه الغرائز ، وتحركه المنافسة .

** وفى الفصل الحادى والخمسين يحاول العودة بالشيطان إلى طريق التوبة والصلاح ، لكنه لا جدوى من الموعظة الحسنة ما لم تجد تربة صالحة ، فالتغيير لا يأتى من الخارج : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] ، وعلى هذا الأساس القرآنى يقول يسوع : (إنى عطفت على الشيطان لما علمت بسقوطه ، وعطفت على الجنس البشرى الذى يفتنه ليخطئ) ، فدعا الله سبحانه أن يرحم الشيطان بمساعدته على التوبة ، فقال الله : (يسوع ، انظر فإنى أصفح عنه ، فاحمِلْه على أن يقول فقط : أيها الرب ، إلهى ، لقد أخطأت فارحمنى) .

لكن الشيطان المريد « عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر » ، وقال : (إنى بمسرة أقبل المصالحة ، إذا قال الله لى هاتين الكلمتين) .

هكذا تصور (الكاتب) مدى سيطرة الشر على صاحبه ، ومن أجل

(١) الرعد : ١١

توضيح هذه الفكرة الفلسفية ساق قصة إيمان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وإصرار أبيه على الكفر ، فى أربعة فصول متتالية (ص ٣٥ ـ ٤٣) .

ومن أجل تعميق حقيقة الإيمان ، وبيان حلاوة الطهارة النفسية ، أوْرَد صوراً مختلفة لهذه القيمة الإنسانية السماوية مصوغة صياغة الحكمة أو الصورة الأدبية .

يقول فى الفصل الثالث بعد المائة : (ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقته النفس ، ولايبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة) .

لكن ، ألا تتحقق هذه الخطيئة دون إرادة منا ؟ أليست قدراً مقدوراً ؟ .

يجيب فى الفصل العاشر بعد المائة : (إنكم لا تنالون ما لا تشتهون ، إن الله لقادر ـ إذا اشتهيتم الطهارة ـ أن يجعلكم طاهرين فى أقل من طرفة عين ، ولكن إلهنا يريد أن ننتظر ونطلب لكى يشعر الإنسان بالهبة والواهب) .

الأمر ليس مقصوراً على الدعاء ، بل على الرغبة والتوجُّه ، فمن مشى إلى الله ذراعاً مشى إليه باعاً ، لا بد أن تكون البداية من الإنسان ، يشاء ويسعى ، طالباً من الله العون على تحقيق ما فيه خيره وخير الآخرين .

(إن الشهوة هى عشق مكبوح الجماح ، إذا لم يرشده العقل تجاوز حدود البصيرة) .

لهذا وجب أن يعرف المرء نفسه ، يعرف دوافعها ، ويعرف كوابحها ، لأن (الإنسان لما لم يكن يعرف نفسه أحب ما يجب عليه بغضه ، صدّقونى ، متى أحبَّ الإنسان شيئاً ـ لامن حيث إن الله أعطاه هذا الشيء ـ فهو زان ، لأنه جعل النفس متحدة بالمخلوق ، وهى التى يجب أن تبقى متحدة بالله خالقها) ـ ص ١٧٥ .

نزوع إلى التصوف ، إلى العشق المكبوح ، إلى الاتحاد بالخالق ، إلى محاسبة النفس ، ومراقبة السلوك ، لهذا أعطى الله الإنسان حريتـه ، لا ليطغى ، بل ليحسن العمل ، ليزداد قرباً من الله ، (ليعلم أن ليس لله حاجة إليه ، كما يفعل الملك الذى يعطى حرية لعبده ، ليظهر ثروته ، وليكون عبده أشد حباً له) .

(تركه حراً بجوده ، على طريقة يمكنه معها مقاومة الشـر وفعـل الخير ، وإن الله ــ مع قدرته على منع الخطيئة ــ لم يرد أن يضادّ جوده ، إذ ليس عند الله تضاد ، فلما عملت قدرته على كل شيء وجوده عملهما فى الإنسان لم يقاوم الخطيئة فى الإنسان ، لكى تعمل رحمة الله وبره) ــ ص ٢٣٩ / ٢٤٠ .

إن من رحمة الله وبره أن ترك للإنسان حق الاختيار ، وهيأ له القدرة على الصواب والخطأ ، وفتح أمامه باب التوبة ، وأحب الله التوابين المتطهرين، لأنهم اكتسبوا بتجربة الخطأ عرفانهم بعفو الله ، وبواسع جوده .

(قولوا لى : من هو أشد حباً للطبيب : الذين لم يمرضوا مطلقاً ، أم الذين شفاهم الطبيب من أمراض خطيرة ؟) .

(إن الخاطئ التائب يحب إلهنا أكثر من البار ، لأنه يعرف رحمة الله العظيمة له ، لأنه ليس للبار معرفة برحمة الله ، لذلك يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً) ــ ص ٢٩٤ .

ب ـ ميتا فيزيقـا :

ويمضى به هذا النزوع الفلسفى إلى تناول القضايا الغيبية التى أهمّت الفلاسفة الإسلاميين ، لكن تناوله كان أقرب إلى المسّ الرقيق ، بعيداً من التفصيل والتفريع والتعميق .

١ ــ يعرض لتنزيه الله عن الجوارح التى تشبهه بالبشر ، فإذا هو يُجرى حواراً بين متّى ويسوع ، يردّ فيه السيد المسيح قول متّى : (إذا كان لله يدان

فله إذن شبه بالبشر) ــ بأنه (لا يجب على الإنسان أن يلاحظ ظاهر الكلام بل معناه ، إذ الكلام البشرى بمثابة ترجمان بيننا وبين الله ، ألا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء صرخ آباؤنا : « كلمنا أنت ياموسى ولا يكلمنا الله ، لئلا نموت » ؟ وماذا قال الله على لسان أشعياء النبى ؟ أليس كما بعدت السماء عن الأرض هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس وأفكار الله عن أفكار الناس ؟) ــ ص ١٥٨ .

لم يقف السيد المسيح عند حدود اليد التى أوّلها المعتزلة بالقوة وبالنعمـة ، ووقف منها أهل السنة موقف التسليم ، دون كيف ، بل اكتفى بالحكم العام : (شتان بين طرق الله وطرق النـاس ، وأفكار الله وأفكار النـاس) ، لأنه (ليس كمثله شيء) .

٢ ــ ويلمس ثوب أرسطو وابن سينا وابن رشد ، فيقول : (النفس والحس مرتبطان معاً ارتباطاً محكماً ، وحتى أن أكثر الناس يثبتون أن النفس والحس إنما هما شيء واحد ، فارقين بينهما بالعمل ، لا بالجوهر ، ويسمونها بالنفس الحاسّة والنباتية والعقلية ، ولكن الحقّ أقول لكم ، إن النفس هى شيء حيّ مفكر) ــ ص ١٦١ .

٣ ــ وكما قال الصوفية إن سبب خلق الكون إنما هو (معرفة) الله ، أو عبادته ، كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] ــ نجد السيد المسيح يقول : (إن إلهنا لأجل أن يظهر لخلائقه جوده ورحمته وقدرته على كل شيء ، مع كرمه وعدله ــ صنع مركّبا من أربعة أشياء متضاربة ، ووحدها فى شبح واحد نهائى ، هو الإنسان ، وهى التراب والهواء والماء والنار ، ليعدل كل منها ضده ، وصنع من هذه الأشياء الأربعة إناء ، وهو جسد الإنسان ، من لحم وعظم ودم ونخاع وجلد ، مع أعصاب وأوردة ، وسائر أجزائه الباطنية ، ووضع الله فيه النفس والحس ،

(١) الذاريات : ٥٦

بمثابة يدين لهذه الحياة ، وجعل مثوى الحس في كل جزء من الجسد ، لأنه انتشر هناك كالزيت ، وجعل مثوى النفس القلب ، حيث تتحد مع الحس ، فتتسلط على الحياة كلها) ـ ص ١٨٦ .

٤ ـ ثم يتناول المصير الإنساني ، بادئا بأشراط الساعة ـ ص ٨٣ ـ فيأتي بتفصيل خيالي عجيب ، يتحدث فيه حديث الواثق ، كأنما رآها رأي العين ، ولما كان المتحدث يسوع فليس إلا التسليم ، وهي جملة وتفصيلاً تختلف عن الأشراط الموجودة في التراث الإسلامي ، وهو يجري أشراطه في خمسة عشر يوماً متتابعة ، في صورة أحداث تأخذ خطاً مأساوياً متصاعداً .. وبعد أربعين سنة من هذه الأحداث التي تحول الأرض إلى سهل ، بعد أن (تتطاير الجبال في الهواء كالطيور ، وتطوى السماء كطيّ الدرج) ، تكون القيامة ـ ص ٨٤ ـ بدءاً برسول الله محمد ﷺ الذي سيطلع (كالشمس ، بيدأنه متألق كألف شمس)، وختاماً بالشيطان (الذي سيصير كل مخلوق عند النظر إليه كميت ، خوفاً من هيئة منظره المريع) .

ويكون الحساب ، (ويفتح الله الكتاب الذي في يد رسوله) محمد ﷺ (فيقرأ رسوله فيه ، وينادي كل الملائكة والأنبياء وكل المختارين) ص ٨٨ .

ولاشك في أن الجحيم ستكون للخطاة ، وهم سبعة : (المتكبر والحسود والطماع والزاني والكسلان والنَّهم والغاضب المستشيط) ـ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ـ بنفس ترتيب دركات الجحيم ، ويدخل الكافر في درك الغاضب المستشيط ، وعلى هذا فللخطايا السبع هذه سبعة أبواب ـ ص ٢٠٥ ـ وفاته أن هناك خطايا أخرى ذات معالم محددة كالقتل والخيانة والفتنة والسرقة وشرب الخمر والكذب والغش والنميمة والرشوة ، بالإضافة إلى ارتكاب ما حرمه بولس من (ماذبح على النصب ، والدم ، والمخنوق) ، وكثيرة هي الصفات العدوانية الشاذة ، كما أنه لا بد أن يوضع غير المختون المحروم من الفردوس في الاعتبار .

وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالذين (قد زنوا بالبغايا ، فستتحول كل أعمال هذه النجاسة فيهم إلى غشيان جنيات الجحيم اللواتي هن شياطين بصور نساء ، شعورهن من أفاع ، وأعينهن كبريت ملتهب ، وفمهن سام ، ولسانهن علقم ، وجسدهن محاط بشصوص مريشة بسنان ، شبيهة بالتي تصاد بها الأسماك الحمقاء ، ومخالبهن كمخالب العقبان ، وأظفارهن أمواس ، وطبيعة أعضائهن التناسلية نار ، فمع هؤلاء يتمتع الشهوانيون على جمر الجحيم الذي سيكون سريراً لهم) ـ ص ٢٠٧ .

نلاحظ أن عذاب الدركة الأولى أهون بكثير من عذاب الدركة الرابعة الخاصة بالزناة ، مما يفيد تأثير الكاتب الذي (كان يهودياً) بما جاء به العهد القديم .

ولما كان (يتحتم على كل أحد ـ أيّاً كان ـ أن يذهب إلى الجحيم) ، حتى (الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون ليشاهدوا حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله ـ يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضيّ عليهم بالعقاب ، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم ، ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين .. ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله ، ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين ، وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد ، قائلاً بعضهم لبعض : (اهربوا ، اهربوا ، فإن عدونا محمداً قد أتى)ـ ٢٠٩ / ٢١٠ .

ثم يتناول في تفصيل وصف (الجنة الواسعة جداً) ، ويجيب على سؤال هام :

يقول بطرس : (يا معلم ، لا بد أن تكون الجنة أكبر من الله ، لأن الله يُرى داخلها) .

فيجيب يسوع بحديث (قدسي) عن الله : (كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض ، وكما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل ،

هكذا أنا أكبر من الجنة ، بل أكثر من ذلك عدد حبوب رمل البحر ، وقطرات الماء في البحر ، وعشب الأرض ، وأوراق الأشجار ، وجلود الحيوانات ، بل أكثر من ذلك كثيراً ، عدد حبوب الرمل تملأ السموات والجنة ، بل أكثر) .

وكيف يُرى الله ، وهو يملأ الكون كله ؟

قال يسوع : (إن نفسك التي هي أعظم من الأرض برمتها ترى بعين واحدة الشمس التي هي أكبر من الأرض بألوف من المرار .. هكذا ترى الله خالقك بواسطة الجنة) ـ ص ٢٦٧ .

جـ ـ تقـــويم :

١ ـ قد اهتم الكاتب اهتماماً خاصاً بتأكيد ما جاء في القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام ، إذ يقول : ﴿ **ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ (١) .

فجعل يعلن هذه البشرى ما وسعه ذلك ، مستعينا بالتراث الشعبي الإسلامي ، ومضيفاً إليه من اجتهاداته ، فهو يقيم الدليل على أن الرسول محمداً ـ ﷺ ـ بشر الله به منذ أول الخلق ، بقوله : (فلما انتصب آدم على قدميه ، رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس ، نصها : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، وكان لا بد أن يسأل آدم عن هذه اللافتة ، أو هذا الشعار ، فأجاب الله سبحانه : (هذا الذي رأيته إنما هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة ، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء ، الذي متى جاء سيعطي نوراً للعالم ، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي ستين ألف سنة ، قبل أن أخلق شيئاً) ـ ص ٥٨ / ٥٩ .

ثم يمضي مع الكتاب المقدس فإذا كل حديث عن (المسيا) ـ

(١) الصف / ٦ .

المسيح المنتظر ـ إنما هو حديث عن رسول الله محمد ، ويعلن على لسان السيد المسيح : (ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم ، صدقوني ، إني رأيته وقدمت له الاحترام ، كما رآه كل نبي ؛ لأن الله يعطيهم روحه نبوة ، ولما رأيته امتلأت عزاء ، قائلاً : يامحمد ، ليكنِ الله معك ، وليجعلني أهلاً أن أحل سير حذائك ، لأني إذا نلت هذا صرت نبيا عظيما وقدوس الله) ـ ص ٦٩ .

٢ ـ ولأنه ينسب إلى بولس أنه تحول بالمسيحية اليهودية إلى مسار جديد ، من وثنية الثالوث ، ومن التحلل من التشريع اليهودي ، وبخاصة النجاسات والختان الذي جعله كتاب التوراة (علامة) شعب الله المختار نجد برنابا يحتفل لهذا الأمر ، فيعلن على لسان عيسى ـ في أكثر من موضع ـ أنه بريء من هذا الكفران المبين : (أيها الرب الإله القدير الغيور .. الْعن إلى الأبد كل ما يفسد إنجيلي الذي أعطيتني ، عندما يكتبون أني ابنك ، لأني أنا الطين والتراب خادم خدمك ، ولم أحسب نفسي قط خادماً صالحاً لك) ـ ص ٣٠٥ .

ولا يكتفي (الكاتب) بهذا ، بل يبين أن (غيّرة) الله سبحانه تستدعي أن يحاسب عيسى ـ وهو البريء من دعوى البُنوة أو الألوهية ـ لأنه أنيطت هذه الدعوى به ، و (الله يعاقب على كل خطيئة ، مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً ، لأن الله يغضب من الخطيئة .. فلما كان الناس قد دعوني الله ، وابن الله ، على أني كنت بريئاً في العالم ، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا ، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب ، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة) ـ ص ٣١٨ .

٣ ـ ويعلن في حدّة (تجريم) التخلي عن (الختان) ، فيقول على لسان يسوع : (الحقّ أقول لكم ، إن الكلب أفضل من رجل غير مختون) ص ٢٩ .

ثم بيّن سبب الختان وتاريخه ، قائلاً : (إنه لما أكل آدم ، الإنسان الأول ، الطعام الذى نهاه الله عنه فى الفردوس ، مخدوعاً من الشيطان ، عصى جسده الروح ، فأقسم قائلاً : تالله لأقطعنك ، فكسر شظية من صخر ، وأمسك جسده ـ إحليله ـ ليقطعه بحد الشظية ، فوبخه الملاك جبريل على ذلك ، فأجاب : لقد أقسمت بالله أن أقطعه ، فلا أكون حانثا ، حينئذ أراه الملاك زائدة جسده فقطعها ، فكما أن جسد كل إنسان من جسد آدم وجب عليه أن يراعى كل عهد أقسم آدم ليقومن به ، وحافظ آدم على فعل ذلك فى أولاده ، فتسلسلت سنّة الختان من جيل إلى جيل .. وأثبت هذا العهد قائلاً : « النفس التى لا تختن جسدها إياها أبدد من شعبى إلى الأبد ») .

ثم قال يسوع : (دعوا الخوف للذى لم يقطع غرلته ، لأنه محروم من الفردوس) ـ ص ٣٠ / ٣١ .

* * *

هذه ـ بإيجاز ـ أبرز ملامح إنجيل برنابا ، مع غلبة استخدام الأسلوب المنطقى الذى هو أقرب إلى الفلسفة اليونانية منه إلى الأناجيل الثلاثة (متى ومرقس ولوقا) .

* * *

٨ أكتوبـــر ١٩٨٩ .

كتب للمؤلف

كتب مطبوعـة :

١ ـ **المنهج البيانى فى التفسير الحديث للقرآن الكريم** ـ الأنجلو المصرية
٢ ـ **التراث .. واجبنا نحوه** ـ الأنجلو المصرية
٣ ـ **أمين الخولى فى مناهج تجديده** ـ المجلس الأعلى للفنون والآداب
٤ ـ **أمين الخولى .. حياته وأعماله** ـ الهيئة العامة للكتاب
٥ ـ **سبحان الله** ـ دار المعرف
٦ ـ **الذين يلحدون فى آيات الله** ـ دار المعرف
٧ ـ **قراءة فى ديوان ابن الرومى** ـ دار المعرف
٨ ـ **اليهود تاريخا وعقيدة** ـ دار الهلال ١٩٨١ ـ دار الاعتصام ١٩٨٨
٩ ـ **فى مرقص الظلال** (شعر) ـ توزيع دار المعارف
١٠ ـ **حتى تعود الابتسامة** (شعر) ـ توزيع دار المعارف
١١ ـ **الأرض لا تنبت أغصانا جافة** (شعر) ـ توزيع دار المعارف
١٢ ـ **دراسة فى التوراة والإنجيل** ـ توزيع دار المعارف
١٣ ـ **قبل أن تفيض الكأس** (رواية) ـ توزيع دار المعارف
١٤ ـ **حتى مطلع الفجر** (رواية) ـ توزيع دار المعارف
١٥ ـ **عبر الأسلاك الشائكة** (رواية) ـ توزيع دار المعارف
١٦ ـ **الإدانة .. شاهد من أهلها** (رواية) ـ توزيع دار المعارف

كتب معدة للطبـــع :

١ ـ **الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** (دراسة مطولة فى مجلدين)

٢ ـ محاكمة النص القرآنى ـ دار الفضيلة

٣ ـ هوامش تراثيـــــة ـ دار الاعتصام

٤ ـ من تجارب الشعر والشعراء (جـ ١ فى الجاهلية وفى الإسلام ـ جـ ٢ فى العصر العباسى) ـ الزهراء للإعلام

٥ ـ هذا أبو الطيب .. شاعر المعاناة والتمرد ـ الزهراء للإعلام

٦ ـ فى صحبة أبى العلاء ـ دار الأمين

٧ ـ حالة مخاض (رواية)

٨ ـ الأرض والجرذان (رواية)

٩ ـ حين ينزعون اللحاء (رواية)

١٠ ـ لله .. لا لقيصر ـ دراسة فى الإمامة

١١ ـ الساعة الخامسة والعشرون ـ دراسة فى أشراط الساعة

١٢ ـ آيات بينات من الهدى والفرقان ـ دار المعارف

* * *

فهرس الكتاب

* * *